العقيدة

العقيدة

رواية

د.مصطفى أشرف

تصميم الغلاف: عبد الرحمن محمد

تدقيق لغوي : محمود ربيع

رقم الإيداع: 29220 /2022

I.S.B.N:978- 977-86500-5-1

الطبعة الأولى2023م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

المدير التنفيذي : ثائر عزت

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

د. مصطفى أشرف

العقيدة

رواية



إهداء

إلى قريني، مصطفى بن أشرف بن نعمان بن مازر... أهديك هذا العمل وسطوره بعدما كنت خير رفيق تتلو عبر أصواتك الهامسة حقيقة ما حدث سابقًا وكيف فعل السلف سوءتهم الكُبرى ببلوغ تحضير النفس البشرية!!!

شاكرٌ لك برغم ثِقَل مُشاركة جسدنا سويًا.

تحذير،

أنا وأنت نعلم جيدًا حقيقة ما فعلناه قبل سنواتٍ عجاف، فإن خشيت أن ترى خطيئتك ماثلة أمامك داخل سطور هذا العمل،

فلا تُطفأ الأنوار أبدًا.

غضبةٌ واحدة يَخرج من خلفها الدجَّال، قلقٌ لا يُخلِّف من ورائه سوى أغصانٍ متناثرة على البقاع، ذكْرى تهاوت كمداً؛ فطالت الجبال، ويومٌ واحدٌ كان كفيلًا بما كان، جميعها أيَّها العَمّ جان أغراضٌ لفراشٍ رثٍّ وُلِد من عنق رحمه روحٌ يا ليتها نُطفَةٌ أُجْهِضَت قبل أن تُولَد.

طقس اليوم؟ مثلج!

المكان؟يبدو مريبًا بعض الشيء!

الأجواء؟ تميل إلى الضبابية!

خطوات متعاقبة نحو ركنٍ تغتصب نورُ شمعةٍ هزيلة ظلمته.. كينونَتَه الغامضة؛ لتُكمِل تلك الروح ذلك الفعل المُشين، يدٌ ممتدة إلى الأمام ودائرة سوداء تدور، وبمجرد التقائها مع أُخرى تُخرِجُ من بين طيَّاتها صوتًا يقول:

(جبَّاااااار، جبَّاار، برقِّته جبَّاار......)

يتنهّد الرجل ليجلس على أريكة موازية لتلك الأداة مستمعًا لما تصدره آلته المُفضلة "الجرامافون" وما ينبثق منها من كلمات تُذيب فؤاده، وربَّما تعبَثُ بعقله وهو مُغمض العينين فاتر النفس، تظنُّ لوهلتِكَ الأولى عند رؤيته بأنَّه قطعةٌ باليةٌ بلا روح مُلقاة لتستكين ريثما يُدركها الموت، تمرُّ ثوانٍ يتبَعُها دقائق حتى يسمع الرجل صوت آلته تقول:

(لو هصادف قلب مُخلِص مش هآمِنلُه وأصُونه، وإن ضحك في عنَيّا هضحك وأخدَعُه، ويمكن أخونه....)

متى كنت سعيدًا فَوَقْع كلمات اللحن سيصلُ إلى عقلِك، يمتزج به؛ فيستَأنِس له، ولكن إن كنتَ حزينًا فلقَلْبِك السطوة له من جسدك ما شاء؛ فتارةً يشُلُّ حركته، وأُخرى يقبض على أعصابه حتى تخور، فما بالك إن كان المستمع يائسًا من رحمة الله!

يُغادر الرجل عند تلك اللحظة الرُكْنَ بخُطًى هزيلة؛ فلا تسمع لحذائه همسًا حتى يصل إلى المكان المظلم، وهناك يخلعُ عويناته وهو يقول:

- هل تقرأ؟

صوتٌ آخر مزمجرًا مرتابًا يخرج ليقول:

"عام 1943 م، يقولون "فيلاديلفيا"، ونقول "قوس قزح"، بارجَة حربية عظيمة الشأن لها من الملّاحين خمسون، على مرساها أمل وبحوزة أشرعها الطريق، ها هي تقف جامدة على الأمواج كأنَّما تتأهَّب لحدثٍ عظيم، كما الثائرون خلف الزعماء من المشرق إلى المغرب يهتفون ولا يعلمون...".

هنا يتوقّف الصوت فجأة لرؤية ما يؤرقه، ولا يدري أيوحي ذاك بخيرٍ كان أو شر؟! يزدردُ ريقَه الجاف واعيًا لخطرٍ قد اقترب، ليسمع صوت الرجل يقول:

- هل تقرأ؟

"الناس يصيحون، يحيا يحيا، سنغيب عن أنظار العيون، وفي اليوم الموعود ستأتي أجيالٌ تعلَمُ بشأن أسلافِهم الكِرام، يحيا يحيا العلم والعُلماء، وفي أيديهم تُرفرف الأعلام، نعم جميلة هي الحُريّة يا من تُطالبون بها، وإليكم الأمر. ها أنا أستَمِع إلى طلقات مدفع قديمٍ دوِيُّ صوت طلقاته يُشبِع الأذهان الملتهبة للبدء، ومعه أرى القوس، تلك الألوان التي ولطالما خشيتُ أن يُحوّلها الإنسان عبر سنوات إلى آفة تعكس الشرور، وسطَ ترقُّبٍ وخيفة انطلَق شعاع المدفع مسرعًا...".

يتنهّد القائل متصببًا العرق من جبهته؛ فهل يكون السبب ما يتلوه أم لما يحدث داخل المكان المظلم!

للمرة الثالثة والأخيرة يقول الرجل:

- هل تقرأ؟

"عيون ترقُب وعقولٌ تلوم، لماذا.. وكيف تحوّلَ الصخب إلى صمت؟ والأمل إلى سراب؟! أصاب الشعاع البارجَة بمن عليها، وما حدث ينأَى له الجبين، صرخاتٌ لا حصر لها، اختفاءٌ مؤقت ثم ظهور دامَ للأبد، ما هذا ما الذي؟! تلك الأجساد تعود لمن؟! أيُمكِن أن يمتزج الجماد بالروح؟ القلب النابض بالترس؟! نعم يحدث الآن أمام الشواهد والأعيان؛ فقد التَصقَت الأجساد بالبارجة حتى ظهر منها الأجزاء، تارةً ترى رأسًا مسودّة، وأخرى تشهد أرجل أو صدر ينبثق دون بقاياه إلى الأمام في مشهدٍ مُروّع، فما الذي حدث؟ ومن يكون وراء ما حدث؟! الجميع قد لقِيَ حتفه!".

***

صوتٌ مزعجٌ رنَّان أفيقُ على إثره وقد تسلّقَت أمارات الإرهاق ملامحي، أين أنا وماذا أفعل هنا؟!

سؤال كل يوم، وكعادة الشأن لا جواب، فقط جحوظ الأعين ورجفة، ثم الجلوس لدقائق على فراشٍ لا يتسع لي، ولكن يبدو أنّ يوم سعدِه قد حان؛ فصديقه الحالم سيُغادره اليوم بلا رجعة!

أنا "وحيد"، كُنية صاحبَتْها صفة، وصفة صارت خيرَ علَمٍ لمن تنتسب إليه؛ فلا تسألني عن ثنائية الاسم أو حتى من يكون الجد؛ فأنا أُدعى "وحيد" فقط، لا شيء أكثر! وهذا ما سأغدو عليه في المستقبل القريب، استيقَظتُ بعد بضع ساعات متقطعة من النوم القَلِق ولا أدري لماذا؟ أو كيف؟ فقط استَمِع لما سأرويه عليك...

أدخلتُ قدميّ الباليتين داخل جوربٍ هزيل يجُرّ أحدها الأخرى نحو المرآة لأنظر إلى ذلك الوجه الذي ولطالما كافحتُ كثيرًا للغفول عنه، ها أنا أقف أمامها وها هي تُخبرني بما لا أريد، وجهٌ دائري يحمل عينين واسعتين سوداوين، أنفٌ مُدبّبَة وفمٌ كبير يتّسع لعشرة وجباتٍ باليوم، أذنان أشبه

بكونهما قوسَين يدثّران ما داخله، وتلك البشرة المنفرة ذات اللون المقيت؛ فلا هي بيضاء تسرّ الناظرين أو سمراء تجذب المارة، بل قمحية مزيج يُطغِي على صاحبه القلق والغموض، فما لي بلونٍ مثله، فهل تصَبَّغْتُ به لكوني ملائمًا له بحق؟! شعرٌ أكرت يتوسطه فراغات رُبَّما تصير طاغية مع الكِبَر، فمن ذا الذي يُحب ذلك الوجه اللعين؟!

صوت اصطكاك الأطباق بالخارج يُعلِن عن ميعاد الخروج ومقابلة العالم الهالك، يليه صيحات قائلة:

- وحيد، الغداء على المائدة؛ فإن لم تلحقه سيفوتك كما الفطور؛ فالأكل لا ينتظر أحدًا.

يا لتلك العبارات السخيفة التي تظنّ بها السيدة كونها عاملًا حفَّازًا للمجيء والإسراع، فيا لكن من حمقاوات! توجّهتُ ناحية النتيجة لأقطع ورقة اليوم فأشهد تاريخها، 11 سبتمبر عام 2021م، كانت كبيرة الحجم على غير العادة، تبدو لوهلةٍ ما مطوية وكأنَّما أحدهم قد أعدَّ داخلها المستقبل القريب الذي تحدّثتُ عنه من قبل، وما ستؤول له الأيَّام، لا تنجيم معاذ الله، فقط ترتيبٌ مُتْقَن، وكان هنالك جملة بأسفل ورقة النتيجة تقول:

"إن جاءك الحب انتهزه؛ فلربما يغيب أبد الآبدين"

لمعت عيناي متذكرًا ذكرى حبي القديم والأول.. "صفاء"، وقبل أن تغمرنِي العاطفة سمعتُ الصوت النسائي يُكرّر جملته بنفور:

- سينتهي الطعام ولن ينتظِر أحدًا.

حملتُ الورقة معي، ثم اقتربت من الدولاب لأضع أسفله خطابًا آخر سيكون مُفيدًا في وقتٍ لاحق بلا شك، لأفتح الباب فأرى النور يغمر الأركان، الشمس البغيضة تُسيطر على الأجواء ولا يقْدِرُ أحدٌ على ردعها،

وبنصف عين ترقّبتُ صيحات عمتي "سُعاد" عن تأخيري المتكرر عن نداءها؛ الروحي فكيف لا ألبيه!

- وأخيرًا قدمت، انظُر لقد قارَبَ زوجي والأطفال على الانتهاء منه.

"امرأة مزعجة بحق، فإن دققتِ النظر لوجدتِ الغصب والإكراه على الوجوه غير قادرين على البوح ببشاعة ما تُقدمينه من مأكولات، فمن ذا الذي يطهو البيض بالمكرونة مُدعيًا الموضة؛ فهل نال الإنترنت من العقول إلى ذلك الحد؟!"

- انشغلتُ بتحضير أمتعتي فقط حتَّى وقت مُتأخر من الليل.

- ألم تعدِلْ عن قرارك بعد بالفراق؟ فلقد أحبَّك الجميع هنا.

"يا لكِ من شمطاء! تصيحين مع زوجك في الليل بعد وفاة جدي منذ أيامٍ قليلة ليُخبرني بالرحيل، وفي الصباح تلعبين دور الحنون؟! انفصام هذا أم نفاق! "

- يكفي ما تحملتموه من سنواتٍ عجاف في نشأتي بعدما مات والداي، ولا أريد تضييق الخناق أكثر، وقد صرتُ شابًا أملك من السنوات ثمانية وعشرين وقادر على الترحال والعمل.

سمعتُ حينها همسات الزوج يُريد الحديث، ورأيت في عينيه لينًا يقول: "لا تغادرنا يا وحيد"، لكن وقبل أن ينطق هاجم صلعته وكرشه الغليظ صوتها قائلة:

- كما تُريد يا وحيد؛ فبيت عمتك سيظل مفتوحًا أبد..

وقبل أن تُكمِل لاحظتُ بطرف عيني اليُسرى سر ابًا يخرج من غرفتي حاملًا على عاتقه أمتعة ناظرًا إليَّ بلسان حالٍ يقول: "سأصحبُكَ أينما ذهبت"، وقد ارتجف قلبي للحظات أخرجني منها صوت عمتي يقول:

- فلتأكل قُبَيل سفرك؛ فلن تجد مثل هذا الطعام أبدًا.

ابتسمتُ وقلتُ:

- نعم؛ فطعامك لا ينتظر أحدًا!

***

لقد أقسمتُ ألَّا أقول الكلام بلغة الناقدين؛ فهم لا يستحقون كشف الغمامة عن العقول؛ فلا تعنيني جوائز أو جاه، فقط ستبقى الغمامة على القلوب؛ لذا وجب الصمت المُقنع وداخل طيَّاته رموز التنوير، صمٌ بكُم لا يسمعون، ولكن يمتلكون تلك الأعين، وعبر حدقتها تنكشف المخطوطات: حيث بدأ كل شيء وهانت الأمور، سُطِّرت عبر السلف، وكان للعم جان كبير الأثر، لغة العميان كما يصفون سنتلوها تباعًا حتى بساط بريزيان الحكيم.

***

ها أنا على أعتاب موقف العربات التي ستُقيلُني إحداها من مدينة "المنصورة" إلى "القاهرة"، حيث وأخيرًا سأتحرر من غلظة الرفقة إلى نعيم الوحدة، نحو شقة أبي المهجورة منذ سنواتٍ عجاف.

نظرتُ إلى زوج عمتي مُودعًا إيَّاه دون حديث؛ فبصرتُ تنهيدةً مُفاجئة أعقبها بكلماتٍ مفادها:

- سأخبرك أمرًا حرمَتْني زوجتي من البوحِ به خشية أن يُصيبك مكروه.

تعجّبتُ لنبرته الحادة وتعابير وجهه المُقلقة؛ فالبلاهة هى سيمتها الأولى فكيف تحولت الآن! وبعد صمتٍ أكمل قائلًا:

- أعتقد بأنَّ والدك قد ترك لكَ إرثًا خفيًا، فقط جدُّك من يعلم بحقيقته، وقد سمعَتْه زوجتي خلسةً ذات يوم يتحدث عنه بغموضٍ تام.

أصابتني الدهشة، وسُرعان ما تخلصت من آثارها؛ فنَعَم أشعر بذلك منذ وقتٍ مديد، ولكن أَبَى جدي الفصْحَ عنه، وها هو زوج عمتي يؤكد تلك الظنون؛ فهل يكون الإرث الغامض بين ثنايا شقة القاهرة المهجورة؟ وهل أدركَت عمتي كون جدي خطرًا فأرادت حمايتي منه، أكانت تلك السيدة حنونٌ بحق؟

انتفخَت أوداجي تاركًا الرجل المرتقب لتعابير وجهي، وبداخلي أكرر و أقول:

"جدي لا أذكر عنه الكثير، ولكنني كُلَّما مرَّ اسمه عليَّ خالطتني مشاعر متوهجة لا أدري مصدرها، كما أنَّ حادثة موته شنعاء، حريق اندلع في إحدى البنايات التي قصدها في ذلك اليوم بالقاهرة، وجثة لا معالم لها لتفحُّمِها، فيا لكَ من عجوزٍ تعايَش الغموض معك حتَّى النهاية".

اتخذتُ مقعدي بجوار النافذة كما يُحب الجميع، ولكن عشقي أنا مختلف؛ فقد أنتظر مُطولًا غير مُبالٍ للأمر في سبيل الحصول على ذلك المقعد، فكم من شجنٍ يُداهم القلوب على عثرات الطريق.

سوء الحظ يتمثل في ثلاث؛ أحدهم هو جلوس امرأة بأطفالها الصغار جوارك في المواصلات؛ فلا تدري أتسعد للمقعد أم تحزن لتلك الجيرة! وها قد حدث، أصواتٌ مزعجة قادمة من طفليها ما بين النحيب والبكاء، أمٌّ عاجزة سواء كان لحملها الثالث أو لغربة زوجها تاركًا إيَّاها لما يُدْعَى "الظروف"، ولكن ما ذنبي أنا؟ وما ذنب الجميع؟ أيجب أن تعتلِي قلوبنا الشفقة؟ أم أفعل ما يجلب لنا الخلاص؟ سكينٌ صغير ورثتُه عن جدي يُر افقني كالقرين، تحسّسته متخيلًا نحر الأعناق وبتر السيقان؛ فلا صوت يخرج منهما ولا أرجل ترفص كما الخراف، نعم سأقتلكُما أيها اللعينين؛ فقد سئِمْتُ محو خلوتي بحناجركما الرنَّانة وهنا رأيته، نعم رأيتُ ظلّ الغرفة مُبهمًا يتشكّل على مؤخرة خيطٍ أسود ينبثق من جسدي، ينظر

نحوي فلا أرى له عينين! إنَّما سوادٌ قاتم بمحاذاتي أجبرني على العدول عن فكرة القتل وخلق ذكرى أخرى لتلك الأصوات، نظرتُ إلى النافذة وعلى حصوات الطريق رأيتُها، ها هي تتشكل...

بكاءٌ ونحيب، أصوات رجال تأتي من بعيد تقول:

- أيَّها الملاعين الصغار، كفاكم مرجًا ولتفرغوا من اللعب.

لم يأبَه أحد حينها لتلك التهديدات، فما بالهم لا يعلمون، أيُمكن أن يعيق طفل صغير تلك الغلظة عن تأدية دوره الأسمى في الحياة؛ لعب كرة الشارع، كرة القدم؟! عددُنا تسعة، يتلاحم ثمانيتنا للظفر بالكرة، والتَّعِس الأخير هو الحارس، أو كما يقولون "جون مشترك"، وبالطبع تعلمون من أكون بينهم، ولكن لا بأس؛ فتلك النشوة لا تنطفئ، وبرغم افتقاري لمهارة اللاعب امتلكتُ صلابة الجماد؛ فلن تمر الكرة وإن كانت روحي ثمنًا لذلك، لن يدخل الهدف أبدًا، ها هم يُراوغون بعضهم البعض، أحدهم يخسر حذاءه والآخر تُمزَّق ملابسه، وعينٌ واحدة تترقب كل ذلك الألم للوصول إليَّ؛ فوزائي كنز من يغتنمه ستُدق له الطبول كفارسٍ اقتنص المعركة، كنت أطمح في المزيد من السقوط والجراح، الكَلِم والآسي أُريد أن أتسبّب في ذلك بعد كل هذا العناء، وكانت تلك هي مرتي الثانية لرؤيته، ذلك الكائن القاتم والذي ظهر من العدم، شريطٌ أسود يصلُنِي به، وها هو ينظر نحوي جامدًا بلا تصنيف، أكان شيطانًا أم روحي المعذبة، اقترب مني ببُطءٍ، والعجيب هو عجز اللسان عن الصراخ، أليست الصيحات وسيلة الطفل الأولى للدفاع عن نفسه، بل والهجوم على فريسته؛ فلماذا إذًا؟!

لم أفق سوى على تلك الغوغاء التي تنمُّ عن فقدان عذريتي بإسكان الكرة الشباك متجاوزة إيَّاي، وهنا اختفى كل شيء.

رعشة الأطراف، فقدان الإشارات العصبية للحظات، نعم إنَّه الاستيقاظ المصاحب لنور الشمس النافذ عبر تلك النافذة بجوار هذه الأصوات لطفلين مزعجين أمام أمّ ثملة الرأس، جحظَت عيناي لوهلةٍ من الوقت، ثم عدتُ مرةً أُخرى أرتَقبُ الحصى على الطريق.

لا يهم الحديث عن الطريق ما بعد الوصول والزحام الذي لم ولن ينتهِي داخل قاهرة المعز، وها أنا الآن على أعتاب حيّ الزيتون الذي لا أذكر عنه غير كونه ملاذًا لجميع الطبقات، العُليا منها والسفلى، ولم تكن عائلتي الأوفر حظًا بالأولى؛ فكان الشقاء صديقًا وفيًا، متجاوزًا بقعة المياه الراكدة ورائحتها العضوية الخصبة؛ فلربما كانت تعود لأشْهُرٍ من الإهمال، وتلك السيدة العجوز التي تطرح بضاعتها المؤلفة من بعض حبَّات الفاصوليا وأخرى من الشبت والبقدونس، دنوتُ أخيرًا بعد زحام العشوائيات من عمارتي المنشودة داخل إحدى الشوارع الجانبية؛ لأتصنّم أمامها ناظرًا إلى حالها الميؤوس منه وقربها المحتوم من الانهيار، بالتأكيد تعود إلى عصر "سعد زغلول"، فهل يُعقَل أن أعيش داخلها؟ فكانت تقف وحيدة ذليلة وسط بنايات تبدو عليها الحداثة والتجديد، فما بالها لا تُروَى بماء الإصلاح، ومن ذا الذي يرضى بالعيش داخل أروقتها؟ ولكن لا حل آخر، وجب عليَّ الدخول؛ فلا ملاذ لي سواها، فيا لتعس الرجل!

مدخلها مُزدان بالحشرات والأتربة التي خالطَت درجاتها؛ فصارت كُتلةً واحدة يعجز جندي سيناء عن فصلهما ولو بخرطوم مياه برليف، طابقان فقط كانا السبيل للوصول إلى شقة والدَيّ المهجورة منذ تسعة عشر عامًا، تلك السنوات التي عقبَت موتهما، ولا أرى هنا أرواحًا تعيش تُحيي ذكراهما داخلي، يبدو أنني سأكون الساكن الوحيد لهذا المبنى العتيق، والذي رُبَّما يسقط في أية لحظةٍ غير مأسوفٍ عليه، أخرجتُ المفتاح بعد إنزالي للحاجيات، وقد قرّبتُ المفتاح من القفل وقلبي يدق

دون سببٍ يُذكَر، أهو الحنين أم الخوف ممَّا يقبع خلف ذلك الباب الموصد منذ سنوات؟

***

الخامس من أبريل عام 1921 م..

الهتافات تجوب حواري القاهرة قبل شوارعها، أصحاب العمائم يخطبون وذوي الطرابيش يُنَدّدُون، الصغار بصحبة الآباء يهتفون، (سالمة يا سلامة روحنا وجينا بالسلامة....) عبر موكبٍ مهيب من باب الحديد إلى بيت الأمة يترأسه الزعيم "سعد زغلول" بعد عودته من المنفى في يومٍ لم تشهد القاهرة زحامًا مثيلًا له بتلك الفترة، بل إنَّ الاحتفالات بالرجوع امتدت لأيام كأنَّه عيدٌ وطني على الرغم من فشله في الحصول على حُرية المصريين الذين حلموا بانتزاع السيادة المصرية من أيدي البريطانيين في مؤتمر باريس، وتملص الرئيس الأميركي "ويلسون" من وعوده للبلاد المحتلة من قِبَل الحلفاء بالحرية ما بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت مصر أولى الطعنات؛ ففشل سعد ولم تنضب الأحلام بعد؛ فصاحت الأفواه وراء زعيمها، الاستقلال التام أو الموت الزئام.

من بين هؤلاء يقف شابٌ ثائرٌ مُلِئ قلبه بالجهاد متفاخرًا بطربوشه مُنددًا بالاحتلال كما الجميع، لكنه وعلى غرار القوم يتركهم مفكّرًا بأمرٍ أولويته تتعدى رجوع الزعيم، يتخذ الحنطور وسيلة مواصلاتٍ له للتوجه نحو حي "الغورية"، وبعد قطع مئات الأمتار يصل بصعوبة نتيجة للزحام المنشود، وبعد تجاوزه للصحن الكبير وما حوله من محلّات متراصة في أربعة طوابق تُدعى "وكالة الغوري" يرى أمامه "تكيّة السلحدار"، وهي مأوى العبادات وحلقات الذكر خاصة للصوفيين، وربما يقطنها عابرو الطريق دون حِمل الأعباء المادية، رنا الشاب ببصره؛ فابتسم وهو يرى

ضالته، اقترب رويدًا من آخَر مُهندَم الثياب بَهِيّ الطلعة له من ملامح الغرب ما يُثير الريبة في أمره يجلس القرفصاء مستمعًا للإنشاد.

- أرى أنَّ خبر الرجوع لم يلقَ لك بالًا!

ابتسم الشاب الوسيم ليعتدل في جلسته ويقول:

- "إسماعيل"، أتركتَ مولاك لأجلي؟

نفر الشريان على جبين إسماعيل الذي دائمًا ما عانَى من فظاظة لسان صديقه، فلربما كان اختلاف مظهرهما سببًا في تنافر الطباع، إسماعيل امتلك ملامح مصرية أصيلة بدايةً من سمار بشرته، مُقلتيه السوداء والتجاعيد الطفيفة التي تخترق شبابه كناية عن الهموم والجهاد، على عكس "حَمَد" الذي ذاع صيته بكونه أوروبيًا؛ فملامحه اتصفت بالصفاء ما بين بشرةٍ بيضاء ناصعة، عينان زرقاوان، و أنف مُدببة، وذلك الوجه الدائري.

أحسَّ "حمد" الضيق على وجه إسماعيل؛ فتخلَّى عن مجلسه مُلملمًا وريقاته المتناثرة وهو يمسد على ظهره حاثًا إيَّاه على النهوض وأن يتبعه.

عشرات الكيلومترات الأُخرى يعدوها الصديقان حتى يصلا إلى منزل حمد ثنائي الطابق والمُجاور لمنزل صديقه، لم يعكس أبدًا صورة وجهه الحسن؛ فقد كان عشوائيًا دون نمط، يعتلِيه الهرج والمرج لدرجة توحي إلى ناظره بأنَّ النظافة ممنوعة من النفاذ إليه، انطلقا سويًا إلى الطابق الثاني حيث تقبع غرفته، وبمجرد دخولها صُعِقَ إسماعيل لما تحتويه من مُجلدات، كُتيبات ضخمة وأوراق على وجهها مُعادلات رقمية مُعقدة؛ فعَرِفَ كونها السبب في اختفاء حمد المُتتالي الآونة الأخيرة.

جلس الفتى الأوروبي على إفريز النافذة ناظرًا إلى الخارج وبحوزته الحبر قائلًا:

- يا لحماقة الشعوب! أترى حقًا في السياسة زعماء يلهثون خلفهم ويصيحون كثُغَاء الأغنام؟ لمَ أنتظر رجلًا فَشِلَ في جلب الحرية وهو بنفسه سيصير متسلطًا متى تقلَّد مقاليد العرش تحت مُسمى الشعب؟ ألم يكن مقامرًا يتلذذ بخسارته للنقود وناظرًا للمعارف وقتما أُعلن مشروع التقييد؟

قاطعه إسماعيل غاضبًا:

- والله إن لم تكن صديقي تعايشنا سويًا طيلة تسعة وعشرين عامًا من المهد للآن لقُلتُ أنَّك تُوالي الإنجليز؛ فكيف تتجرأ على الزعيم بتلك الكلمات؟!

بصق حمد على الأرض في إشارةٍ منه لتحقير الكلمات؛ مما اضطر إسماعيل إلى لكْمِه بقوةٍ في وجهه وقد نفر العرق في جبهته؛ فصار متوحشًا لا يقبل السمع، إنَّما العراك، وقد تصنَّم لرؤية صديقه يضحك كالمجذوب وهو يقول:

- تأليه الروح لا العلم هي آفتنا، ولذلك ستتوارى الأجيال خلف الزعماء، جيلٌ وراء جيل حتى تُهمَّش هوية الشعوب بالأفراد؛ فتبًا لكم جميعًا، لن أقبل سوى العلم، وها أنا الآن على أعتابه.

تراجع إسماعيل خطوتين إلى الوراء مرتعدًا؛ فكلمات صديقه قد نغَّصت مخه بمخياط عبر شدقيه إلى صدره؛ ليراه وهو يتجه إلى الفراش ممسكًا بوريقات أخرى متفحصًا إيَّاها، ولتلطيف الأمر الذي احتقن التزم الصمت وجلس بإحدى ثنايا الغرفة.

يئِسَ الشاب الأسمر في مراضاة صديقه بعد مُحاولات، ولم يجد سوى مُصارحته بأمرٍ قد أخفاه عنه ليقول:

- ستتركني أجلس وحيدًا في زفافي الشهر القادم؛ فأنا أعلم وسيلتك للتهرب من التجمعات، وها قد أتَت إليك.

هنا يزدرد حمد ريقه قائلًا وقد اتَّسعت عيناه:

- أحقًا ستتزوج؟!

هرع إسماعيل نحو صديقه مُهللًا بعدما نجح في جعله يتحدث، ولكن فوجئ بلكمةٍ مُحكمة ودماء تتناثر، سقط إسماعيل على إثرها مترنحًا وحمد يعتليه مشرئبّ العنق مُحمر الوجنتين، وقد تناثرت أوراقه لتُغطي مساحة الأرض، نظر إليه إسماعيل بأعينٍ جاحظة لا يُصدق كون حمد الفَظّ قد غضب بشدة لعدم إخباره بأمرٍ مثل ذلك، نهض الفتى المُصاب ليحتضن صديقه، وقد اغرورقت عيناه بالدمع قائلًا:

- السماح منك يا أخي، حدث الأمر فجأةً.

حالة من الصمت تدثّر الأجواء لدقائق ترتاح بها العقول عمَّا حدث منذ قليل، ليقطع إسماعيل السكون جامعًا لأوراق صديقه الذي ينظر إليه والغضب ما زال على الجبين عنوانًا، ليتوقف فجأة عمَّا يفعله وهو يُدقق النظر بإحدى الوريقات التي كُتِبَ عليها "الجامعة المصرية"، هنا شعر بالأسى مُتذكرًا ما فعله حمد حينما أقرّ سعد باشا بسعيه نحو إنشائها، كان صديقه يجوب الطرقات خلفه أملًا في ترسيخ العلم داخل بلادنا، ولكن صدمته الكُبرى تجلَّت عندما ترك الزعيم حلم الجامعة وقتما ولَّاه الاستعمار نظارة الحقانية، ومنذ ذلك اليوم عمَّ السخط قلب حمد و انقلبت حاله رأسًا على عقب.

وبينما يُكمِل إسماعيل جمع الأوراق لاحظ تاريخًا بازغًا على إحداها يُشير إلى العام 1857 م، أخذ يُعمِل عقله حتَّى برزَت مُقلتيه إلى الأمام؛ فهذا التاريخ ربما يعود إلى مولد سعد زغلول! فهل يتبع حمد سيرته في الخفاء ثم يذمه في العلن؟! أم أنَّه تاريخ مولدٍ شخصية أُخرى هي السبب فيما يحدث لصديقه الآن، لطالما كان حمد خفيًا عن بصيرته؛ فلم يُصفِح عمَّا تحتويه سرائره.

أودع إسماعيل الأوراق على فراش حمد، الذي نظر إلى الأعلى وبصوتٍ ثابت لفظ جُملته الأخيرة:

- قريبًا سأغادر ذلك العالم الموحش نحو روحٍ تصبَّغت بالحرية الكاملة بعيدًا عن عبودية الأفراد.

***

ما الذي سأراه؟ رجلًا شاحب الوجه كئيب المطلع يرصدني؟ أم أشباح وجان يتيهون رواحًا وجيئة منتهكين الأثاث والغرف؟ أو رُبَّما سيدة عجوز تُمسِك بعصاها المحشورة في الرمال مُتمتمة بالحقيقة والأعراف!

يدور المفتاح وتنفرج معه عُقد القفل المستوحشة منذ سنوات، لينفتح الباب على مصراعيه وهو يُصدِر صوتًا ينمّ عن العذاب بلسان حال يقول "لمَ لا تتركني جامدًا كما الجبال؟ فأنا لا أُريد الحياة معك!"

كومة من الأتربة تتصاعد مُرحبة بعودة "وحيد" الابن الضال لمسكنه، جررتُ القدم تلو الأخرى حتى دخلتُ إلى الشقة أخيرًا، وسؤال واحد يؤرقني.. هل تعمل الكهرباء هنا؟!

ضغطتُ بإبهامي يائسًا على مفتاح الإنارة؛ لأُصعَق لرؤيتي للأضواء تشتعل في جنبات المكان، كيف ولماذا؟ مترادفات أخرجها عقلي دون وعي لما يحدث الآن، بعد تسعة عشر عامًا ودون أن يسكن الشقة أحد تظل الكهرباء صامدة! أحقًا تعيش العفاريت بيننا؟!

انكشفَت المعالم تلو الأخرى، ردهة كبيرة الحجم نسبيًا لا أثاث يعتليها سوى الطنافس الملونة الموزعة عشوائيًا، كُرسي عتيق مُهتز، كومود صغير، مقعَدَين متهتكين وزجاجة فارغة من الخمر! أكان يشرب أبي تلك المنكرات بحق؟ ولكن متى؟! أنا لا أتذكّر أي شيء وكأنَّما طُويت صفحات الشقة بأكملها عن مُخيلتي، حطبٌ متراصّ فوق بعضه البعض مجسمًا

هرمًا من تسعة بنايات داخل بوتقة في منتصف الردهة تنتظر عود الثقاب لتنفث اللهب، وعلى جنبات الردهة بابٌ موصد لغرفة تبدو أنَّها المعيشة؛ فتوجهت إليها مُزيحًا الغبار الكثيف، حتى وصلتُ لأقوم بفتحه ومعه انتعشت ومضات من العقل تُخبرني بالفرار مسرعًا، ما بين ذاك الشعور وفضول المعرفة تقدّمتُ نحو معالم الغرفة، وقد بحثت عن مفتاح الكهرباء، وبعد الضغط عليه حدث ما كان من أمر الردهة، الضياء يعم والسبب غير معلوم، تلفاز صغير الحجم موضوع أمام منضدة كبيرة عتيقة لم يقوَ الزمن على محو صلابتها ولونها البُني المحروق، أوراق متناثرة وكتابات بخطِّ اليد أبرز ما لمحت، فهل كانت تلك لأبي؟ وهل امتلك تلك القدرة على التدوين؟! مِشجَب مُعلّق عليه سترة سوداء طويلة قد تُناسبني، فراشٌ مُرتب، فهل تلك روحٌ تعتليه نائمة؟! والعجيب هو رؤية سبعة زلعات من الفخّار موضوعون أعلى منضدة في تتابع دائري، اقتربتُ منهم بحرص وكأنَّهم وحشٌ جاثم ينتظر الهجوم والقتل؛ لأرى عددًا كبيرًا من القصاصات المقلوبة داخل حيز الدائرة المصنوعة، وبُمجرد لمس إحداها ارتجفَ جسدي وتخثّرَت الدماء، ما الذي ينتعش الآن بعقلي؟ أجبني أيَّها اللعين ماذا يحدث هنا؟!

أدرتُ قصاصة واحدة فوجدت الرقم "3" مكتوب وحوله دائرة حمراء، تركته دون فهم؛ فأمسكتُ بأُخرى لأرى الرقم "8" دون شيء، وبعد محاولات كانت الأرقام هي السائدة ولا شيء غيرها؛ لأنفر وأزمجر تاركًا تلك الغرفة اللعينة، وقبل أن أخطو مفارقًا رأيتُ قُصاصة أخيرة ارتَّج لها عقلي؛ فوقعتُ على الأرض مُمسكًا رأسي من الطنين المُحيط به، توقّفِي أيتها الأصوات! وهنا تراءى لعينَيّ لمحات موحشة، وما كان مني سوى الاعتدال والنهوض، وقد كشفتُ عن أسناني البيضاء وهي تجتزّ بعضها بعضًا، توجهتُ خارجًا موصدًا باب الغرفة إلى الأبد، أوكما ظننت حينها!

أخذت الدهليز المتفرع من الردهة نحو الداخل وحيث يكثف الظلام، أخرجتُ قدَّاحة قديمة تمكث معي لأضيف لمحة من الضوء الخافت

لهذه الظُلمة، وهنا شعرت بشيءٍ ما، بداية الدهليز الضيق كانت سالمة مطمئنة تُنهِي شعور الخوف الملازم للخروج من الغرفة السابقة، ولكن ما إن توغّلتُ به فلم يحتمل بعث الطمأنينة وبدأ في إبراز حقيقته، لا مفتاح للإنارة على جنباته، والضيق به يزداد أكثر فأكثر، حتى شعرت بأنَّ الهواء صار ثقيلًا، تحركات خفية تُلامس جسدي الهزيل، والضوء المنبثق من قداحتي يتضاءل! أهو السائل يتناقص أم أنَّ هنالك ما يدعو إلى القلق؟ حركاتي صارت أبطأ والتعرق المفرط كان حليفًا، لماذا صار الطقس ساخنًا هنا؟! وعلى شعاع خافت من الضوء رأيتُ ملامح غرفتين ما إن وصلت لهما حتى لمحتُ هيئة سوداء تسير بجانبي؛ فاستدرتُ تجاهها ولم أرَ شيئًا؛ فكان السؤال القادم هو أين سيظهر الكائن لقتلي؟ أسيأتيني من الخلف، جانبي الأيسر أم أمامي؟ وبذلك يخلق العبقرية؛ فأغمضتُ عيني منتظرًا المشهد المأثور، ولكن لم يحدث شيء!

الغرفتان ما تزالان أمام ناظري بجانبهما، وعلى مسافة أمتارٍ قليلة مدخل قضاء الحاجة، وفي الناحية الأخرى مدخل إعداد الطعام، الآن تبدو الشقة معقولة، والآن فقط سأستريح، توجهتُ نحو إحدى الغرفتين وتحديدًا إلى اليُمنى؛ فالبدء بها من شيم الإسلام، لأفتح بابها وأسمع صوتًا هامسًا أشعل ومضات الذكرى...

- أبي، أريد النوم معكما؛ فأنا أخاف الظُلمة بغرفتي، أرجوك.

- لا مكان لك بيننا؛ فأنت رجل وإن لم تبلغ العاشرة بعد.

- زملائي في المدرسة ينامون مع آبائهم ويتحاكون بالأمان في ذلك، فلماذا لا أحصل عليه منك ومن والدتي؟ لمَ أعيش الذعر بمفردي بعيدًا عنكما بتلك الغرفة؟! كيف لا تهتمون لأمري وقد أقسمتُ لكما بأنني أرى شيئًا ما يتحرك؟!

- إن غالبك الخوف وأنت قابعٌ على الفراش فاعلم بأنَّ سريرك الصغير لن يُدخِل الأذى لك أبدًا، على عكس حالنا أنا ووالدتك؛ فما نرقد عليه هو مدخل الجحيم، أسفلنا نيران وعلى الأطراف زواحف فتَّاكة، إن اقتربَت منك و أنت نائم ستسمع حشرجتها تقول لك.. مرحبًا، ومن بعدها ستتمنى الموت ولا تطوله.

انتعاشة العقل تعمل مرةً أُخرى، أيمكن صَدَقَ أبي عن الحشرجة والجحيم، وسماع جملة الترحيب؟! ها أنا أرى فراشهما الكبير برغم الأتربة والظلمة وذلك الصوت.. مرحبًا بك، فهل هي الزواحف تنتظر نومي لتنقض كما فعلت معهما؟! لا أريد الموت الآن أو بتلك الطريقة.

أغلقت باب الغرفة مسرعًا دون تفحصها، وأخذتُ الباب الأيسر مفتاحًا للطمأنينة ولذكرى آمنة ومأوى عشت داخله سنوات، ها هي غرفتي القديمة تنكشف لي، فقط يتبقى الضغط على مفتاح الإنارة وستُضاء، إبهامي ينقض على المفتاح والنتيجة هي الظلمة التي تنتهك قيمتها نور الدهليز الخارجي، أعدتُ المحاولة ولم يحدث شيء، فهل هذه الغرفة ملاذي الآمن بحق؟! لم يكن مني سوى فتح بابها على مصراعيه لتستمد الضوء من الخارج وعلى أشعّته تفحصتها ورأيته؛ سريري الصغير الدافئ ما زال كما هو، كومود ضئيل الحجم بجانبه عليه صورة لأربعة أشخاص تتلاصق أجسادهم كأنَّهم أصدقاء، والعجيب هو أنَّ وجهًا واحدًا منهم كان ممسوحًا، اقتربتُ منها لأقرأ أسفلها جملة..

"هؤلاء هم الحقيقة؛ فلتظفر بهم يا وحيد"

ارتجَّ قلبي ولم أعِ المقصد، لأتركها ناظرًا إلى الدولاب الذي يتَّخذ من أحد الأركان مستوطنًا له، لونه أسود قاتم، فهل يليق ذاك اللون بالأطفال؟ قمتُ بفتحه، وبُمجرد شدَّ أجزائه سمعتُ صوتًا به من الأنين ما ليس بغيره، وعلى إثره رأيتُ ما يندى له الجبين: قطة كبيرة الحجم

مُلقاة على أحد الأرفف فاقدة للروح وكبيرة هنا، كانت إشارة لبطنها الممتلئة بالصغار، ماتت وهي حاملة لهم! كيف من الممكن حدوث ذلك؟! بجانبها قطع من الأخشاب تنبعث من أطرافها رائحة المسك، وملابس ممزقة، بالتأكيد تعود إليَّ، وأخيرًا خزينة صغيرة عليها قفل بحثتُ عن مفتاحه مُطولًا دون جدوى؛ فقررتُ تركها الحين؛ فقد نال الإرهاق من جسدي، ودقَّت ساعة النوم؛ ففي الغد أمامي الكثير لفعله، والعجيب أنَّني لم آبه للموت الذي رأيته ولروح القطة المفارقة ورائحتها العَفِنة؛ فسوف أتخلّص منها غدًا.

انتزعتُ عن جسدي ملابسي المعطرة بالعرق، وأبدلتها بأخرى لم تتلطخ بعد، وما كان مني سوى التوجه نحو السرير الصغير بعد طيلة تلك المدة لأنام عليه ممددًا ساقيّ الطويلتين خارج حدوده وقد امتزجت بأتربته المكومة، ولا تندهش؛ فالتلطخ بها كان تميمة السعادة التي أعادت لخاطري ذكرى لعب الكرة ومخالطة الغبار بطموح الأطفال حينها زودًا عن الشِّبَاك.

***

زقزقة العصافير كانت سببًا كافيًا لمحو غشاشة ذلك الحلم المزعج عن العقل، وجلب أشعة الضوء إلى مُقلَتَي العين؛ فيتبدل خلالها الجزء الحاكم داخل تلك الجمجمة، لم يتبدل الأمر كثيرًا داخل الغرفة؛ فكانت كما هي، فقط صارت كومة الأتربة أكثر وضوحًا، وأنفاسي أكثر تسارعًا، رُبَّما بفعل ذرَّاتها الدقيقة التي نفِذَت إلى الرئتين، ماذا سأفعل الآن؟ لطالما كان هذا السؤال المُلازم لي عقب كل استيقاظ، وتحتّم عليَّ إيجاد الإجابة المناسبة ما بين خيارات معدودة؛ مثل تنظيف الشقَّة، الغرفة على الأقل، أم النزول لإعداد الفطور؟ أو التوجه للمعلم "حمدي المرزاني" صديقٍ قديم لزوج عمتي، وهو مسئول الـ"هايبر" الذي سأعمل

لديه موظفًا على صندوق النقود أحاسب الزبائن بعد اقتناء مشترياتهم، وظيفة مملّة نعم، ولكن هي مأواي الأخير؛ فأنا لا أمتلك سوى بضعة جنيهات لا تكفيني للعيش ثلاثة أيام، ولكن إن أدرتُ التلفاز الصغير وجلبتُ أحد البرامج فحتمًا سيقنعني بأهلية تلك النقود في العيش رغدًا لشهر على الأقل؛ لذا فليبقى مُغلقًا طيلة الدهر.

ما بين هذا وذاك تحتَّم عليَّ تنظيف الشقَّة بأكملها ونسف كل ذرة غبار هنا؛ فبالطبع لن أقدِرَ على جلب أحدهم لفعل الأمر، وبعد الانتهاء يحق لي جائزة الطعام، نعم هذا هو عقاب وثواب النفس، وهذا هو منطقي في الحياة< لتصبح للجائرة قيمة علَيكَ بذل الجهد أولًا، وها قد بدأت.

ساعاتٌ مُهلكة مرَّت على شابٍ نصفِ عارٍ يكنسُ مثل الرجال ثم يمسح كما النساء، بذل خلالها مجهودًا تعدَّى سنينًا قضاها في عمل فحواه محاولة إقناع الأمهات لاقتناء ملابس أطفالهم بسعرِها الحالي في المنصورة، ومع اقترابه من الانتهاء لفَظَ أنفاسَه الأخيرة ساقطًا على الأرض صائحًا:

- فعلتَها يا وحيـــــــد، يا لكَ من رجل! وإن كان الأمرُ مُشينًا.

البيض المقلي، طبق الفول بالطحينة، الباذنجان وأصابع البطاطس المقرمشة؛ هذه جائزتي التي كافحتُ لها، وعملًا للقاعدة الذهبية التي تقول "الفول الساخن يَجُبّ ما قبله"، بدأت مسرعًا في التهام طعامي فخورًا بما فعلتُ لأستحقه، وبينما ألتقمُه بنَهِمٍ سمعتُ صوت دقَّات منتظمة على باب الغرفة الموصدة في الردهة، أدَرتُ رأسي تجاهها؛ فلم يُحرِّك ساكني سوى ذلك الخيط وتلك الهالة التي أعلم ما سيحدث عقبها، وبدأ عقلي يُحدّثُني أأذهب نحوها أم أُكمِل ما يغمرني سعادةً وشغفًا؟ ما كان منِّي سوى التوجه نحو الغرفة والوقوف أمام بابها

المقيت، لن أدخلها.. لن أدخلها، ألم تقُل بأنَّ الجهد يتبعه طعام؟ فلماذا نهضت الآن؟ لمَ تقف أمام تلك الغرفة وكيف سنُصلح الأمر؟

يجب علينا تنظيف هذه البقعة المتسخة بالطين بجانب بابها؛ فلقد شكّلَت هرمًا لزجًا لامتزاج الأتربة بالماء، ولا أعلم كيف تناثرت قطرات الماء بعيدًا عن احتمالية وجود نهر خفيّ داخل الغرفة؟ إصلاح الأمر سيبدأ من هنا، لن ندخل يا وحيد، فقط سننُهي أمرًا تركناه.

جلبْتُ الممسحة وأخذتُ أُزيح الطين برفق لأجمعه داخل إحدى الأكياس السوداء، وبينما أفعل الأمر برويّة وحذر إذ بي ألمحُ طرف ورقة صفراء يبرز من الأسفل؛ فتسمّرتُ مُحدّثًا عقلي.. أكانت تلك البقع لحمايتها؟! هل هذه الورقة بتلك الأهمية أم أنَّني أُهذِي كما الحال دومًا؟! لا تلمسها يا وحيد؛ فلربَّما تحوي لعنةً ما، وقف شعر يدي مُشيرًا بالخطر القادم، ولكن لمَ يقِلّ هذا الشعور بتلك الشاكلة؟ ما ذنب فتاة أن ترى مشهدًا مثل ذاك ليدٍ سمراء شبه ملساء؟ وقد أجزم بأنَّ بعض الفتيات لهُنّ أكثر ممَّا أمتلك أنا، إلى أين ذهبتَ يا وحيد؟ الورقة ما تزال أسفلنا؛ فاترُك تلك الأفكار الراسخة بعقلك لحينٍ آخر، نعم نعم، وعلى الفور قمتُ بمسْكِ طرفها وإخراجها برفق، وتعجّبتُ لخطئي؛ فلم تكن ورقة كما ظننت، إنَّما ظرف كبير أصفر، قمتُ بمسحه وتفحّصه جيدًا؛ فعلى ما يبدو بداخلِه مجموعة من الأوراق الأخرى؛ فبالتأكيد لن يكون ذلك الوزن لنقود.

قلبته يمينًا ويسارًا حتى قرأتُ كتابةً على الطرف السفلي الأيمن تقول:

"هذه المخطوطات إرثٌ من الأب إلى الابن"

***

على أعتاب بوابة جامعة القاهرة، ومع بدء العام الدراسي الجديد يتوافد الطُّلَّاب من كل صوبٍ وحدب بمختلف الأعمار والطموح، منهم

من يرى في ذلك الصرح سبيلًا لنيل شهادة تُبنَى عليها الآمال، ومنهم من يجد في نفسه غُصّة لإجباره على التعامل مع دكاترة يعتقدون في أنفسهم آلهة لا رادع لهم، ولا قانون يحد من ذلك التأليه، وآخرون يتّخذُون من الانفتاح سبيلًا لانتهاك قدسية العلم بأخرى بها من الشهوات ما ليس في السطور، ووسط ذلك الجمع المتو افد تقف فتاة طولها لا يتعدَّى ال 160 سم، رقيقة الملامح، بيضاء الوجه، فترى وجنتيها الحمراوتين بارزتين تحت أشعة الشمس الحارقة، عيناها بُنيّتان وجبهتها صغيرة، للوهلة الأولى ترى بها مرحلة طفولة لم تنضب بعد، وإعمالًا لذاك المصطلح؛ فالفعل أيضًا مماثل، تقِفُ باكية أمام والدها الحنون، تصيح به وتُزمجر منفرة:

- لا أريد الدخول وحيدة، أرجوكَ أبي فلتكُن بجانبي.

يُحاول الوالد تهدئة فتاتِه المُحببة إلى قلبه وهو يشد من إزرها لتظفر بالنجاح؛ فاليوم هو الأول لها داخل كلية الحقوق، ورغبته بأن تصير ابنتُه قاضية مُبجلة بارزة على وجهه، وإن شقَّ الأمر.

ابتسمَت الفتاة المُدلّلَة أخيرًا لترنو ببصرها نحو الجامعة، ثم تقول:

- قاضية ومبجلة! أُجزِم يا أبتِي بأنَّ ما سيهم الناس حينها هو كيف لفتاة أن تحكم في أمر العامة؟ ولا سلطة لسيدة على رجل، ستطول الرياح العاتية زمام الأمور، وستنقسمُ الأعراف إلى نوعين؛ أحدهما يُنادي باسم الدين والآخر يعقد العزم على الحُريات وقمع الرجعية وهباء الفِكر، وبنتك الصغيرة حينها لن تحتمل أقاويلهم، بل قد تبتئِس وتُقلَع شوكتها؛ لذا لن أعمل بشهادتي تلك أبدًا.

يمطّ الأب شفتيه منفرج العينين معجب لفصاحة علياء التي حملَت الصفات وعكسها، الخضوع والقوة، اللّين والشدة، الإيهام والصدق،

وغيرها الكثير، لكنه لم يكن يعلم بأمر أشد التضادات خطورة؛ العشق والانتقام!

يُقبّل الأب رأسَ فتاته المحجبة قلقًا؛ فهذه هي المرة الأولى لها بعيدًا عنهم، وقد رفضت العيش مع أرواحٍ غريبة عنها؛ لتسكن في شقةٍ امتلكَها والدُها وحيدة.

لاحظَت علياء قلقَ والدها؛ فقد اتّسَمت بالبصيرة، لتربت على كتف أبيها حاسة إيَّاه على المُضيّ رجوعًا إلى المنصورة غير قَلِق على مصيرها؛ فهي وإن كانت تبكي الآن ففي الغد ستغدو الأقوى والأكثر تحصّنًا، فيغادرها الأب مكلومًا متمنيًا لها السداد والتوفيق.

لم تكن علياء فتاةً جميلة فحسب، بل كانت ذا ذوقٍ رفيع تنتقي ثيابها لتُشكل أناقة متباهية بروحها وقدرتها على فعل الكثير والكثير، فكانت ومنذ طفولتها محَطّ أنظار القوم، ووسط حديث الأولاد ثم الشباب جملة دائمًا ما سمعتها، وغالبًا ما تلوّعَت لها..

"ها قد آتت علياء، أيُمكن أن يظفر بها أحدنا؟"

المرأة أقسام لا داعي لذكرها أجمع، ولكن من بينها قسمٌ لاذعٌ يجمع الجمال والدلال، الحكمة والغنج، الطّيش والتمكن، وعلياء كانت المثال الأكمل لذلك؛ فلم تهتم لهؤلاء ولن تفعل؛ ففي قلبها عالمٌ موازٍ تعيش داخله مكتفية بما تملكه من خصال، وعقل يعمل دون توقّف، ودلالة ذلك ما حدث!

الفتاة البريئة الباكية في أول يوم صارَت الآن تُشكّل فريقًا من الفتيات بصحبتِهنّ، ترأُسْهُنّ وتُملي عليهن الأمر والطلب، القدرة على التكيف وإخضاع الأمور لقبضتها كانت عظيمة بحق، فكيف لها أن تفعل ذلك خلال أسبوعين فقط من بدء الدراسة؟! بل وعلى من هُنَّ أقدم وأكثر حنكة داخل الكلية، وما يحدث خارج الحرم الجامعي بالتأكيد سيتكرر

داخله؛ فلا قُدسية له كما يزعم البعض، صارت علياء محطَّ أنظار الطُّلَّاب، ليس فرقتها فقط، ولكن جميع الفِرَق من الرابعة إلى الأولى، الجميع يتحدث ويقول: "فتاة جديدة، جميلة، مغرورة و أنيقة"، كانت تلك الكلمات الأربع الوصف الأمثل لها، واستمرت عليها طيلة شهرٍ كامل، حتى حدث المُحال وتبدَّلت الأمور رأسًا على عقب!

***

"هذه المخطوطات إرث من الأب إلى الابن"

ما زالت تلك الكلمات المُسطَّرَة تعصف بعقلي الذي أُنهِك جسده وصار لا يقوى على الحراك، أعلى الفراش الصغير بعدما تحول إلى رُقعة نظيفة جرَّاء مُحاولات عديدة لمحو أتربته، يقبع الجسد النائم تاركًا العقل الذي ما يزال ملوثًا يُفكر أذلك هو ما تحدث عنه زوج عمتي؟ التساؤل يشتد عن ماهية الإرث الخفي بكهوف تلك الوريقات، وهل ينبغي أن يرى فحواها أم يحرقها وتتناثر معها اللعنة قبل أن تبدأ؟

لماذا؟ وكيف؟ ألا ينبغي لتلك الكلمات أن تُهاجِمْنَ صباحًا قُبيل الاستيقاظ؛ فلِمَ تُخاطرني الآن؟! ما زال الظرف على وجهي يكتم الأفكار عن الخروج، وأطرافي ترتعش، فهل تعلم أطراف الجسد بأكملها حقيقة السطور عداك أيُّها العقل؟ فأين ذلك الوميض ليُخبرني بكل شيء؟ قبضةٌ على القلب كانت كافية لبعثرة الأوراق والإطاحة بالظرف بعيدًا، وفي قرارة النفس لسان حال يقول: "العيش جاهلًا خيرٌ من هلاك العلم"!

يتحتَّم عليَّ النوم؛ ففي الغد سأذهب إلى المعلم حمدي لعلي أجد العمل وسُبل العيش، وضعتُ رأسي المتحجرة بالأفكار على الوسادة مُحاطًا بهالةٍ من الظلمة يتخللها فقط ضوء الدهليز مُجبِرًا عقلي على التوقف واستقبال الروح لراحة النوم، وهنا شممتُ تلك الرائحة..

"القطة الميتة"، ألم أتخلص منها بعد! هل جُننتَ يا وحيد؟ أتتركها طيلة ذلك الوقت تمكث وتلهو بجانبك؟ جسدي منهك فلما لا أفعلها بالغد؟!

الطنين.. الطنين، لا، لا أريد تلك الهالة السوداء مرةً أخرى، رجاءً أطلب النوم، وهنا ارتعدَت أطرافي وتسمّرَ عقلي؛ فالقادم نعلمه جميعًا، ستظهر تلك الهالة القاتمة وما يليها لن يكون خيرًا، وبينما أتوعَّك مُظهِرًا الألم سمعت صوت حشرجة خافت يزداد مع الوقت، كما غبشة الليل قادمًا من الغرفة المجاورة!

ألم تكن تلك الاضطرابات إشارة إلى هالتي السوداء؟ أكانَت نبأً عن الموت؟ فهل استيقظَت الزواحف التي قتلت والداي الآن لتظفر بي؟ الغطاء.. الغطاء، هرعتُ نحو طرفِه أدثّر حالي به، فكما يقولون لن ينال العفريت من أجزاءك المغطاة، فعلتُها حتى لم يبقَ من كاهلي سوى قصاصات شعر سوداء باهتة مقصوفة لم تُعجِب فتاة ولن تجذب حبيبة، صوت الفحيح يندثر أيضًا، وهذا أمرٌ عجيب! أصدِّق الآباء وما وجدوا عليه أجدادهم، أينتصر التراث يومًا ويزيح الخطر بالعادات؟!

أسمع الآن نبضات قلبي تستقر، وتلك الرجفة تضمحل، هيهات هيهات لن تطالني الزواحف ما دام الغطاء حليفًا لي! ولكن أنَسِيَ أبواي هذا الأمر فظفرَت بهما الزواحف؟ وهنا رضخ العقل وحان وقت النوم؛ ففي الغد ينتظرني الكثير، ما هي إلَّا دقائق ومع قرب مُقلتي على السكون سمعتُ صوتها يئن؛ ففزعتُ و انتفضت مُزيحًا الغطاء عن جسدي، مواءٌ هزيلٌ يتسرَّب حتى طبلة الأذن، أيُعقَل أنَّ القطة لم تمُت بعد؟! الخوف يتملكني الآن، وحبَّات العرق تتهاطل متسائلة أينبغي النهوض لتفحص الدولاب أم الالتفاف مجددًا كالسابق؟ وهنا وسريعًا تشكّل الخيط الأسود الرفيع، والنهاية باتت قريبة؛ فما كان مني سوى الفزع والانطلاق نحو مفتاح الإنارة أدهَسُه مضطربًا دون جدوى؛ فلن يعمل، وعلى غفلة

انقطع حبل الأمان الوحيد بغَلَقِ باب الغرفة مانعًا ضوء الدهليز من العبور؛ فانكفأت على ركبتي متحاشيًا النظر، ولا أعلم لمَ لم أحاول فتح الباب؟ أكنت خائفًا إلى ذلك الحد؟!

مواء القط يزداد أنينًا، والخيط الأسود أشعر بامتداده ويجب عليَّ الإسراع لتجنبه؛ لذا استجمعتُ ما بقي من قواي وتوجهتُ نحو الباب لأجذبه نحوي لعله ينفتح، ولكن دون جدوى؛ فقد صار جبلًا متصدعًا لن يبرح مكانه، وهنا شممتُ رائحة كريهة تنبعث موازاة للمواء الذي يأبَى التوقف؛ فهرولتُ نحو الفراش أمسك بهاتفي لأشعل إضاءته، وعلى إثرها وقفتُ أمام الدولاب يحُول بيني وبين مواء القطة الميتة بضع سنتيمترات من الخشب، وبينما أجذبُ طرفَه نحوي لأكشف عن الحقيقة خطرَت في بالي خاطرة تقول: "أتعود تلك الأصوات إلى أطفالها في الرحم؟!".

تسمّرتُ أمام الدولاب المفتوح بمقلتين تريان سرابًا دون أثر، أذن تسمع مواء دون جسد، أنفُ تشمّ رائحة عفنة دون مصدر، القطة لقد اختفت؛ لأتراجع خطوتين إلى الوراء فأصطدم بشيءٍ ما صلب أوقَعَ الهاتف من يدي، وعلى الضوء المنبعث ألتَفِتُ لاهثًا لأرى الخيط يمتد وقد نضج تكوينه، والجسد الأسود ينظر من خلفي نحو الدولاب مزمجرًا، وتيقّنتُ حينها بأن الموت قد تشكّلَ وحضر.

***

- مختار، مختار، استيقظ أيَّها الطبيب الكسول.

ينتفض الشاب الثلاثينيّ من على كرسيه ماسحًا الغمص الملطخة به عينيه، وهو ينظر نحو رجلٍ مزدان بـ"البالطو الأبيض" يتحدث في خيلاء:

- عامر، أيَّها المتحاذق، لأقتلنّكَ يومًا ما على فعلتك تلك؛ فيكفيني فزع ذلك الكابوس.

- كابوس! بماذا حلمتَ يا صديقي؟ أهم ضحايا نفسيُّون جدد داخل المشفى أم أنَّ أحدهم يجري وراءكَ بسكّين ليقتُلَك بعدما أجبرته على لعب تلك المنشطات العقلية السخيفة؟

يكتفي مُختار بالصمت وهو يُفكر.. هل عملهم داخل المشفى السبب في ذلك الكابوس الذي راوده عن أُناسٍ يتحدثون عن الماورائيات ووجوه تكاد تكون ممسوحة؟!

يندهش عامر لجدّية صديقه غير المعتادة منه، ليسأله:

- اتلُ عليَّ الحلم إذًا.

يرتعِد جسد مُختار بمُجرد ذكر التلاوة، وكأنَّ عقله يسترجع تفاصيل حلمه المزعج، والخمسة رجال وتلك المنضدة التي لا يُميزها جيدًا، ليقول:

- لا شيء، سأذهب إلى الحمام لأغتسل ثم أباشر العمل.

يترك مختار صديقه متوجهًا إلى مقصده و اقفًا أمام المرآة وقد أدار الصنبور ليصدر صوته المزعج كعادة حمامات المشفى العريق، يُدقق النظر في وجهه الذي اتَّصف بأعين بُنية اللون ضيقتَين، بشرة بيضاء ناصعة، شعر مموج يتساقط مع الزمن، أنف مُدبّبة وبِنية تنُمّ عن بطل كمال أجسام، صفات قلَّما تجتمع في هيئةٍ واحدة، وهو يفرك عينيه يُحدث نفسه قائلًا:

- ما السبب وراء تلك الرؤى المزعجة؟ فهي تقبض على الصدر كالجمر الخبيث، ولماذا الآن؟ طوال خمس سنواتٍ كاملة لم أتعرّض لمثل هذا الشأن، وإن راودَتْني بعض الكوابيس، لكنَّها تنفك أن تتملّص من عقلي، ولكن تلك مختلفة؛ فهي كالمسرح وقد قطعتُ داخله مقعدًا فاخرًا في الصف الأول، لدرجة الولوج معهم في الحدث، فما السبب يا تُرى؟

أيُمكِن أن يكون زائرنا الجديد وما يحكيه لي من أمور هو السبب في ذلك؟!

ينتهي مختار من إفاقة النفس، ليُغادر متوجهًا إلى الحديقة حيث سيقابل حالته للمرة الثالثة، وقد اختار لها مكانًا غير الغرفة للتحدث؛ فيصطدم بـ"عامر"، الذي يقول وهو يلتهم ساندوتش من السجق:

- تعالَ وشاركني الطعام؛ فمع الكاتشب ستنسَى كونه لحمًا من الكلاب البلدي، أو رُبَّما حمارًا ضلَّ طريقه للعودة؛ فصار في معدتي.

يسب مختار صديقه؛ فقد كانت عادته النظافة المفرطة التي صنّفها بعض زملائه بـ"الفوبيا"، ليرحل عنه وهو يقول:

- حان ميعاد جلستي مع المريض الجديد؛ فهو ليس بالهيّن ولا أريد التأخر عنه.

يندهش عامر من جدية صديقه للمرة الثانية، ليقول:

- ما اسم ذلك المريض؟

- ستجد الملف عندك على الطاولة افتحه وسترى، وداعًا.

يترك عامر ساندوتش السجق متحسرًا لفضوله لمعرفة صاحب التأثير، وبعد أن يجد الملف يُقلِّب وريقاته حتى يرى صورة لشاب وبجانبه كُتِبَ "الاسم: وحيد سعد...

***

أيها العم جان... أتسمع وترى ما يعبث بعقلك الآن؟! ذلك الخيط وتلك العصور، أتعتقد أنَّه دربٌ من التنجيم أم يتراءى إليك سراب الحقيقة؟ العاقل يُبصر الدماء والأرواح، إنَّما العميان فلا يبصرون الجسد من الأصل، النيران تشتعل؛ فهل لك رؤية الدخان؟

***

داخل الحرم الجامعي، وتحديدًا أسفل يافطة "كلية الحقوق" تقف علياء، "فتاة السبق" كما دعت نفسها متفاخرة متأملة أعين الزملاء والزميلات في لوحتها متناسقة الأركان وهي تُعرَض أمامهم جميعًا بإحدى المسابقات التي تنظمها أسرتها كطقوس لنشاط طلابي اضمحَلّ بعد الأحداث العاتية بالبلاد، ولم يتبقَّ سوى بضع جولات يُعافِر بها هؤلاء، ويأمل لها آخرون، وكانت علياء وفي عامها الأول بالجامعة "فتاة السبق" بحق؛ فمَن تلك التي تصل لأكبر أسرة داخل كلية الحقوق؟ بل وتصير نائبة الرئيس! مَن تلك التي تُصبِح مطلع وواجهة يتغنَّى بها الجمع، بل ويتكاتَف الشباب من الفئة الرابعة للأولى للظفر فقط بالحديث معها، ومِن أين لفتاة الدموع بيومها الأول أن تمتلك تلك القوى العاتية حتى تُطيح بكرامة البعض وشجن آخرين؟ تزيح النعال رواحًا وجيئة، وتنفر الشرايين في الجباه دون أن يُحرِّك لها ذلك ساكنًا، كل ذاك وأكثر حدث بعامها الأول فقط! فتاة السبق رأت في نفسها الكمال؛ فمن تلك التي تمتلك وجهًا حسنًا، بلاغة وإلقاء، ريشة دافنشي، توغلات هتلر على النفس وتداعيات الحروب، مَن تلك التي تصل إلى مبتغاها فقط لإشباع شغفٍ ينتهي حالما يتحقق؟! ولكن لم تدرِ علياء بوجود من يُغير خارطة الطريق..

"هشام" شاب متوسط الطول، سليم البِنْية، مرتكز الأطراف، ذو وجهٍ حسن فيما عدا تلك الأنف المطولة، والتي رُبَّما كانت سببًا صريحًا لتجمع تلك الفتيات حوله، بل والسعي وراءه، وكان هو رجلًا صالحًا لا يبخل عليهن بالود والكلمات الملونة لإشباع غرائزهن، وقد سمع عن علياء الكثير، لكنه وعلى غرار البقية لم يأبَه، بل اكتفى بنظرات عينيه السوداء القاتمة وقدرتها على بعث ترددات تفوقُ القمر الصناعي؛ فتخترق قنوات الفتيات وقلوبهن، وكانت القناة الأثمن حينها هي فتاة السبق؛ فاكتفى فقط بالوقوف أمامها بنظراته، ثم السير دون التفوّه بالكلمات، وقد

لاحظت علياء ذلك، ومع التكرار صحا بعقل الفتاة شجنٌ لطالما كان لغيرها، وعبث بقلبها شعورٌ كان هشام صاحبه الأول، وكانت تلك اللوحة هي البداية...

- مَن ترسم تلك الخطوط يحق لها العصف بالقلوب!

اندهشَت علياء من الكلمات؛ فحوّلَت ناظريها هي والصديقات نحو قائلها؛ فتجده هشام يقف غامدًا يديه داخل سترته، ينظر بأعين ثاقبة مبتسمًا، وقبل أن يسمع الرد ترك علياء مرتجفة الأطراف تترقبه فقط وهو يعدو مفارقًا دون أن يُعيرها شأنًا؛ فكان أمرًا لم تتعرض له قط، لتقف برهة من الوقت وسط صيحات صديقاتها وغمزاتهن قائلات:

- مرحى لعلياء! فقد نالت اعتراف هشام بنفسه، رجل السنة الرابعة ومُلهب قلوب الفتيات.

كانت تلك النبرة جديدة المنشأ على مسامع الفتاة؛ فقد اعتادت أن تتلقَّى هي السبق؛ فكيف تُنسَب إلى شاب عوضًا عن العكس!

على فراشها مُمسكة الجوال متفصّحة المواقع تجلس علياء حائرة، ما زالت آذانها الصغيرة تُردّد طنينَ جملة واحدة وهي تنهر نفسها منكرة الأمر؛ فكيف لها أن تسمح لكلماته بالتأثير عليها وقد نالت من غيره الكثير والكثير؟ فما زال حدث اليوم يؤثر عليها وإن كرهَت، وكان صوت اهتزاز الجوال سبيلًا لخروجها من تلك المشاحنات، لترى على شاشته أمرًا أوقعه من يديها؛ لتلتقطه سريعًا.

كان هشام، بل وعلى نحوٍ أدق كانت رسالة منه تقول "مرحبًا أنا هشام" على تطبيق الواتس آب.

من أين جاء برقمي؟ وكيف لجرأته أن تواتيه حتى يبعث لي بتلك الرسالة؟ "مرحبًا!"، أيظنني سأردّ؟! فيا له من متبجح يتركني في الفناء

ويراسلني بالليل، سأتركه ولن أُعيره انتباهًا؛ فأنا علـ...، حديث نفس الفتاة كان قويًا مزدانًا بالكِبَر الذي انتهى بالرد على الرسالة قائلة:

- مرحبًا، كيف حالك؟

"سأرد عليه حتى أعنّفه على ما فعل و أنتقم"، كانت تلك الجملة سببًا هزيلًا اتّخذَته علياء من نفسها لفتح حديث مع الشاب القوي.

- بخير يا صغيرة.

- صغيرة! ألا تعرف اسمي؟!

- لا، أعلم فقط ما تفعلين بالقلوب.

"يا لها من جرأة ويا له من شاب!"، تُحدِّث علياء نفسها وقد توترت أوصالها، لتصمت قليلًا وهي لا تدري ما الرد على كلامه المعسول؟ فتراه يكتب مرةً أُخرى قائلًا:

- أنا هشام، أتيتُ إليكِ بنفسي لعلي أرى فيكِ ما يُرضيني.

نفر الشريان في جبهة علياء وهي ترى نفسها أمام شاب متعجرف، فكيف له أن يتفوه بتلك الكلمات عليها، على فتاة السبق؟!

- كيف تتكلم معي بتلك الطريقة؟

صمت وترقّبٌ، ثم حديث..

- سأُغلِق إذًا.

تصيح النساء، تُنادين بالأحقية والاعتصام، يفعَلْنَ المُحال للتحرر والانطلاق متغنِّين بالشعارات وثوابت القوى، ولكنهن عند التهاب المشاعر ينسَيْنَ جُلَّ الأمر؛ فينقلبن خاسئات إن عصِفَ أحدهم بذلك الذي يُدعى "القلب"، ولم تكُن علياء متفردة، وإن اختلفت الصفات فما كان منها غير الرد مسرعة ودون تفكير..

- تغادر! لا لا أنا أمزح، وجودك بالتأكيد يُسعدني، فقط أدهشني الأمر فقط.

صمتٌ آخر وترقب، ثم حديث..

- لا داعي لذلك؛ فتلك طريقتي في الحديث.
- يا لكَ من مغرور!
- ربما، ولكن ما يهم هو أنّكِ تُعجبينني بالفعل.
- أُعجِبَك! أحقًا ما تقول؟
- نعم يا صغيرة، وأعلم جيدًا أنِك ستُبادلينني المثل.

صمت وخفوت، ولم يكن من علياء سوى إرسال بعض الإيموشنات التي تُظهر النفور؛ ليتركها هشام حتى دون سلام، فقط تركها.

دقّات القلب تُسمَع جيدًا، والرعشة الخفية باتَت علنًا للعين، واليوم انكسرت أولى خطوات الطريق المرسوم إلى تلك الفتاة، وبُدِّلَت بآخر يبدو لوهلته الأولى أكثر ضياءً وعنفوانًا بغرور هشام، انزوت حقيقة السبق وصارت أخرى لفتاة يبدو الحُب هو سبيلها الأول.

***

على كُرسيّ فاخر وأجواء باردة تعكس ظلمة الشتاء أجلس متوعّكًا ممَّا حدث بالأمس، وتلك القطة اللعينة التي تركَت آثارها دون جثتها! ولكن كيف؟! أكانت من الجان، أو رُبَّما فعلتها الزواحف بالغرفة المُجاورة و اقتضَ...، هنا قاطعني صوت فتاة معسول تقول في غنج:

- ما هو مشروبك لأحضره لك؟

نظرتُ لها دون تعابير وجهٍ تُذكَر، لأقول:

- قهوة سادة، فقط أضيفِي لها تسعة حُبيبات من السكر.

تعجّبَت الفتاة لهذا الطلب العجيب، وقد بدا ذلك واضحًا على وجهها الذي حاول مُداراة الأمر باصطناع ضحكات سمجة، أخبرتني من خلالها بعدم الالتزام بما قلتُ، وهنا امتدَّ الخيط الأسود مُجددًا دون داعٍ؛ فذعرتُ خشية ظهوره، لأردف قائلًا:

- أحضرِي لي السكر وأنا سأتكفّل بالأمر.

حالة من الصمت والجمود سادت بيننا؛ لتفر من أمامي حتى لا أسمع صوت سبابها، وفي داخلي شجن؛ فهذه المرة الأولى لي لأحتسي مذاق هذا المشروب الفريد.

بالطبع ستعتقد فيّ الجُذام؛ فلتصبر إذًا؛ فينبغي عليكَ أولًا معرفة أين أكون!

أجلسُ على كُرسيّ فاخر -كما ذكرتُ- داخل بناية مقسّمة إلى غرف وداخلها موظفون وهواتف مُتفرقة، "إدارة كارفور" نعم؛ فهنا يعمل صديق زوج عمتي، وهنا سأحصل على وظيفتي دون مقابلة أو سي في مُعَدّ؛ فالواسطة يا صديقي تفعل ما لا يفعله الشيطان.

سأعمل بوظيفة الكاشير في "كارفور المعادي"، وهو أمرٌ به من الملل ما ليس بغيره، ولكنني مُجبَر بطبيعة الحال؛ فلا أمتلك سوى مائتي جُنيه مصري، ولكَم وددتُ لو استطعت منحه جنسية الاسترليني أو باسبوره فقط، تلك السترة المهترئة ولا أستطيع العيش على المياه فقط! فحتمًا ستقتلني الأنيميا يومًا ما؛ لذا يحيا كارفور وطعامه، ولكن أمِنَ الحق العمل به وقد كنت من المطالبين يومًا ما بمقطاعته انتصارًا للعقيدة؟ كيف ولماذا تُجبرنا الحياة على فعل ما نبذناه يومًا؟ فإن كان العمل به حتمًا مفروضًا فلأقم بإفلاسه والتلاعب بالأموال دفاعًا عن الفكرة، يا

لكَ من ساذج! أتنتَصِر للدين بالباطل؟! توقفوا جميعًا؛ فقد أتت فتاة القهوة.

دون حديث باغتَتْني بما طلبت وهي تترقّب فعلتي القادمة، وبنفس الجمود الأول أخذتُ منها الفنجان وبقية الأغراض متجاهلًا إيَّاها بالشكر، وهو أمر زاد من ريبة الفتاة وأكمل حنقها، لكن ما الفائدة؟ فلستُ برجلٍ جميل المظهر ولا أنا بصاحب أموال أُغدِقُها عليها لتجلس معي، رُبَّما تكون في خِطبَة فكيف لكَ حينها أن تُغريها بالجلوس وإن امتلكْتَ النقود؟! لم أرَ خاتمًا أعلى يديها السمراء، كفَى.. أُريد احتساء القهوة، ألا يكُفّ عقلي عن البعث بكم!

واحد، اثنان، ثلاثة، أربـ..... إلخ، نعم التسع حُبيبات تذوب في قهوتي الآن، وها هي تتهيأ لتُلامس شفتيّ اللتين أذابهما الشوق وحرارته أكثر من تلك المنبعثة منها، أرفع الفنجان ببطء السلحفاة لأحتسي رشفةً هنيّة، وهنا يتجمد عقلي فما هذا المذاق؟ كيف أحدثَت الحُبيبات التسع ما لم يفعله غيرها؟! فقد صارت القهوة مزيجًا من السراب المزدان بالو اقع، نكهةٌ تُلهِبُ القلب وتشفِي العقول، لم تكن بمرارة الـ"سادة" ولا بعنفوان الـ"زيادة"، ولا حتى باتِّزان الـ"مظبوط"، يا إلهي! إنَّها شيءٌ آخر بتصنيف مختلف، نعم القهوة ذات التسعة حُبيبات؛ فالحمد لله على انفرادي بها دون غيري من العامة، ومع الرشفة الثالثة لمعَ عقلي بذكرى قصيرة المدى تُخبرني عن العجوز التي تقبع بجوار مسكني تبيع الخضراوات، لقد أحاطَتْني بنظرات البوم عند مروري بها، فهل ترى فيّ العبث أم الخلود؟! وبينما أفكر محتسيًا قهوتي سمعتُ صوتًا ذكوريًا خشنًا يقول:

- وحيد، لقد تمَّت الإجراءات بيُسر، هذا هو العقد نحتاج إمضاءَكَ وصورة بطاقتك، وأوراق بسيطة أُخرى، ومن الغد ستستلم عملك في "كارفور المعادي"، في أي وقت تُحب الدوام؟

- أريد الدوام المسائي.

ابتسم المُتحدّث في إشارةٍ منه بتوصيل التحية إلى زوج عمتي بعد إكمال معروفِه، أخذتُ العقد من الرجل دون أن تتلاقَى عيناي بمقلتيه؛ فالخجل من سماتي أيضًا، أنهيتُ الإجراءات سريعًا، وغادرت منفرج الصدر.

"أخيرًا سأعملُ دون أن أرى الشمس"

***

صباح يومٍ جديد، لا زقاق عصافير أصحُو عليه، ولا همسات ريحٍ خافتة، إنَّما صوتٌ أذعريهتف قائلًا "روبابيكيا بيكياااااااا"، كيف ولماذا يظنّ القائل في نفسه حنجرة أم كلثوم؟ أو رُبَّما تدفق مشاعر حليم ليطربنا به مستأنسًا لذلك غير مبالٍ بسِكِّين قد أرميه به؛ فيخترق قلبه مُريحًا البشرية منه!

ما زالت رائحة القط ملازمة للغرفة، وما زال الجسد مختفيًا عن الأنظار، ولم آبه؛ فاليوم هو المشهود، ولعملي الأولوية والتفكير، قميصٌ باهت اللون على بنطال مزخرف بالكرانيش، وحذاء متسخ، كانت سمات مظهري الذي سأغدو به عاملًا في "كارفور"، وقد اتَّخذتُ الدرجات في خفّة مستبشرًا، وبينما أسير مسرعًا لتأخري المحتمل، سمعتُ صوتًا هزيلًا يقول:

- ألا يكفيكَ ما فعلت؟!

نظرتُ بأعينٍ مذعورة نحو مصدره؛ فرأيتها العجوزتجلس محدقة إلى وجهي، مططتُ شفتيّ:

- عمَّ تتحدثين؟!

- كيف لكَ أن تعود؟! اتركنا لنهنأ بمعيشتنا.

جلستُ القرفصاء وقرّبتُ وجهي من جسدها؛ فارتعدَت متشنجة الأطراف، وهو أمر أثار استحساني لقوة بائسة على امرأة واهنة، و أيضًا اشمئزازي، واكتفيتُ فقط بتفحّصها لعلي أجد بداخلها تلك الزواحف التي انفردَت بقطتي، ثوانٍ مرَّت كأنَّها دهرٌ ثقيل الأوتار، والعجوز تكتم صيحاتها خشية الهجوم، ولكن هجوم مَن؟ أترانى حقًا بصورة وحش، لتكسر العجوز الصمت مرددة:

- أرجوك ارحل.

استغرقتُ ثانيتين ما بين استقبال طبلة الأذن للكلمة وبين فراري من أمامها ؛ فقد اكتفيتُ من الهراء وجنون امرأة لا تدري بأي عقلٍ تتحدث.

انطلقتُ نحو العمل متنسايًا الأمر؛ فكما ذكرت هذا يومُ عملي الأول، ولن يُخربه إلَّا الموت إن أراد.

وصلتُ إلى "كارفور"، مبنى يسرُّ الروح لم تطأه قدمي يومًا، وها هي تنغوي بالعمل داخله، لأقابل حينها مُدير فرع المعادي، والذي لم يكن مهلّلًا بالترحاب! فقط بعض الكلمات التشجيعية متفحّصًا هيأتي، وربَّما تساءلَ كيف لهذا الكهل أن يعمل هنا؟! ليُخبرني بارتداء الزيّ والتوجه إلى أحد أماكن الـ"كاشير"؛ فالعمل بسيط، دوام بساعاتٍ متصلة يقطعها الصلاة ووجبة تُعِين البدن، فقط إدخال المقتنيات على الجهاز وأخْذُ فلوس العامة لإيداعها في خزائن آخرين، فلم يكن ذلك بالأمر الجلل، بل وقد يتطرّق لكونه خلاصًا من ذلك الخيط المصحوب بتلك الهالة السوداء، دقَّت ساعة العمل، وها هم يتناوبون عليَّ رواحًا وجيئة يُريدون الخلاص من ذاك الزحام، وقد شعرتُ بأهميتي حينها؛ فأنا القبطان متى انتهيتُ تحركت الجحافل للأمام، ولا داعي لذكر أيامٍ من الروتين ورنو البصر على الوجوه؛ فما يهم هو القادم..

شهرٌ كامل الأوصاف قضيتُها وسط أسرة "كارفور" كما يقولون، أسمع همس أحدهم وهو يلقي الشعر في سيّدةٍ مجدولة الشعر، وأخرى تتهاوى كمدًا على بطاقتها الضائعة، وذلك الأب الذي يُهدهد ابنته وخلاصًا من زوجته، البعض هنا لا ينكفئ سوى على التعقيب في الأحوال وشؤون العامة، وبالطبع لم يستهوِني الأمر، بل كانت العزلة صديقًا وفيًا رغم مُحاولات أغلبهم لإقامة ولو زمالة مؤقتة، ودائمًا ما كان الرد "عفوًا فأنا مريض"، والعجيب هو تفاقم الشأن لينال الزبائن، وخصيصًا السيدات على مختلف الطرق، أرى في أعينهم شغف يغتصب عزلتي وغنج يشرئبُّ له العنق! فقد كان العمل أشمَل بالبوتقة دون التفوه ولو بكلماتٍ قلائل، وهو أمر أعجَبَ المدير الذي لم أرقُ له في بادئ الأمر؛ لأصير رجل العمل الأول كما دعاني، وفي اليوم الثالث من الشهر الثاني لي، وبينما أُنهي تسليم النقود في آخر اليوم، بصرتُ شابًا يُحدّق بجبهتي مقتربًا بحذر؛ فلم أعره انتباهًا، ليقول:

- جبهتُكَ تدل على عبقرية فذَّة، فمن تكون؟

تركتُ النقود والتفتُّ إليه دون حديث.

- لم ترد على سؤالي بعد!

رجعتُ إلى النقود أرتّبُها متجاهلًا إيَّاه، ليُكرر مسعاه:

- إن كنت تحجب هويتك فهل تقبل التسكّع معي بعد أن ننتهِي؟

دون أن ألتفت رددتُ قائلًا:

- عذرًا؛ فأنا مريض.

غاب الصوتُ برهةً لأظن رحيله، ولكن ما هي إلَّا ثوانٍ حتى هجم سرابُ يديه الممدودة نحوي بالسلام؛ ففلتَت النقود من يديّ المرتعشتين وهو يُتابع فعلته قائلًا:

- اسمي يحيى.

حالة من الجمود أطاحَت بكاهلي، فما هذه الجُرأة التي يتمتع بها هذا الشاب؟! وكيف له اختراق بوتقَتِي بتلك الشاكلة؟! ألا يخشى نهري له مُمحيًا كرامته أم أنَّه وبحقٍّ يرى في جبهتي عناوين الكلام؟!

صافحته قائلًا:

- و أنا وحيد.

لم أكُن أعلم حينها بأنَّ تلك المُصافحة مهدٌ لجَنِين يتشكّل قدرًا دون قدرة على كبحه، وصداقة ستُولَد على أكناف الرحم، لم يكتفِ يحيى بتلك الليلة، بل أعاد تكرارها مرَّات وتشابهت جميعها بذكره لاسمه "يحيى"، و أيضًا نقاشه الدائم حول جبهتي المميزة ومدى عبقرية قر ائتِه، ليقف بجانبي بأحد الأيام أثناء العمل يُهامسني مُقلّبًا نظر اته نحو العامة:

- انظر يا وحيد.. جبهة هذه السيدة المزدانة بالغلظة تنمُّ عن سادية مفرطة، ولن أندهش إن كانت على زوجها أيضًا، على الفراش وخارجه!

ما زلتُ مستنكرًا فكرة الجباه وعدم صدقها، وما هي إلَّا لحظات حتى قدمَت ومعها زوجها يُمسِك بالحاجيات الكُثر، ومع إدخالي لهم لمحتُ وجه الرجل المُتَعِض، وسمعت صوت يحيى يُخاطبه:

- ستأخذ جميع تلك الأشياء يا أستاذ؟ أم أنَّك ترغب في إعادة البعض؟

ارتعدَت أطرافي لتلك الفعلة التي أعلم غايتها، وبالفعل وقبل أن يرد الرجل صاحت المرأة:

- لماذا تسأل؟! وظيفتُكَ لا تسمح بذلك، ونعم سنأخذها بأكملها.

كانت تُخاطبني أنا عوضًا عن يحيى الذي هاجمها بكلماته، وبان آثارها على وجه الرجل الذي احمرَّ خجلًا، وبجانبي همسات يحيى تقول:

- لَمْ تنظر إليه حتَّى.

قد يصدف المرء بإحدى المرَّات، لكنه وإن أصاب في أُخرى فلم تكن للصدفة سبيلًا إليه.

- جبهة المُديريا وحيد، تفحَّصْها جيدًا، أترى ما تبعث به؟!

تلك الأُحجيات ومترادفاتها لم أتبيّنها بعد؛ فاكتفيتُ بالصمت مُشغِلًا نفسي بالعمل؛ فأتبع قائلًا:

- هذا العجوز الهَرِم ما هو إلَّا مُتحرش مراهق عاشق لـ...

أوقفته هنا؛ فأنا أعلم جيدًا إلى ما يرمي إليه، وتحدّثتُ لأول مرة:

- ستتسبَّبُ في مقتلنا.

رأيت أسنانه الصفراء المنبثقة من ضحكة سمجة لا معنى لها، ليقول:

- سأثبت لك، فقط القليل.

تسارعَت دقَّات قلبي المتطلعة لذلك الإثبات؛ فكيف سيفعلها هذا المجنون؟! لتمر الثو اني.. الدقائق، ومعها ساعتان كاملتان، ومع نهايتها رأيتُ خيطي الأسود يتشكّل مرةً أُخرى؛ ففزعتُ مُحوّلًا وجهي تجاه يحيى الذي مدّ قدمه اليُسرى إلى الأمام باتِّجاه المُدير، وبالطبع اكتفيتُ بالصمت وإكمال عملي، وبينهما نظرات خاطفة نحوه وهو يُحادث المدير خافتًا صوته؛ ليتركه قادمًا نحوي مبتسمًا كتلك السابقة، ولكن لم يقف بجانبي كالمعتاد، بل بعيدًا بثلاثة أمتار على الأقل، ومع إدخالي لحاجيات القوم وقفَت أمامي سيدة تدثّر نفسها بمعطفٍ يحجب عن الأعين الكثير،

ملامح قوية ولكنَة تتعطّش لها قلوب البشر، وبطبعي الحاد لم آبَه، ومع استلامي لما ابتاعت استوقفَنِي هجوم المُدير واصطدامه بالسيدة لحد المُلاصقة و افتعال سقوطِه، ووسط دهشة وترقب قال بصوتٍ متقطع:

- اعذريني يا سيدتي؛ فقد تم إخبارنا عن زيادة فولتات الكهرباء بالأجهزة، ووجب التأكد قبل أن يُصيبكِ مكروه.

عجوز مهندم الثياب رفيع الشأن، نبرة متقطّعة خائفة ووهَنٌ سببان كافيان لإقناع "داروين" بأنَّ القرد حيوان فقط؛ فما بالك بسيدة مثل تلك؟!

نجحَت الخطة و انتهى الأمر بالعذر و ابتسامة الحرص، وبعد تظاهر بالفحص أكملتُ ما أفعل حتى انتهيت، ولم تنتهِ تلك الأفكار، وخُطا حذاء يحيى التي تقترب حتى تبدّلت إلى صوته القائل:

- أخبرته فقط بأنَّها سيدة انحنَى أمامها الرجال.

***

داخل مبنى مهترأ وعلى طابقه الثاني مكث "حمد" على فراشه يعبث بالأوراق رواحًا وجيئة، يبعثرهم هنا وهناك مُمسكًا خُصيلات شعره الناعمة براحة يديه مفكرًا..

"ما أعقد تلك المُعادلات! فكيف لي بفَكّ أُحجياتها و أنا أمكث هنا؟! تبًا لصيحات هؤلاء الفقراء نحو زعيمهم وأمثالهم من المغفلين، أيحيا المرء بالجهل والأُمّيّة تاركًا شأن حياته وقوامته لغيره دون إبداء رأي؟! فقط مثل بيدق الشطرنج؛ يُحركونه ظنًا في نفسه حرية واهِيَة، ألم يُدركوا بعد أنَّ أوروبا ستستزيد في عنفوانها؟ وذلك الخيط الفاصل بيننا وبينهم بالعلم واستمرارية نفوذ علمائهم، ونحن يا لتعاستنا! فقط "سعد سعد يحيا سعد"، سأغادر وأعود حتمًا لتنفيذ طموحٍ طال عليه الأمد".

بعد لقاء حمد الأخير بصديقه إسماعيل لم يُقابله إلَّا مراتٍ معدودة لانشغال الأخير بتجهيزات العُرس، وانكفائه هو على وُريقات البحث المجهول، بل ومُحاولة التوصّل لأحد الإنجليز البعيدين عن البندقة والحرب، رجاؤه فقط رجلًا عالمًا من بينهم، وكان له ما أراد.

جاء اليوم الموعود الذي تجهَّز له حمد جيدًا؛ فالرجل المنشود سيقابله بعد ساعةٍ من الآن في "حي الغورية"، وتحديدًا في ملتقى العبادات، واللقاء داخل التكّية التي ولطالما جلس حمد داخلها يتعبّد ويستمع لأناشيد القوم، ووجب عليه الانتهاء باكرًا؛ فاليوم أيضًا ميعاد عُرسِ صديقه، ويتوجّب عليه الحضور حتى لا تنتج غضبة صديق من ورائها انقطاع تام.

بذلته المهندمة، طربوشه الأحمر المزدان بالكرانيش، وساعة فضيّة تتدَلَّى من سترته، كانت تلك سيمات حمد المعتز بالأناقة ووجوب حسن المظهر لعلو الشأن، كان يعتز بمصريّته وذاك "الطربوش"، الذي ولطالما كافح لبقائِهِ، لكنه لم يعتَزّ بخصال أبناء بلده وتطلعاتهم، تلك الرمادية أنبتَت بذورًا بداخل قلبه لم يقوَ على فكّ شيفرات تعقيداتها، لكنه أصرَّ على الرحيل.

بعد أن ارتجَلَ من حنطوره وبخطوات معتدلة اقترب حمد من "تكيّة السلحدار" متوجّسٌ ومرتاب دون أن يرتكب شيئًا يُعيب أو يُدين، لكنه في قرارة نفسه يعلم بخطورة ما هو قادمٌ عليه، ليتخذ مقعده كما اعتاد مُحاطًا بالصوفية والأناشيد، وبينما يضطربُ جسده لانشغال العقل بالفكر والقلب بالتعلق سَمِعَ صوتًا هادئًا به فحيح كالأفعى الساكنة قُبيل إبراز أنيابها السامة:

- كما أخبروني فإنَّك مُختلف، أنتَ حمد إذًا.

بقشعريرة طالَت الجسد بأكمله أدار حمد رأسه؛ ليرى بجانبه رجلًا شاحبَ اللون كثلج روسيا حينما ابتَلَعَ الألمان، عينان ضيقتان تُخفي خصاله، أنفٌ مُدبب وتشققاتٌ بارزة في الشفاه؛ فهل تلك ناتجة عن الحديث المُطول أم كثرة القبلات؟! وعلى رأسه "بُرنيطة" كما يقولون توحي باعتزازه بالمنشأ:

- أصبت، فمن تكون أنت؟!

- أنا الرجل المنشود، العالم البريطاني الذي أرَدت.

فحيح صوته مع تقطعات لهجته المصرية أجبرَت حمد على تجنّب سؤاله عن اسمه؛ فلو أراد لقال، ليستجمع قواه مُخفيًا هيبة الرفيق ويرد:

- سعيدٌ لِمُلاقاتك، ولم أعتقِد قُرب اللقاء، حديثي مع "روبرت" كان ارتجاليًا، وفوجئت بترتيب ميعادٍ معك.

- "روبرت" جُندي بريطاني فَطِن، وإن لم يرَ فيك شأنًا عظيمًا ما فعل ذلك.

- شاكر مدحكَ الثمين، فهل ستُساعدني لفهم ما أردت؟

مطَّ البريطاني شفتيه، ثم أردف وقال:

- هل تُحب المحروسة؟

ماذا يفعل ذلك الأجنبي؟ ألا يكفيني رهبة صوته وجمود عينيه؛ فما علاقة مصر بالأمر؟!

- بالطبع، بلادي لي، أمَّا أُناسها فلا.

- هل تُحب جلسات الصوفية؟

انزعج حمد من تجاهل البريطاني له؛ لينفر قائلًا:

- أستُساعدني في معرفة الحقيقة حول ذلك العالم وتلك الجملة التي تقول في إحدى وريقاته "تحضير النفس" أم لا؟

لمعَت عينُ الغريب عند ذكر حمد تلك العبارة، ثم أدار وجهه يمينًا ويسارًا، ثم لأعلى، ليُخرِج من جيب سُترته ورقة ويُعطيها إليه؛ فأمسك الأخير بأطر افها، وقبل أن يقرأ سطورَها سمع الغريب يقول:

- لا أحبذ كثرة الحديث، لتقرأ فقط.

مرَّر حمد عينيه على الورقة، وشرع ينقل ما تحتويه إلى عقله..

"من السير نيكولاس إلى أصحاب الفكر.. أكتب لكم الخطاب السادس وفحواه "تحضير النفس"، قد يبدو لحضراتكم عنفوان المُصطلح، وربُّما تأثمون في الملكوت لتلاوته، ولكن أتخفَى الحقيقة على أصحاب العقول؟ وهل يخشانا الإله إن وصلَت عقولنا إلى المعنى الحقيقي للروح؟!

سنتحدث عن شأنٍ بعيدٍ عنَّا لمعتقدات ديانة وتراث يُقال لهم "الصوفية"، فهل تَمّ تطبيق "تحضير النفس" عليهم أيضًا؟!

قل و اتلُ.. "بسم، بسم، بسم" ثلاثة مرَّات، ثم اجلِب مُسمى الإله وبعض الترتيل من كتاب المُسلمين، واجعله تسعة واجبة في كل وقت وصلاة، حرِّك الرأس بزوايا قد تصل إلى 180 درجة، وردِّد عبارات كالأسماء الحُسنى بالمضاعفات حتى الثلاثمائة وأربعة وعشرين.. "المُهيمن" للبواطن، و"المصور" للمرأة العقيمة، و"الخالق" لتحضير ملك! نعم يا معشر القوم، ألم يُخبركم سيدكم خلف المُحيطات بقرب الميعاد؟ ولذا وجب "تحضير النفس" على كل شأنٍ وأمر، وللصوفية ميعاد تُدنّس به عن طريق أقرب الرجال".

أنهى حمد قراءة السطور ومعها كمدَ قلبه وارتعدت أطر افه؛ فما بلغ عقله -وإن يعي مكنونه- فهو كفيل بإحداث الريبة والشك، يُحدّثه عن العلم؛ فيُجيبه بأحد معتقداته! ليلحظ نهوض رجل "البورنيطة" مغادرًا التكيّة؛ فيلحقه حمد في الحال، ومن دون سؤال يبدو أنَّه يُريد منه اتبَّاعه لشأنٍ آخر، رُبَّما أعظم شأنًا.

يركب البريطاني سيارته الفخمة المزدانة بعلم دولته رفيعة الشأن منتظرًا ولوج حمد إليها، والذي يفعل دون امتعاض؛ ليتحرك به داخل شوارع المحروسة مستغرقًا نصف ساعة على أقل تقدير لم يهمِس أثناءها ببنت شفّة، وحمد مترقب للأزِقّة التي يخترقها رفيقُه، حتى يتوقف أمام مبنى بحيّ مهجور، لا صريخ يجتاحه ولا أرواح تألف له، يترجّلُ البريطاني ويتبعه حمد حتى يقف أمام مبنى، يبدو عليه القِدم ورساخة البُنيان، طابقٌ واحدٌ فقط وقُبَّة تُوحِي بالأديان، ثلاثة أبواب للدخول و اثنان من الزخارف المزركشة على كل باب، ومع تلك الريبة كان لا بد من قطع ذاك الصمت المُشين بصوتٍ خجول مُرتاب يقول:

- ما هذا البناء ولمَ جلبتني إليه؟!

- إنَّه معهد الفلك القادم للشرق، وباطنه أُسُس السحر، الصوفية المخترقة كما قرأت في الكتاب.

ينفرج فاه حمد ممتعضًا:

- أيُؤمِنُ الغرب أيضًا بالجان؟! هل فقَدَ العلماء عقولهم أم أنَّكم تُصدقون حكايات القدماء وسحرة الباب والمُلك؟! لا يعترف العقل بالماورائيات، ولا يوجد علم أساسه الدجل!

و ابلٌ من الأسهم يقذفُه حمد على رفيقه الصامت وكأنَّها فرصته لرد شعور توغَّلَ داخله، وخوف يخجل البوح به؛ فيتوقف متصنّمًا وهو يبصر وجه الغريب يتحول تجاهه بارزًا أسنانه ناصعة البياض، وقد

انفرجت شفاهه حتى برزت خطوط انشقاقها؛ لتهطل قطرات الدماء من بين طيَّاتها، يقترب بوجهه الشاحب حتى لاصِقَ أذن حمد متفوهًا بهمساته الفحيحة:

- أمسِك الورقة ولاقِنِي على نفس بُقعة اليوم، السادسة مساءً ميعاد الرحيل.

غادر البريطاني تاركًا حمد وحيدًا متجهّم الوجه بغيض المطلع، ليتلو السطور الجديدة والتي تقول:

"على رمال الشاطئ كانت الرحلة، قسَمُ الإله باليوم الموعود وعلى الضفاف أرواح البشر، بحارٌ وأمواجٌ متضاربة داخل النفس تنتظر تحضيرها، والعلم هو البحَّار الذي سيمتلك القدرة لترويض أثمن الأمواج العاتية، التلمود والقرآن لنا وإن اختلَفَت العقائد والأديان، احْزِم حقائبك إن أردتَ الروح وأسرارها؛ فالغد ميعاد سفرك، ولتودّع أقرب الناس إليك؛ فعند عودتك ستبصر الحقيقة وترى الوعد! "

تسقط الورقة من حمد، وما بين الرهبة والفضول يصيح قائلًا:

- إسمـــاعيــل.

***

16 نوفمبر 2021م..

تجاوزَت ساعة الحائط الثانية عشر ليلًا، نسماتُ ريحٍ باردة تُعلن بفخرٍ بدء فصل الشتاء، ولكم هُيِمتُ بطقوسه وإن تخثَّرَت الدماء بالعروق جرَّاء جسدي الوَهِن غير القادر على تحمّل برودته، أجلسُ على الكُرسي العتيق، كان كبير المساحة مُتّسع الأركان، يهتز بمُجرد جلوسك عليه رواحًا وجيئة؛ فمع كوب من زجاجة الخمر الفارغة تلك ستشعُر وكأنَّما تعيش بين طيَّات عصر الملوك، انقضَت أربعون يومًا على حادثة

الجباه، لم يغِب عن مُخيلتي إلى اليوم وجه يحيى صديقي وهو يترقّبَنِي بشغف بعدما أصابَت فراسته في معرفة شخصية السيدة ومن بعدها المُدير، صديقي! نعم فمنذ تلك الحادثة جذَبَنِي إليه ووَلِعَ بي كأنَّما تلاحمَت خصالنا المتفردة بهذا العالم الموحش، وخلال تلك المدة القصيرة صِرْنا نبتهل بانتهاء دوامنا لخروجنا سويًا والتحدث حول النفس ومُراقبة جِبَاه البشر؛ لعلنا نصل إلى الحقيقة.

اليوم ميعاد إجازتي، وفي طقوس "وحيد" المكافأة تأتي لمن ذاق الألم؛ فأُخصّصها للمنزل فقط لا أغادره، وها قد هبط المساء وخيَّمت الريبة على الأجواء، أجلسُ أُهزّز الكُرسي المتهتك وأمامي لهيب متصاعد جرَّاء حرق الحطب داخل المدفأة، سبيل النور الوحيد إلى منزلي الآن.

كما المقعد المُجاور للنافذة أنظرُ إلى اللهيب المتصاعد أُفكر وأستنير، قد يُداعبُنِي عقلي مرَّات وهو يُخبرني بتحرّكِ زجاجة الخمر من مكانها دون أن يمسسها أحد! أو تشكّل وجهٍ لظِلّ الحطب على الحائط المجاور لي؛ فإن انسقتُ وآمنتُ أصابتني قشعريرة من الرأس حتى أخمص القدم، وبسرعة حاولتُ طرد تلك الأفكار؛ لعلِّي أستأنس بالوجود، ولكن ذلك الصوت القادم من الغرفة المقابلة للردهة أعاد إحياء الأمر، يقولون بأنَّه إن الْتفَتَ الخائف لمصدر الذعر الحقيقي سينال منه عاجلًا أم آجلًا، فلم يكن مني سوى الخضوع جامدًا أمام شرارَاتِ اللهب المتطايرة ألتَمِس منها آمنًا وأُلفة، الكُرسيّ يصدر أنينًا صاخبًا بلسان حال يقول "سأنتزع أحشاءَكَ إن لم تنفض عني"، فهل صرتُ عبئًا عليكَ أنتَ أيضًا؟! الكومود الصغير تتخبّطُ محتوياته لا أسمعها، إنَّما أبصر اهتزازه؛ فهل ينتصر للكُرسي! ما هذه الأجواء؟! أيُعقَل أن تكون تلك جائزتي؟ وهل سيخشى وحيد محض هلاوس؟! سأقتلِعُ خشبات المقعد وأُلقِي بالكومود خارجًا؛ فلن يقدر عليَّ جماد، حتى سمعتُ صوتًا اخترق فؤادي بمخياط نغسَه حتى توقّف، إنَّها الحشرجة تهفو وتتنقل بين جنبات الحائط، أين؟

لا أراها ولا سبيل إلى النظر نحوها، أين ذلك الخيط الأسود اللعين؟ ألن يخرج ليحميني الآن؟ وكيف تملَّصت الزواحف من باب غرفةٍ موصدة؟! تناوبَت مُقلتاي على جنبات الردهة، تارةً أبصر الطنافس الملوّنة لعلها تُخفي إحداها، وتارةً تجاه بوتقة الحطب، رُبَّما تُجيبني أنفاس لهيها بالحقيقة، ولكن دون جدوى، حتى صار الصوتُ قريبًا كمجرى الدم ينهشُ في الجوف، أصابَني الذُعر تاركًا المقعد المهتزّ محتميًا بالحائط جالسًا القُرفصاء متذكرًا كلمات والدي..

"إن غالبَكَ الخوف وأنت قابعٌ على الفراش فاعلم بأنَّ سريرك الصغير لن يدخل الأذى لك أبدًا، على عكس حالنا أنا ووالدتك؛ فما نرقد عليه هو مدخل الجحيم، أسفلنا نيران وعلى الأطراف زواحف فتَّاكة، إن اقتربَتْ منْكَ وأنت نائم ستسمع حشرجتها تقول لك "مرحبًا"، ومن بعدها ستتمنى الموت ولا تطوله".

يتحتّم الوصول إلى الفراش؛ فهو ملاذي، فهل سأقدر على الوصول إليه وسط تلك العقبات؟ كيف سأعبر الغرفة قاصدًا دهليزًا ضيقًا يحْوِي الظُلمات؟ لن أقدر على فعلها! حتمًا ستفتك بي الزواحف كما فعلت بأبويّ؛ فقد كنتُ طفلًا لم أقدر على حمايتِهِمَا، ولكن هل أُحب الأطفال حقًّا؟! ألهذا السبب تتملّكُني فوبيا الزواج؟! الأصوات تتجمّع لتبلغ كيان المنزل بأكمله، فحيحُ تلامسِ جسدٍ ما للأرض وها هو يقترب، سأموت.. سأموت ولم أُلبِّ شهوتي بعد، أيّها الأحمق كفى عبثًا! ومع سكون المُحيط مُجابًا بمذاق برودةٍ لاذعة بَرُدَت نار الحطب إلى أن -ودون مقدمات- انطفأَت؛ فحلَّت الظُلمة الكامنة وانقشَعَت الأصوات، لم أرَ في نفسي عزْمًا مثل اليوم؛ ففي ثوانٍ تركتُ جلستي وعدوتُ نحو الدهليز، فإن كان موتي قريبًا فليكن وأنا أُحاول الخلاص، وأثناء ذلك اصطدمتُ بالطاولة ووقعَت أمامي زُجاجة بالتأكيد هي الخمر؛ فتعثرتُ بها منقلبًا على وجهي مُمددًا على الأرض، وشعرتُ حينها بأصابع قدمي وهي تُلامس

أظافر حادّة تمُرّبها للأعلى، العجيب أنَّني لم أصرُخ! بل كتمتُ الأمر متقبّلًا البرزخ بروحٍ متهتكة كالكُرسيّ المهتز، و أثناء ذلك لمحتُ نورًا خافتًا يشعّ من قعرزُجاجة الخمر؛ فوجهت بصري إليه لأرى كلمة حُفِرَت بإتقان، لأقرأها مسرعًا قُبيل هلاكي و أتجمّد مُرتعدًا، أحرف منفصلة شكلت اسمًا يُدعى..

"ع ل ي ا ء"

***

لماذا؟ وكيف؟ كانت تلك الكلمات أول ما لفظتُ بعدما استيقظتُ لأجد نفسي مطروحًا مُمدّد الجسد، بجانبي حافة الطاولة تتأرجح من فوقها زُجاجة الخمر اللعينة تلك، لا أذكرُ الكثير عمَّا حدث بالأمس سوى بضع ومضات؛ فهل كنتُ أعيش بالأمس حقًا؟!

نظرتُ إلى ساعة الحائط؛ ففزعتُ وهي تُشير إلى قرب ميعاد العمل، لتصطدم رأسي بالطاولة؛ فتسقط زجاجة الخمر أمام مُقلتي التي تعجز عن تصديق رؤية سائل يهطل من بين ثناياتها! وعقل بلسان حال يقول:

"كيف امتلأَت تلك الزجاجة بالخمر وقد كانت فارغة طيلة الوقت!"

لم يُمهلنِي الوقت للتفكير؛ فدقَّات عقرب الثو اني تُوجِب الهلع والفرار إلى العمل، لا يستغرق "الرجال" الكثير للتحضر، بنطال وسترة كافيان لجعلِكَ مؤهلًا لبدء حياتك خارج أسوار منزلك، وها قد بدأت رحلتي.

- ارحَل من هنا، أرجوك.

كانت تلك الجملة من المرأة العجوز القابعة على ال"شبت والبقدونس"، تجاعيد وجهها المتصلة أباحَت لها نَهرِي كل يوم في الرواح والمجيء، حتى سئمتُ الأمر، ولكن لا مجال لها الآن؛ فلتهذي بما تشاء،

تجاوزتُها مارًّا بالعشوائيات ومحلات البيع، وقد تراءت إلى مسامعي همساتها تقول:

- فليصب الله لعنته عليك اليوم.

القشعريرة كالنمل، خطوط متصلة تمر على كاهل الجسد لتخدّره؛ فتطول عقله، تُساعد بعضها بعضًا؛ فتبدأ صغيرة مُهملة وتنتهي بشأنٍ جلل.

وكلمات تلك المرأة كانت لها ذلك الأثر الجلل.

- لمَ تأخرت؟

كانت تلك النبرة أولى الجمل الافتتاحية من المدير المنحرف، وكان الرد كعادة الموظفين الأحرار في مصر وضواحيها "حادثة على الطريق وزحمة مواصلات".

استلمتُ العمل، ولسوء الحظ تغيَّب صديقي يحيى اليوم لوَعكَةٍ ألمَّت به؛ فلم يكن بمثابة روح تُصادق، إنَّما حياة يمر بها يومٌ عصيب أو ملل روتين إدخال المشتريات، انتصَفَ اليوم ورُبَّما استزاد ما بين عملاء تمنّيتُ لو أطَحتُ برؤوسهم بمخياط، وآخرون تراءَت لي جباههم، ولكن أين يحيى ليُخبرني بالخصال؟!

***

التاسعة مساءً...

متى دخل الشتاء ارتاح البَدَن في الليل، وقلَّت أعداد العملاء، ولكن -وعلى عكس البقية- لم يكن لديّ صديق أنُمّ معه على البقية، أو أشكو إليه ضيق الحال وأكاذيب الإعلام، اكتفيتُ بنفسي؛ فهي كالماس لا يقربها سوى رجل الجباه فقط، حتى سمعت صوتًا يقول في غنج:

- أيُمكنني طلب المساعدة منك؟

القشعريرة مرةً أُخرى أطاحت بهاتفي من يدي، لتنفض جسدي حاسة إيَّاه على النهوض، ثم عبرت نحو مُقلتي؛ فأبصَرتُ فتاة قصيرة حسنة المظهر، لا لا بل ذائقة الجمال، منذ متى يا وحيد تهتم لذلك؟! لم يكن جمالًا ماديًا، إنَّما هالة من الجذب يحوي بأطرافه قُطبي الكون، سُرعان ما تملّصتُ من تلك الأحاسيس ورددتُ بوجهٍ جامد:

- ما الأمر؟

- أُريدُكَ أن تُدخِل حاجياتي مسرعًا؛ فهذا المُدير منحرف.

من تلك التي تعبَثُ بعقل وحيد؟ بل وتُجبره على انفراج جفنيه ليقف متحفزًا لصفعةٍ أُخرى من الحقيقة! أتسمُع آذاني الأمر بحق أم أنَّ تلك الطبلة خُرِمَت كما الأوزون؟!

- أعيدي ما قلتِ للتو!

أمسكَت الفتاة بصندوق حاجياتها؛ لتُغادر صومعتي قائلة:

- يبدو أنَّك مثله.

بضعُ ثوانٍ كانت كافية للإطاحة بأعتَى الرجال، فما الذي حدث؟! ما بين كلمةٍ وأُخرى سنون من أبعاد النفس تُصارِع الجسد بأكمله، واكتفيتُ بالصمت، اكتفيتُ بالمراقبة.

***

إنه العام الذي يسبق الطوفان العظيم، أيَّها العم الجان القابع في أراضي العميان، ظننتُم أنَّ سحركم لعظيم خلف غابات الإسرائيليات وحقول الأناضول، لم يُدرِك المُختار بوجوب حياة آلاف المُبصرين؛ فعلى أفعالهم يعمهون لمن حاد واستباح وبقدرات الإخوة "صياد والمسيح"،

تلتقون عند العهد المكنون، معضلةُ الأرقام أيُّهم سيعلو حتَّى حين؟ ومن خلال الدائرة ستعبثون بعقول المستنورين.. ضالين ضالـيــن.

***

- وداعًا يا سعيد.

على تلك الكلمات يُودّع أستاذ "عبد المقصود" طالبه النجيب مُحتفيًا بدرجاته متباهيًا بعلو شأنه في دراسة مادة الرياضيات للصف الثالث الثانوي، بعدما استطاع حل أعقد المسائل بفضل شرحه بالطبع، ولم يكتفِ بذلك، بل وبَّخ بقية زملائه لاعنًا فاحشًا لقدراتهم المحدودة متوعدًا بالعقاب والذّمّ تحت شعار "عبد المقصود اللا محدود".

يسير في الطرقات المعتادة نحو بيته القاطن في منطقة رفيعة الشأن، ولم يكن ليجرؤ على شرائه دون عونِ نقود هؤلاء الطلبة الذين يذمّهم رواحًا وجيئة في دروسه الخاصة، انتصفَ الليل وعمَّت الشوارع سكون وظلمة برد الشتاء، وبينما يسير عبد المقصود مختالًا يُفكّر في حلة المحشي كُرنب وشُوربة الكوارع التي تُعينه على تذكر ماهية رجولته ليلًا، شعر بوجود سيارة خلفه تسير ببطء، وربُّما حذرٌ حسب تخيله، ولكنه، وبعد النظر إليها ورؤية شاب وامرأة بمقدمتها، تناسَى أمرها وعاد لتأثير شُوربة الكوارع التي ينتهي مفعولها بُمجرد رشف آخر قطرة من سائلها، وبعد اجتياز منعطف الطريق والدخول في آخر أكثر هدوءً وريبة سمع صوتًا أنثويًا يقول:

- من فضلك أيُمكنك المساعدة؟

يُحوّلُ بصرَه تجاه المصدر؛ فيجدها فتاة السيارة قد ترجّلَت ولباسها في حال يُذرَى له، هرع إليها قائلًا:

- ماذا ألمَّ بكِ؟!

لم يصدُر لعبد المقصود ردٌّ بالكلمات لخروج رذاذ بخاخ فقدَ على إثره الوعي في الحال.

بأعين معصوبة وسلاسل تُصدر صوتًا منفرًا عند تحركها يتأوَّه عبد المقصود على كُرسيه الراسخ لا يعلم ما حلَّ به، فقط صرخات متتابعة فحواها.

- أين أنا؟ يا بوليس، النجدة، أخرجوني من هنا... إلخ إلخ.

لا أحد يردّ ولا همسات تلتقطها أذناه الكبيرتان، فقط يُترَك كالذبيحة ريثما يأتي قاتلها.

ثلاثُ ساعات كاملة قضاها عبد المقصود في ذلك السكون، وقد جفَّت حنجرته وباحت حبال أصواته حتى وَهن وهزُل جرَّاء صرخاته التي لا تتوقّف، ليسمع بعدها صوتًا أنثويًا مُشابهًا لذي قبل:

- وأخيرًا أستطيع القدوم إليك؛ فلا أطيق سماع صرخات الرجال.

- من أنتِ؟

بضحكات ساخرة تضع السيدة يديها على رأس عبد المقصود، ثم تقول:

- يا لبروز تلك الصلعة! يا رجل لا أرى ولو شعرة واحدة بها.

يُحاول عبد المقصود الاهتزاز لتحريك الكُرسي، أو كمُحاولة بائسة لتخليص نفسه ولكن دون جدوى، ليسمع بعدها صوتًا مُميزًا؛ فيفزع قائلًا:

- ماذا تفعلين؟!

بعد دقائق من الصمت تقول:

- يقولون بأنَّ الشاة إن رأَت السكين فإنَّها تموت قبل ذبحها، ولكن إن سمعَت صوته فلن تحيَا أبدًا.

على الطاولة صندوقٌ بُنيّ اللون مُتَّسع الأركان، به تنوع من الآلات الحادة ما ليس بغيره، تضع السيدة يديها على سكين مزخرف بالنقش وآخر مُدبّب الأطراف؛ لتُلامس هذا بذاك قاصدة إخراج الصوت من بين ثناياهم، لتقترب من الرجل الأصلع البدين وقد تعرَّق من جميع فتحاته لاهثًا بالرحمة متسائلًا.. لماذا يحدث الأمر؟!

تُغرِزُ السكين المُدبب في ذراعه الأيسر؛ فيصرخ الرجل ببحّةِ صوت تُهوّن من عنائه، وتُكرّر الفعل مع الذراع الأيمن متسائلة أيُّهم يُسبّب ألمًا أكثر من أخيه؟! والدماء تهطل كنَهرٍ صغير وسط دموع من هنا وتلذُّذ من آخر، ثم تتجه نحو الطاولة مرةً أُخرى لتُمسِك بدبابيس صغيرة غير مستوية، ليست حادة الأطراف، لتتطرَّق إلى الرجل الباكي؛ فتُدخِل الدبابيس في أذنيه اليُمنى واليُسرى مُثبّتَة إيَّاه ناهية صرخاته التي لا تقوَى على الخروج، يستمر الصمت وتعود إليه بنوعٍ مُختلف من الأسلحة، قِطعٌ دائرية صغيرة متَى لامس وجهها المكشوف جسدَ الرجُل بثَّ ترددات كهربائية كافية لقتل عصفور صغير، فتضع ستة منها على صلعة عبد المقصود الخاضع دون حراك.

ما هي إلَّا لحظات حتى نشطَت الدوائر؛ فاهتز الرجل منتفضًا وقد انقبضَت أوردته وتدفَّقَت الدماء حتى عبر منخاره.

انتزعَت السيدة القطع الدائرية بعد دقيقة كاملة، وقد باتت علامات الحرق على صلعة عبد المقصود ناصعة مُطفِئَة انعكاس النور من عليها؛ لتعود وترجع وقد تعالت ضحكاتها، كمَّاشة دقيقة مُشرشرة الأطراف تطبق عليها مُوجهة إيَّاها نحو إبهام الرجل، وقد بدا جليًّا على وجهها الضيق من اتّساخِه بعدما تفصّحَت جميع أطرافه، تُطبِّق بطرفي

الكمَّاشة على ظفره وتبدأ في انتزاعه رويدًا رويدًا، والرجل قد شُلَّ ذراعه بأكمله جرَّاء تلك السكين الغارزة في جبهتين، انفصال الظفر عن الجلد وقطع الخيوط التي تتّصل بهما لهو أمرٌ جلل، تقول السيدة على إثرها:

- إن لم أقم ببث الكهرباء بكاهِلِك لأُغمِيَ عليك الآن، ولكنك تشعر جرَّاء ما فعلتُ؛ فوجب عليك الثناء.

لا أعلم إن كان عبد المقصود ما زال حيًا أم اقتصرت حياته على بعض الأنين الخافت الذي تطولُه الأذن، والسيدة ما زالَت قائمة بالأمر، لا تنفر ولا تتوقّف، لتعود مُجددًا إلى الطاولة وهى تمُسِك منشارًا وختمًا قابعًا على جمرات من اللهب، ثم تقترب من الجسد المهترئ ممزّقةً سترته كاشفة عن بطنه الممتلئة وثديَيْه الغليظتين، تُحرِّك المنشار أفقيًا على بطن الرجل الذي لا يتحمّل، ليهطل سائلٌ من كُرسيه إلى الأسفل، وعلى ما يبدو تبَوَّلَ على نفسه كالصغار؛ فلا أعلم إن كان ألم المنشار أشدّ أم كرامة أستاذ مغتر تمَّ اغتصابها بتلك السوءة، كانت السيدة دقِيقةً في عملها، تقطع دون غرز، وتُبرز فتحات الدماء دون انفجار بلسان حال "لن تموت اليوم يا عبد المقصود"، وبعد انتهائها ترمِي بالمنشار بعيدًا؛ لتُمسِك بالطابع المحترق بالحطب وهي تصرخ قائلة:

- آن الأوان لإخفاء تلك البروزيا عزيزي.

فتضع الطابع المحتَرِق على حلمات الأستاذ الذي تدبُّ في روحه الحياة بصرخات لم ولن تطُولَها أحباله الصوتية مُجدّدًا، لا يتوقّف.. لا يترَدّد في الكشف عن الألم والخوف، الرهبة وتمنّي الموت، اقتليني كان نداؤُه، والرحمة كانت غايته، هيهات هيهات! فهل يطول المرء الموت إن تمنَّاه؟!

أخيرًا فقَدَ عبد المقصود وعيَه بعد ساعاتٍ من العذاب دون أن يدرك السبب! أكان لكونه مُعلمًا سندًا صريحًا نحو فعل الموبقات به، أفَقدَت

المهنة غايتها اليوم فاجتاح العقاب المُعلم لا الطالب؟! أسئلة لا يعلم عبد المقصود لمَ تتراءى له الآن؟ لكنه وبالتأكيد سيتذكّرَها طيلة حياته.

على سريرٍ أبيض ضيق الحجم نسبيًا، يستيقظ عبد المقصود على صوت زوجته تقول:

- ها قد استفاق.

ينتفضُ وهو يشعر بأنَّه رجلٌ مغتَصَب يبْكِي محاولًا الصراخ؛ فلا يقدر، أين صوته؟ لا يعلم! لا يشعر بكافّة جسده ولا يرى سوى ومضات بأعين منكفِئة على بعضها البعض، إلى أن تتلقَّى طبلته صوتًا يُميزه جيدًا.. إنَّها زوجته؛ فيُخيل إليه أنَّها وراء كل ما حدث، فهل تبيّنَت خيانته لها أم أنَّ الكوارع وعدم بلوغ تأثيرها عليه أباحَت لها هوان أمره؟!

- حبيبي، ماذا حلَّ بك؟ مَن هؤلاء المجرمون؟ أريد التحقيق.. أريد العدالة.

بصوتٍ باكٍ تتأوّهَت الزوجة وخلفها أطفالها، وعلى ما يبدو أصواتُ رجال الشرطة بالخارج تستأذن الطبيب من أجل الدخول متسائلة عن حالته، يسمع دون حراك صوتَ الطبيب وهو يُنهي الزوجة عن الجلوس بالغرفة، ويأمر رجال الشرطة بالتنحّي؛ فالمريض لا يقدِرُ على فعل شيء الآن، فهل صار هو المريض الذي يتحدثون عنه؟ جُلَّ ما يتذكّره هو سليم طالبه النجيب.... يُغادر الجمع غرفتَه وتبدأ الممرضة في فحص الأجهزة والسوائل المزدانة بأقوى المسكنات، وقُبيل خروجها تقترب من وجه عبد المقصود وهي تقول:

- سيعودون إليك بالتأكيد؛ فاحرِصْ على قراءة تلك الورقة جيدًا عسى أن تنجُو.

انتفَضَ الرجل الذي سمع فقط وهو ما يقدر عليه في الوقت الراهن، وبأعين منغلقة يُبصر يَدَ الممرضة وهي تُمسِك بورقة تفتحها أمامه مكتوبٌ عليها رسالة إليه، يُدقق النظر؛ فيرتجف لفحواها...

"أدرَسَ (وحيد سعد) الرياضيات في صفك؟!"

***

- أُريدُكَ أن تُدخِل حاجياتي مسرعًا؛ فهذا المُدير منحرف.

ترددت كلمات الفتاة داخل مسامعي بعدما أطحْتُ بإحدى الحاجيات الخاصة بعميلٍ آخر وإحداث عراك غير مُرتب، لماذا؟ وكيف؟! استطاعَت كشف الأمر، المُدير مُحنّك الطباع يأبى أن يكشفه أحد دون "يحيى" عالم الجباه، أكانت شيطانًا يعدو أمامي؟ ثمَّ أخطأتُ عندما تصنّمَت؛ فلم تكن تلك عاداتي عن الثبات في أعتى المواقف وأشدها على النفس! تلك الفتاة اللعينة أطاحت بثوابتي ثم انصرفت تاركة إيَّاي للمُراقبة فقط، فهل أقتلها لفعلتها تلك؟ وحيد أجُننت؟ كفاك عبثًا انتهى موقف ليأتي آخر؛ فعلى كل حال قد اختفَت وانتهى الأمر، أنفاسٌ متضاربة "شهيق يليه زفير مُشبَّع بالخيبات"، وها أنا أُكمِل عملي حتى النهاية.

- وحيد، سيُخصَم منك مائة وخمسين جُنيهًا جرَّاء ما فعلت.

لم آبه لكلام المُدير؛ فلا أُريد فقط سوى انتهاء ذلك اليوم وعقبات جملة هذه الفتاة، وبالفعل لم أردّ، اكتفيت فقط بملامح الوجه الجامدة وسط ترقبات من أعين الجميع لأية ردة فعل قد تُلوّث علاقتي معه، ولكن أيُعطي وحيد ما يُريده البقية؟!

انصرفتُ بعدما اشتريتُ كوبًا من القهوة وأخذتُ كيسًا من السُكر الأبيض لأفتحه وآخذ منه فقط التسع حُبيبات، وكانت تلك كافية لصفاء ذهن رجلٍ عابث قد أصابه الضرر في راتبه، أخذتُ أضع الحبة تلو الأُخرى

وأنا أُبصِر كيفية انسجامهما مع السائل البُنيّ اللون، يا إلهي! ما أعظم تلك اللوحة! و أُقسِم أنَّها إن رُسِمَت لتخطَّت لوحات دافنشي البائسة، ومع هطول آخر حبَّات السكر داهمَتْني يدٌ بيضاء ذات أظافر مطلية باللون الأسود انتزعت كوب القهوة من بين قبضتي، وبيدها الأُخرى نقود لتقول:

- هذه مائة وخمسون جُنيهًا، وهذا الكوب مُنمّق المذاق لي.

كيف لمرءٍ أن يقهر وحيد مرتين؟! كيف لروح أن تُعاكس صلابة روحه؟ بل وتعبث بها؛ فهذا لم ولن يحدث مُطلقًا... هيهات يا وحيد! لقد حدث، إنَّها الفتاة صاحبة جملة الانحراف عن المُدير تقف أمامي واثقة الخُطى، بهية المطلع وعيناها تشع بالشرر، لا يرى ذلك سوى مَن ذاق دواخل النفس، تمد يديها نحوي بالنقود وهي ترتشف بشفتيها الورديتين من كوب القهوة خاصتي، وترتسم على وجهها مطلع الحُبيبات التسع، إنَّها تعي أهميتها وقدرها؛ فمن تكون؟!

- مَن أنتِ؟!

خرجت تلك الجملة من ريقٍ كالحجر، تم ازدراده حتى أفاق.

- محض فتاة شعرَت بأثر ما فعلت عليك، وكيف تسببت في اقتطاع أجرك؛ فأرادت التعويض.

- من أنتِ؟!

وهي ترتشف من كوب القهوة للمرة الثالثة ردَّت في غنج:

- يقولون علياء.

رجفة يليها تهجم وجمود، ماذا ألمَّ بي؟ متى وقع هذا الاسم على مسامعي؟!

هممتُ بالانصراف؛ فقد ضقتُ ذرعًا بتلك الفتاة، وتوجَّب عليَّ الخلاص ومحو ذكرى ذلك اليوم، وقُبيل مُغادرتي سمعتها تقول:

- إن لم تقبَل النقود كتعويض فالتَقِطْها كمكافأة على كوب من القهوة لم ولن أذوق مثله يومًا.

بعثَرَت النقود في وجهي و انصرفت هي، يا لتلك اللعينة! لم تُعطِني حقَّ الترك فسلبته أيضًا.

***

"ومن أخبرَك بمقصدك؟ نحن لن نحضر الجان يا عزيزي؛ فهذه مرحلة قد ولَّت، بل الآن سنحضر النفس، سنحضرك أنت والجميع!"

كانت تلك هي كلمات الكابوس الذي لازمَ مُختار الطبيب الشاب بمشفى نفسيّ عتيق وهو يتَّخذ الدّرَج سبيلًا إلى الحديقة؛ حيث يتسنّى للمرضى الحديث بعد إراحة عقولهم بالألوان الخضراء، وربَّما كان لزقزقة العصافير دورًا برَّاقًا، يبحث عن مُراده لعله يجده وسط الحشود، حتى يرَى شابًا منكفئًا على رُكبتيه يترقب رجلًا عجوزًا بأعين جاحظة؛ فيتوجس مُختار منه، لم يُقاطعه إنَّما أراد مُراقبته عن كثب واستنتاج طبيعة أفعاله؛ فيتسنى له معالجته، فلسوء الحظ لم يُفلِح في الظفر بخطوات نجاح حقيقية معه على عكس جميع الحالات السابقة، كان الفشل صديقه الودود الكريه للنفس، وتحتَّم عليه فعل الصواب، وسيُطبق قواعد ما درسه على أكمل وجه.

"الملاحظة" القاعدة الأولى للطبيب النفسي، كن مثل البوم صابرًا للحظة الانقضاض، يخشونك ولا ينتبهون لأمرك.

ما زالت عينا وحيد تسبح مع أمواج العجوز الذي يُمسِك بدمية صغيرة يُهدهدها متقوّلًا بألطف الكلمات، وبعد هُنيهةٍ من الوقت أتت القاعدة الثانية.

"الإشارة" وفحواها إبراز قُدرتك إلى الخصم مُشيرًا بإمكانية انقضَاضِك التام عليه، وبذلك تجد الريبة نحو نفسه سبيلًا؛ فتنكشف مداخله ليصير جاهزًا للخطوة الأخيرة "الانقضاض"!

- أتُراقِب العجوز لمعرفة سابقة أم أنَّك تستنبط منه غاية نحو الخروج من هنا؟!

أتى صوت مختار الثابت المفاجئ برسالة فحواها "لقد كشفتُك"، فما كان من وحيد مريضه الشاب سوى إكمال نظراته نحو العجوز دون أن يلتفت ولو بمُقلتيه فقط نحو مُحدثه؛ ليتساءل الآخر أستحين لحظة الانقضاض حقًا؟!

ثلاثة دقائق أُخرى كانت كافية لجلوس وحيد على أحد المقاعد تاركًا العجوز الهائم وإذعان ببدء جلسته النفسية الثالثة مع طبيبه المتأهب للظفر به، ينظر مُختار فيصنع لنفسه مقعدًا مُقاربًا من مريضه الذي يترقبه بأعين ثابتة دون أن ينطق ببنت شفة، حتَّى يكسر الطبيب الصمت:

- كيف حالك اليوم؟ قضيتَ معنا قُرابة الثلاثة أشهر ولم يُقنعك أحدٌ بالحديث.

- الشمس حارقة بالأعلى، أخشَى أن تهبط علينا فتقوم الساعة.

يزدرد الطبيب ريقه غير مُدرِك لما يقوله وحيد؛ فللساعة علامات لن تقوم حتَّى تتم!

يرفع وحيد رأسه إلى الأعلى متبرمًا:

- في غبشة الليل أفِق، قد انفلتت أولى حبّات عِقدِه، والنهاية قادمة.

لا يعي مُختار مقصد وحيد الهائم نحو السماء وفي قرارة نفسه أفكار تتضارب، "أمن المعقول أنَّ هذا الشاب مريضٌ نفسي بحق؟! كيف فقَدَ عقله وهو يتلو الكلمات كرئيس دولةٍ واثق الخُطى يعلم جيدًا بدايتها ومُنتهاها، كفى انبهارًا؛ فالآن يتحتم عليَّ خلق فُرصتي للانقضاض!".

- يقولون في ملفك بأنَّك فقَدتَ عقلك بناءً على شواهد عيان رأوك تجري بالقرب من بيتك عارٍ وتهرف بكلماتٍ لا معنى لها، المعلومات قليلة وغير كافية، ولكن أكانت نظراتك للرجل المسن منذ قليل كناية داخل قرارة نفسك عن ماضٍ تتذكره أو ذكرى جعلَت منك مذمومًا؟

تتبدل ملامح وحيد، ينعقد جبينه ويترك النظر نحو السماء جاحظًا العينين، حيث يقبع مُختار الذي يبتسم ظنًا منه بكونه على شفا حُفرة الانقضاض؛ ليُتم بذلك خطوات الطب النفسي الثلاث.

- هل يُراودك نفس الحلم يا دكتور؟!

تحطّمَت نظريات العلم وكبرياء مُختار بذلك الرد الذي لم يكن مُخيبًا لآماله فقط، بل ومعاتبًا له، كيف عَلِمَ بالأمر؟ ومن أين له تلك الثقة؟!

ينتفض الطبيب على مقعده، يضم ضلوعه بقوة ساعديه حتى يهصر قلبه وقد ضاقت أنفاسه.

- عن أي حلم تتحدث؟

يبتسم وحيد وهو ينظر إلى الشمس مرةً أُخرى، يرفع السبابة موَجّهًا إيَّاها نحوها قائلًا:

- أُشير إلى النهاية، والأحمق ينظر إلى أُصبَعي!

ما بين نظراتٍ متفرقة، يد وحيد وقرص الشمس الحارق، يقفز مختار منفرًا وقد اشرأب عنقه سخطًا بلسان حال "هذه المرة الثالثة التي يجعلني أمامه فأرًا صغيرًا لا حيلة لديّ؛ فبعد حديثه عن المنضدة والإخوة، ثم الحديث عن تحضير النفس الذي يتعدَّى جلسات الجان، والآن ما يتفوه به عن علامات الساعة، لا أقدر على اختراقه، لا أقدر حتى على الوصول إلى النقطة الثانية كما أخبرتني كُتب النفس، أضاع اجتهادي في العلم أمام مجنون فاقدٍ لعقله؟! ما الفائدة من خلق حديثٍ لا جدوى منه؟ ولن يرحمنِي أساتذتي إن فشلتُ هنا، حاربتُ لفعل الصواب، ولكن النجاح يتطلب قدرًا من التخلي، وها أنا أفعل!".

يُشير مختار إلى طاقم الممرضين بنحوٍ يعلَمُون نتيجته جيدًا؛ فيهرعون نحو وحيد، الذي وبُمجرد رؤيتهم ينتفض مذعورًا، ترتجف أطرافه ويصرخ، يُصعَق مختار ممَّا يحدث أمامه ويدخل في صراع النفس وهو يصرخ داخل قرارة نفسه:

"لماذا تفعل ذلك الآن؟ لمَ لا تُحافظ على ماهيتك أمام الجميع؟! فلا تُشعرني بالذنب!"

لا يعلم مُختار أهو ذنب وحيد بحق أم أنَّه الغضب وعار الفشل الذي يتذوّقه للمرة الأولى، مَن يلوم؟!

داخل غرفة مُخصّصة لأشد الحالات عنفوانًا وتحت صرخات من قبله يدخل وحيد الغرفة وهو يُقاوم بالضرب والصيحات، "الرحمة" كانت تلك الكلمة أكثر ما ردَّد، وكان الجواب هو الصمت.

يُجلسونه على الكُرسي، يشدون وثاقه، يُفعّلون الجهاز ويحسبون التردد المناسب لخلق الصاعقة لثوانٍ، الصاعقة التي ستمسّ العقل فتُهدّئه دون أن تقتل الجسد.

- لا أصدق، أحقًا ستفعلها؟!

ينظر مختار إلى مصدر الصوت؛ فيجده صديقه عامر ممتلئ الفم بساندوتش السُجق، وبقاياه بقبضة يده؛ فيكتفي بالصمت مُحوّلًا بصره نحو وحيد المذعور وهو يُحرّك نفسه يمينًا ويسارًا لعله يتملّص من قبضة الأقفال، يراه وهو يُريد الحراك مستغيثًا، فما الخطأ الذي فعله؟! لم يتشنّج ولم يتعرض بالأذى لأحد، أكان ذنبه مُراقبة عجوزٍ يلهو بالعروس؟ أم قدره الذي أوقعه أمام طبيبٍ عاجز الخُطى؟

أصوات تتضارب داخل عقل مختار؛ فقد يحلّ وثاقه الآن ويتخلّص من عثرة الذنب، ولكن كلمات قادمة غيّرت مُنحنيات الأمر، بصوته المكتوم جرَّاء هضمه للطعام يقول عامر:

- الآن ستتخلص من فشلك وسيرضى عنك كبير الأطباء.

"الفشل" فوبيا متمثلة في كلمة تُراود الجميع، الناجح لا يود تجربة الفشل، والفاشل يخشى الغوص داخل دائرة مُغلقة من الخيبات، الطالب والمُدرس، الطبيب والصيدلي، المحامي والقاضي، الشعب والرئيس، وهل يفشل الرئيس؟!

- اااه.

آهات لم تكتمل لتدافع شُحنات الكهرباء، فالثواني بمرورها تصير سنوات والألم لا يُطاق، عشر ثوانٍ كاملة كانت كافية لإرضاء سخط مختار وغرور صديقه المتحفّز لرؤية النتيجة، وبعد انقطاعها يقترب مختار من وحيد وهو يُبصر جسده الآخذ في الأفول؛ ليسأله:

- أتُريد جرعة ثانية أم سينتهي جنونك الآن؟

بوجهٍ شاحب كئيب المطلع يرفعُ وحيد رأسه لتلتقِي أعينه بنظيرتيه العائدتين إلى مختار، وهو يُشير بهما ليقترب منه وسط اندهاش الجميع،

يتجمد مُختار محله لا يدري أيقترب فيُصيبه مكروه أم يقف محله؟ لكنه وفي الأخير يفعل، ليسمع كلماتٍ تُصيبه بالشلل للحظات، كلماتٌ فحواها:

- أنا من قتلتها.

.***

- انتبه يا وحيد؛ فلا نُريد كسر المزيد من الحاجيات.

ما زال المُدير ينبح مثل الكلاب اللاهثة على عظمة متمثّلة في جسد سيدة حسناء يترقبها رواحًا وجيئة، ومُذكّرني بما اقترفت ذلك اليوم كأنَّه يأبَى أن يُمحَى من ذاكرتي، وها قد وصل يحيى أخيرًا، فكأنَّما غاب دهرًا! لم يختلف الروتين كثيرًا؛ فها أنا قابعٌ على حاجيات العملاء أُدخِلهم تباعًا، قد تُفكر في البحث عنها وسط هؤلاء، لكنني لم أبحث ولن أفعل؛ فلن تهزّ روحٌ خلقها الله أعمدةَ كبريائي وجمودي الأعظم.

يقترب الصديق مني وهو يسعلُ متتاليًا وعلى وجهه أمارات الإعياء؛ فأحدثه مشفقًا:

- ماذا ألمَّ بك؟

- أسرفت فقط في شرب السجائر المحشية بالأمس.

لم أكن أدري بأنَّ نفسًا بتلك الخصال تهوى "الحشيش"، ولم أُعقِّب؛ فمبدأ الحرية الأسمى يقتضي بالصمت عن المنكرات و إنكار المحاسن!

- أرى في جبهتك حيرةً وجفاء، ماذا حدث؟

يا لك من رجل يا يحيى تستحق الدخول في موسوعة العباقرة بحق:

- القليل من الخسارة التي تم تعويضها، ولا شيء أكثر.

يُزمجر الصديق كأنَّه مرتابٌ في أمري، لكنه وبسبب سُعاله المتزايد يضطر للاستئذان من أجل شراء شراب قد يُعينه على إكمال العمل، بل قل الحياة!

ساعاتٌ أخرى من العمل، وبرد الشتاء لا يعمل اليوم؛ فعدد العملاء في تزايد، أحدَثَت زيادة أُخرى في الأسعار يا تُرى فأتوا للتخزين؟ أم ستحل كارثة كما اعتدنا عمَّا قريب؟!

وبينما أُمرّر حاجياتاهم على الماسح الضوئي سمعتُ صوتًا أتبينه ولو ببُعد ألف ميل، صوتًا لم يدُم تعاملي معه سوى يومٍ واحدٍ فقط؛ فظلَّ أثره في النفس عظيم، التفتُّ إلى مصدره لعلي أراها؛ فلم أُبصِر سوى الفراغ؛ فتوقف عقلي بُرهةً من الوقت ريثما يستعيد ما حلَّ به، ويفيق على صوت رجلٍ أهوجٍ يُنكِر التأخير ويبغي الانتهاء مسرعًا من مشترياته؛ ففعلت بوجهٍ جامدٍ حاد الطبع استنكره هو ولم آبه له أنا، جُلَّ ما دار بعقلي فحواه:

" هذا صوت علياء!! "

انتصف الليل وآن ميعاد الانصراف، وبينما يفرغ الهايبر من العملاء ونستعد جميعًا لتقفيل اليوم مع المُدير، ويحيى بجانبي يحثني على التسكع في ظلمات الشتاء بعد الانتهاء، ولكم وددتُ ذلك! شعرتُ بخطوات ثابتة من خلفي تلمزني أعلى كتفاي؛ فاستدرت لأرَى صاحب تلك الفعلة الحمقاء لأتجمد مكاني دون حراك، فقَدَ لساني القُدرة على البوحِ بالكلمات، وبجانبي يحيى قد انتبه لحالي، أو بالأحرى جبهتي المتجعدة وتلك الخيوط التي وحتمًا سيُترجِم بها حالي، ولم أكترث! أحقًّا لم أكترث؟ نعم؛ فمن تقف أمامي هي فتاة الأمس.. هي علياء.

- كيف حالك يا وحيد؟

ارتباكٌ، ثم صوتٌ خافت يقول:

- بخير، و أنـ.. أنتِ؟

- لم يغِب عن خاطري مذاق قهوة الأمس، فهل ستُخبرني بالسر هنا أم أنتظرك بالخارج؟

في ظاهر الأمر تُعطيني خيارًا، وفي باطنه تعلم بأنني سأُريد مُلاقاتها، سأرضخ مُجددًا، فلماذا لا أنفر من قراءتها لي؟ أهذا أنا بحق!

- سألقاكِ بالخارج إذًا.

ابتسمَت لأول مرة، ثم غادرت دون حديث تاركة إيَّاي مُلتاع الهوى وضائق النفس.

- هذه الفتاة خطيرة يا وحيد.

كلمات يحيى كانت كافية لإخراج عقلي مؤقتًا من ثُباته، أو بالأحرى إيقاظي لأرد قائلًا:

- ماذا تقصد وكيف عرفت؟

- جبهتها لم تُعطنِي أي عنوان عن مكنونها، وهذا هو الخطر بعينه.

ضحكتُ مازحًا، داخل قرارة نفسي أقول:

"أصارَ تصنيف البشر إليك يا يحيى بحسب جباههم فإن لم تستطع صاروا أشرارًا؟!"

أردف الصديق قائلًا:

- هذه أول مرة أراك تكشف عن أسنانك حتَّى، صدِّقني هذه الفتاة مصدر إزعاج كبير، كيف التقيتَ بها ولماذا لا أعلم؟

- بالأمس، وسأتلو عليك القصة كاملة.

كانت الدقائق كفيلة لشرح ما حدث، ووسط ذهول الصديق أصرَّ على موقفه، وفي حقيقة الأمر لم يفشل يحيى أبدًا في قراءة جباه أحدهم، فلماذا حدث ذلك اليوم؟ هل هذه الـ"علياء" لعنة تتوقف عندها جميع قوانا؟!

استأذنتُ من يحيى ألَّا نخرج اليوم لمُلاقاتها بالخارج، مع قطع وعدٍ بعدم التخلِّي عن الحذر، بل والفراق سريعًا، وقد رضخ مُتأفِّفًا، لأخرج رفقته، فنراها تجلس على إحدى العربات الحديثة، ومع قُربنا منها ترجّلَت وهي تُمسِك مفتاحًا تُدخله في تلك السيارة.

غادر يحيى مسرعًا دون أن يُلقِي السلام، لأقف أمام الفتاة القصيرة عاجزًا عن بدء الحديث؛ فأشارت إليَّ بالولوج إلى السيارة عبر الباب المُجاور؛ فتذكرت حينها السيدة وأطفالها في المواصلات من المنصورة إلى القاهرة، وبدا على وجهي الريبة، ماذا يحدث لي؟! لأسمع صوتها تقول:

- يبدو أنَّني لم أرق لك.

دخلت السيارة ولم أرد، اكتفيتُ فقط بصوت دقَّات قلبي المضطرب والانتباه للطريق.

انطلقَت علياء مُمسكة دفَّة القيادة كما اعتادت، تجوب الطرقات والصمت حليفٌ لنا، لا أسألها عن وجهتنا ولا تُحدثني عمَّا تُريد، أجواء من الوحشة رُبَّما! أم هي أُلفة لا ضير منها ولا ضرار؟ اخترقتُ الصمت قائلًا:

- ألا تُريدين معرفة السر؟

نظرت إليَّ، ثم أردفت:

- لا أعلم كيف صرنا سويًا الآن، منذ أن رأيتُك ووقعت عيناي عليك لمحتُ بداخلك كيانًا لم أقدر على الفرار منه، انجذاب خفي يُخبرني بكونك مُميزًا دون غيرك.

توقّفَت الدماء في عروقي، فكيف لها أن تلفظ تلك العبارات بمثل هذه البساطة؟! ألا تخشاني بحق؟! ألا تُدرِك كوني مختلفًا عن سائر البشر وقد أُطيح بها الآن؟! من تكون هذه اللعينة؟! سأُنهي هذا الارتياب و أنصرف؛ فقد سئمت ذلك الشعور المقيت، شهيقٌ يتلوه زفيرٌ مُطوّل وها أنا على أتمِّ الاستعداد لتركها:

- علياء، سأ.....

قاطعتني بنظراتها الذابلة ووجنتيها الحمراوتين، وهي تقول وقد بدت آثار الدموع جلية على صوتها:

- لم أحصل على شيءٍ واحدٍ ممَّا أردت، الحياة دائمًا ما أظهرت لي وجهها القبيح؛ فقدان الثقة و انعدام الأمان، لا تسألني لمَ أُخبرك؟ رُبَّما كنت شخصًا مألوفًا وعابرًا كما يقولون نلقاه على غفلة فنُخبره بما نُريد ثم يرحل للأبد.

استدرتُ ناحية الطريق مرةً أُخرى مُلتهب المشاعر مُستاء المطلع، بداخلي صوت يتردد غير قادرٍ على كبحه.. "لا لن أرحل أبدًا".

كلمات علياء أيقظَت عقلي وأشعلت شرارته، تذَكُّر تلك العبارات لهو أمرٌ مقيت، هي لا تعلم الحقيقة ولا تُدرِك ماذا عانيت، لماذا وكيف يتقول الجميع عليَّ بتلك الأُلفة؟ أصارت الحماقة داء العصر؟!

لم أرُدّ، إنَّما اكتفيت بالصمت و أنا أرى وجنتيها تستزيد من حُمرتها كشمسٍ قُبيل غروبها، حتى توقّفَت على أحد أرصفة المعادي الساكنة التي لا تسمع فيها أنفاسًا لروحٍ واحدة في هذا البرد القارس.

ما زال الصمتُ حليفًا وما زالت تستزيد من تلك العبارات، وتختمها بسؤالٍ عجيب، هل أنت من الجان؟ أدرتُ وجهي متفحصًا سيارتها المزدانة بالحاجيات الثمينة، يبدو أنَّها مُرفهة العيش، ولكم عشقتُ تحليل طبيعة الشخص قبل التعامل معه، حتى وقعت عيناي على ثلاثة من الكتب، دقّقتُ النظر تجاهها لأقرأ عنوانها بصوتٍ تسمعه هي.. "إرث من الجان"؛ فالتفَفْتُ بوجهي ناحيتها منفرًا:

- الآن فهمت، أتقرئين أدب الرعب؟! يا لها من مضيعة للوقت، فلم أتطرّق إلى هذا النوع من الأدب منذ سلسلة العرَّاب رحمه الله "ما وراء الطبيعة".

بدا على وجهها الجمود للحظات، ثم أردفَت:

- هل تقرأ الروايات يا وحيد؟!

حرَّكت يديها نحو إحدى الروايات الثلاث، ولمحتُ عنوان "قصر شمهروش"، صارت تمسح بكفّها على الغُلاف، ثمَّ قربته من أنفها الدقيقة وهي تشم رائحته فتُصدر صوتًا ينم عن عشقٍ مكنون، نظرَت إلى الأعلى وقالت بصوتٍ خافت:

- عذرًا يا صديقي "سعفان"، لا يعلم ذلك الـ"وحيد" ماذا ألمَّ بك.

يا لعقل الفتيات! وما هذا الاسم العجيب؟! لم تتغير نظرتي مُطلقًا لكُتَّاب الرعب، وتيقّنت بعد سماع علياء وهي تتغنى باسم بطلٍ ينمّ عن حماقة له ولكاتبه، نظرتُ عبر النافذة قائلًا:

- توسمت فيكِ العقل وها أنتِ تتغنين بكتابٍ يتحدث عن الجان!

العجيب في الأمر أنني وبعد تلك الكلمات المُهاجمة لم أرَ في عينيها ضيقًا أو تبرمًا، إنمَّا عنفوانًا من المشاعر وفيضًا من حنين، ما الذي يقبع خلف غلاف هذا العمل يترك بداخلها ذاك الأثر؟ رُبَّما أخطأتُ في

انجذابي لها، وبدأت علامات الفرار تتأصل في قرارة نفسي؛ فهي كالبقية، حتى سمعتها تقول:

- أحَبَّ سعفان أمنية بصدق، ولهذا قُتِلَ ألف مرة.

أعلم جيدًا علامات الرهبة ودقّات ذلك القلب تيمّنًا بظهور الخيط الأسود الذي بدأ يتشكل الآن، أُحرك يدي مانعًا إيَّاه بغير مُلاحظة من تلك الفتاة ولكن لا سبيل للنجاة، عقلي يُخبرني بمنعها من إكمال الحديث، والقلب يتوق إلى مُعايشة ذلك الشعور، وها هو يبدأ...

- قد يكون عالم الجان محض خُرافات، ولكن العشق قائمٌ بذاته أكان عبر سعفان أو غيره، تلك الغُرفة المظلمة والفراش، فلربما تشابهت قصصي أنا معه، ولربما كنت أنت مثله.

ارتجفَت أطراف أصابعي وامتقع وجهي لاعنًا تحدُّثي عمَّا تقرأه، لماذا لم أصمت وما الذي سيحدث الآن؟! سأنهرها ثم أرحل، سأصيح بوجهها أو أُسدد لها لكمة تُجبرها على الصمت أبد الأبدين، هيا يا وحيد فلتفعل.. سمعتُ صوتها مُجددًا وهي تستفيض في الشرح عن ذلك الـ"سعفان" وأمنيته، حبيبته، كم كانت علياء مُوفقة في طرحها للأمر، بل وإصابة كبد الحقيقة، ما هذه الأبعاد ومن أين لها التعايش مع تلك السطور؟ الخيط الأسود يستزيد، بل قد تشكَّل بالفعل والكائن المزدان بالسواد على مشارف الحضور، اصمتِي يا حمقاء.. اصمتي فلا أريد المزيد، اكتفيتُ منه ولا أُحبذ رؤيته، أرجوكِ توقّفي، ما بين كبحي والشوق أمسكَت علياء بكتفي؛ فتجمدتُ متسائلًا، "ما الذي يحدث!"، وضعَت وجهها مُباشرةً أمام مُقلتي وهي تقول بصوتٍ أشبه بالصياح:

- ألم يحدث ذلك معك أيضًا يا من تنعتني بالحمقاء في سرائرك؟

الكائن ها أنا أراه، لا أُميزه، فقط أستحسُّ شرارته من خلفها تُلهِب الجسد وتُصلِّب شرايين الدماء، كلماتٌ خافتة تخرج عبر الشفاه بغير عقلٍ أو تحكم فحواها:

- نعم، لقد حدث!

***

كلية التجارة، جامعة المنصورة...

ما زلتُ اتذكر ذلك البنك الافتراضي وكيف كانت جامعتنا الحبيبة صاحبة السبق في نشأته، لم أُحب التعليم يومًا وخصيصًا في الجامعة، ولكم مقتُّ هذا القانون الذي يُتيح لدكتور الجامعة بأن يكون كالإله في موضعه يُهين الطالب، بل ويقدر على جعله راسبًا أبد الدهر وقتما لم يرُق له، ولا قانون لردعه؛ فقد خُلِقَ القانون للتسلط فقط، وكاذبٌ من يتفوه بغير ذلك، والأمثلة مُتعددة؛ فهذا صديق يشكو ظُلمًا وبهتانًا من رجلٍ كينونته "دكتور جامعي" وأصله حيوان سادي يتلذذ بإهانة القوم تحت مُسمى "القانون"! وآخر يلعن فكرة التظلم وماهيتها؛ فهل قام بدفع أموالٍ من أجل مُراجعة جمع درجاته عوضًا عن فحص ورقته ورؤية خطأ رجلٍ وليس إلهًا لعله ينجح بدرجة أو اثنتين! لا أُنكِر سلامة القوى العقلية لبعضهم وأصلهم طيب المنشأ، ولكن ماذا يفعل هؤلاء وسط غابة البقية والجمع؟ لنرجع إلى أصل الحوار وذاك البنك الافتراضي الذي أنشأته كُليتي "تجارة المنصورة" وكان لها السبق، وخلاله تم تدريبنا على المُعاملات البنكية والبورصة أيضًا، وفي حقيقة الأمر كنتُ أقضي وقتًا مُمتعًا رغمًا عن تيقني من عدم العمل بتلك الوظائف التي ترفضها مبادئي دينيًا ودُنيويًا، كنتُ حينها بالفرقة الرابعة النهائية قُبيل التخرج، وبرغم قلة الأموال و افتقاري للهندام المُنمّق ونظارة الشمس الفارهة طغَت شخصيتي على الجميع؛ فهابني الكبير قبل الصغير، رئيس الاتحاد

وأمين الأُسر، كنتُ قائدًا بلا أتباع، فقط أحببتُ صومعتي وعشقني الجميع لتفردي، حتى الإناث؛ فقد سمعت عن حديثهن حولي وكيف يتسابقن للظفر بي فقط لإخضاع ذلك الكِبَر، رُبَّما لم أكن بهذا الوجه القبيح حقًا، حتَّى جاء يومٌ وقفَت فيه أمامي فتاة متوسطة الطول تمتلك مُقومات الأُنثى كما يقول الكتاب؛ من نعومة الصوت وبروز الجسد، فما ترتديه يفعل ذلك على أكمل وجه، وبمُناسبة الوجه فلم تكن فاتنة، لكنَّها وبفعل المساحيق صارت مُلفتة وجُرأتها كانت الأساس لما هو قادم، وقفَت أمامي واضعة عينيها البُنيتين أمامي بثبات لتقول:

- هل لي بالحديث معك ولو قليلًا؟ فأنت القادر على تخليصي من ذلك المأزق.

الغنج الذي تمتلكه هذه الفتاة قادرٌ على الإطاحة بأعتَى الرجال، ولكن وحيد لا يُحرِّك له ذلك ساكنًا.

- تفضلي بالطبع.

- لك صديق بفرقتك يبتزّني بصورٍ أرسلتُها إليه، أعلم بأنَّني مُخطئة، ولكن إن فعلها فقد يقتلني أبواي.

بصوتٍ يملأه التعجب من جُرأتها والخوف:

- من يكون؟!

أخبرتني حينها باسم صديقي وما فعله معها، وكيف كانت تُبادله مشاعر أتاحت زرع الثقة وإرسال تلك الصور التي يندَى لها الجبين، وها هو يفعل بها الأفاعيل، قد لا ينجذب وحيد إلى المفاتن، لكنه وحتمًا يتوق إلى من يُذيقه أبعاد النفس! وجُرأة هذه الفتاة كانت كافية لذلك الكأس الذي سأتذوّقه، وفي الحال ناقشتُ صديقي واحتدم الأمر بيننا مُجبرًا إيَّاه

على مسح الصور عن بكرة أبيها، لدرجة الشك في أسبابي مُعتقدًا كوني على علاقة معها، ثم أنهى حديثه بعبارة:

"ابتعد عنها يا وحيد؛ فهذه الفتاة "شمال" تعبث مع الجميع"

لا أدري كيف يُصنف جماعة "الفيمينست" الفتاة التي تتجاوب مع هذا وذاك وتقطن في أحضان الجميع، لكنني أعلم جيدًا ما هو تصنيفها للعامة، والعجيب في الأمر تصنيفها إليَّ، أرسلتُ إليها الخبر وبدأت مُحادثة من نوعٍ آخر..

- لقد انتهى الأمر وأجبرته على مسح الصور.

- لا أصدق، أنت بالفعل رجلٌ شهم ،يا ليتني قابلتك قبل كل شيء.

- شاكرٌ لك.

دقيقة من الصمت، ثم رسالة أُخرى:

- أُريد مُقابلتك.

- لماذا؟!

أوضحَت حينها بكوني مختلفًا؛ قد سمعَت عني الكثير عبر أفواه الفتيات التي لا تنضب، وبحنكة المتلهفة أجزمَت كوني سأمتثل لها.

ذلك الخيط الأسود يتكون مُجددًا، ويستزيد كُلَّما أطالت هذه الفتاة في الحديث، فهل سأتقبلها رغمًا عن كل ذلك فقط لإشباع مذاق "النفس" الخاص بي؟ أبعد طيلة ذلك الوقت سأقع هنا؟! وبالفعل تمَّ الأمر وقابلتها، ولكم كنت متشوقًا لرؤية جُرأتها، وهي لي أنا فقط.

شهران مرّا على ارتحالي معها عبر أبواب النفس، الجُرأة، تسلطاتي وحكمتها، لم أكترِث لأقاويل الأصدقاء، بل وكافة الأرواح في الكُلية عن قلة شأني، والبعض وصف الأمر بكلمة "ديوث"؛ فكيف يرتبط بفتاة ما زالت

تتطلع إلى الغير؟ كيفية إخضاعي عبرها ونظراتهم ونحن معًا في تدريب البنك اللعين، كانت وسيلتي للبقاء معها أطول فترة مُمكنة؛ فقد كانت بالفرقة الثالثة؛ أي تصغرني بسنةٍ واحدة وتُعاملني كطفلٍ صغير، لم يقدِر أحد على فعلها، ولكن جُرأتها سمحت بذلك.

"وحيد أنت لي وحدي، أنت مأمني يا صغيري"! كيف يجتمع الأمران الأمان والصغر و أيضًا ضمير الياء، تحمّلتُ كل ذلك ظنًا بتوبتها وكرمان ذاك الخيط الأسود الذي لا يتشكل سوى بوجودها، والكائن يُقارب على الظهور رويدًا رويدًا، تبًا للماضي وللطباع، تبًا للإثم القديم؛ فما يُهمني هو وجودها وتلك الأبعاد التي تُحققها لي أنا فقط.

لم أكن، وعلى عكس اعتقاد الجمع بكوني مفتونًا بها، وكما الآخرين أريد تجربة جسدها خلال قبلةٍ أو عناق، ولربما تعمّقت، ولكن لم يروا ما تملكه من تأثير، حتَّى جاء ذلك اليوم...

بعد الانتهاء من التدريب الذي اعتادَت التغيب عنه مؤخرًا، وصدقًا لم أكترث؛ ففي الأخير سأُحادثها على الهاتف ويكفيني ذلك الأمر، أنا أطمح للحديث لا للوجه والغنج، وردَتْني رسالة من صديقٍ لي بصورةٍ له وهو يحتضن حبيبتي! صورةٌ أُخرى وهو يبُادلها القبلات ،وأُخريات مفادها الاختراق والتوغل، وبالأسفل عبارة مفادها:

"أعلم بأنَّ الأمر قبيح، لكنني أردت أن أزيح الغمامة عن عينيك وترى حقيقة تلك الشيطان".

لا أعلم هل هي الشيطان أم أنت؟! أنُساعد بفعل المعاصي أم ينبغي الشُكر لإنقاذ صديقٍ غافلٍ كان أُلعوبة لفاجرة! أقسم بأنني اقتربتُ حينها من رؤية الكائن الأسود، ولكن فليذهب إلى الجحيم، وهذا الخيط سأقتطعه حتى الممات، لم أعي سوى بكوني أُهاتفها طالبًا مقابلتها، ولم تتردد هي قائلة:

"سأو افيك في الحال يا صغيري".

قابلتُها في معزلٍ عن البشر، ولم آخذ الكثير من الوقت للمُصارحة و إبراز الصور نحوها قائلًا:

- أتعبثين معي؟! لن يتغير طبع فتاة أرادت الوحل.

انقلب وجهها، وعلى غرار المتوقع كان ردها جريئًا كأخلاقها:

- صادَقْتَني و أنت تعلم جيدًا ما فعلت، فلماذا تلك الدهشة؟ حاولتُ التقرب منك ومساس جسدك، الشعور بأطراف أصابعك وهي تُداعبني، الشعور بالأمان بقربك والتملّص من الخوف الذي أشعر به كُلَّما رافقتُك؛ فلم أُفلِح، أنت مريض يا وحيد بالنفس، و أنت الوحيد الذي أخافه بحق؛ فكيف لي أن أُعامل رجلًا لا يشعر؟ بل ويُجبرني على المو افقة على أوامره دون درايةٍ مني، أنت مختلف ومُريب.

كانت نشاذ بحق، أُهاجم أخلاقها فتردّ بمثل تلك التُرهات، نعم.. قد ذكرتني بجماعة "بعيدًا عن الدين"، وكأنَّما صارت الإنسانية في منأى عن الأخلاق!

- سأقتلك.

لن أنسَ ابتسامتها الصفراء وأسنانها التي لا تختلف في اللون، ثم صوت ضحكتها المفتعل وهي تصك صدرها مندّدة:

- صغيري يُريد قتلي، هذه نُكتة القرن.

"صغيري يُريد قتلي، هذه نُكتة القرن"

"صغيري يُريد قتلي، هذه نُكتة القرن"

أفقتُ على صوت علياء المرتعد:

- لقد وصلنا إلى بيتك يا وحيد، آسفة على ما مررت به، لقد ارتجَفَ جسدي بحق، لم أشعر بتلك الاهتزازة قبلًا، ولم تكذب الفتاة عندما قالت بأنَّك مُختلف، أنت بحق لك قدرة الجذب وقتمَا شِئت.

جسدي يحترق والقلب يتسارع مع عثرات الطريق أيَّهم يُسرِع للوصول أولًا؟ ولا أُصدق كوني كنتُ مغيبًا طيلة ذلك الوقت أحكي ما مررتُ به سابقًا، لماذا وكيف تحمّلَت علياء عبء الاستماع ولم أقدر سوى على مواراة أنظاري؟! فأُقسِم بأنني أرى صورة الكائن تتشكّل خلفها، وملامحُه الأولية تبدأ في الظهور، وبصوتٍ خافت قلت:

- ألا تُريدين معرفة سطر النهاية؟!

أمسكَت بعجلة القيادة، ثم أدارت مُفتاح سيارتها:

- أشعر بأنَّ السطر قادرٌ على الإطاحة بي، وصدقًا لا أُريد خسارتك اليوم، سأُلاقيك مُجددًا.

هدأت دقَّات قلبي، فكأنَّما أزاحت علياء بتلك العبارة حِمْلَ بعير إخوة يوسف عن كاهلي، وقبل نزولي طلبتُ أمرًا لا أعلم أهو للقراءة بحق أم لفتح مجالٍ آخر مع تلك الـ"علياء":

- هل لي باستعارة تلك الثُلاثية على أن أردها إليك قريبًا؟

ابتسمَت دون أن تلتفت إليَّ، ثم أخرجت زُجاجة من العطر وقامت برشّ رذاذها على الأغلفة الثلاثة لتقول:

- حتى تتذكرني حين تقرأها وتشعر بما شعرت به، وداعًا يا صديقي.

أخذتُ الكتب المزدانة برائحتها، وأيضًا رقم جوالها، ثم انطلقت إلى الأعلى لأخوض حربًا جديدة مع شقتي الملعونة.

حمدًا لله على نعمة الليل والشتاء؛ فلن تقبع العجوز الآن والأمر لا يحتمل كلماتها الغامضة، أخذتُ الدرج دربًا إلى أن وقفتُ أمام باب الشقة التي من المفترض أن تكون وسيلة أمان يلجأ إليها المرء بعد يومٍ عصيب، ولكن معي الأمر دائمًا ما يكون مختلفًا، بيتٌ من الرعب الخالص والموت داخل أروقته هو ما أنتظره كل ليلة، تردّدتُ لحظات ثم دخلتُ متوجسًا، مقتنيات الردهة تظهر كالشبح على ضوءٍ خافتٍ قادمٍ من الممر، أغلقتُ الباب من خلفي وضغطتُ مفتاح الإنارة وكانت الفاجعة، لا يعمل! كررتُ المحاولة دون جدوى، فهل أُعاقَب من قِبَلِه على التحدث مع تلك الغريبة؟! يبدو أنَّ الكهرباء مقطوعة، ولأصل إلى الشموع ينبغي عليَّ اتِّخاذ الطريق عبر الغرفة يليها الدهليز نهايةً بغُرفتي، وكل ذلك على ضوء كشَّاف الهاتف، ثوانٍ من العذاب تنتظرني.

على ضوء الهاتف ألقيتُ نظرةً خاطفة على الردهة لأرى الحطب وقد اختلَّ تراصّه قليلًا، الطاولة وتعتليها زُجاجة الخمر تقف شامخة بلسان حال "ثلاثة رشفات تُعادل تقبيل خمسين فتاة"! وقد صدقَت.

اقتربت من الطاولة لأتفحصها؛ فذكرى الأمس ما زالت تؤرقني وإن لم أتذكر فحواها، ومع قُربِي منها سمعتُ صوت اهتزاز آثار الرعشة في جسدي؛ فحوّلتُ ضوء الهاتف نحو مصدره لأجده الكُرسي يعلو وينخفض كمن يُجالس أحدهم دون أن أراه! عقارب الساعة صارت مثل تحذيرات إشارة القطار، فما الذي يحدث هنا؟! أحقًا الدهليز هو الخوف! لأسمع صوتًا منفرًا قادمًا من الغرفة المُطلة على الردهة، الغرفة التي قمتُ بغلقها إلى الأبد، نظرتُ إلى الكتب الثلاثة مازحًا بطُغيان تأثيرهم، وفي حقيقة الأمر كانت محاولة بائسة لنسيان ما حدث، بل وإضافة صبغة من الهزل تُجبر دقَّات القلب على الخفوت، توجّهتُ سريعًا نحو الدهليز لتبدأ رحلة أُخرى من الشقاء، قدمٌ تلو الأخرى تخطو داخله، والطنين يبدأ بعد الحركة الثالثة.. "وحيد، ابتعد عن الزواحف، إن

اقتربتَ ستنهشُ عظامَك كما فعلت بأبويك، ابتعد وغادر"، من أين مصدر هذه الهمسات؟! وكيف أتملص منها؟! و أنا بنصف الطريق لا أقدر على الرجوع نحو الرُّدهة ولا أقدر على المُضي فتغمرني الزواحف، رُبَّما ثعبانٌ أسود يقف خلف الباب مترقبًا أو عقرب يُشهِر لدغته، جلستُ القرفصاء مُطيحًا بالكتب الثلاثة، فما أفكر به الآن هو القبر وظلمته، يؤسفني دخوله قبل تتمة الثلاثين عامًا، فيا لي من تَعِس! وهنا وقعت عيناي على جملة بإحدى الأغلفة المُلقاة تقول:

"لا تتوقع ما سيحدث؛ فمهما عظم توقعك ستجد الحقيقة شيئًا مُغايرًا تمامًا".

تخبطات تعصف ورجفة تكبح جماح الهمسات، عقلي يأبى الخضوع وسأصل إلى غُرفتي مهما كلفني الأمر، استجمعتُ قواي جامعًا الكتب متجهًا نحو الغرفة بخطى ثابتة، حتى وصلت لأجد بابها مفتوحًا على مصراعيه، ولم أكترِث للأخرى المجاورة، ولجتُ إليها باحثًا عن الشموع لأتذكر كونها ما زالت قابعة في الدولاب، فتحته مُسرعًا لآخُذَ شمعة واحدة و أقرأ على نورها؛ فلن أُطيل انتظار علياء، ولن أصبر على رؤيتها مُجددًا؛ فالرواية سبيلي للتلاقي، قُبيل مسك طرفيه للكشف عمَّا يقتنيه سمعتُ من داخله صوت أنينٍ يندى له الجبين، لم أُصدق؛ فما حدث بالخارج يكفي، ولا زواحف بتلك الغرفة، هذا كلام أبواي والصدق لهما رفيق، لم أُمهِل عقلي للتفكير؛ فقمتُ بفتحه، وبعد تسليط ضوء الكشَّاف نحوه صُعقت لمشهدٍ أطاح بجسدي إلى الخلف مستلقيًا على الفراش..

"قطةٌ أُخرى ميتةٌ بالداخل"

***

يومٌ عصيبٌ على كُلية التجارة، جامعة المنصورة...

مجموعة مؤلفة من سبعة أشخاص بالفرقة الثالثة يقبعون في حُجرةٍ سُفلية للاستماع إلى أقوالهم بخصوص بعض النشاطات الأُسرية وأزمة اتحَّاد الطُلَّاب، وها هم يدخلون تباعًا إلى حجرةٍ أُخرى حيث يجلس دكتور مُراد الذي يُدرِّس مادة المُحاسبة، وبالرغم من عدم أهليته للمكوث هنا فيكفي التحقيق وجود فرد من شئون الطُلَّاب، لكنه وبصفته وكيل الكُلية وقرابته أيضًا بأحد أفراد الأمن الثِقال جعلَت من الأقفال محض أتربة؛ فكل شيءٍ له مُباح، وكان معروفًا وسط الجامعة بتلذذه بجلد طلبته معنويًا، ولا يعلمون أهي ميولٌ سادية أم أنَّ أحدًا تحرش به قبل أن يبلغ بعد!

دخل مُعاذ الحُجرة وهو يرتجف لكونه من طبقةٍ متوسطة الحال تعتمد عليه والدته ليتخرج قريبًا؛ فيعمل ويجني لهم الثمار بعد شلل والده النصفي، وذاك المعاش الساذج الذي قد يقضي قوت يوم قردةٍ مؤلفة من ثلاثة أفراد، فكيف الحال بالبشر؟! أصَدقَ داروين في تنبؤه بماضي البشر وأصلهم؟ أكانت نظريته تعتمد على معاش والد مُعاذ؟!

- ما اسمك؟

يخرج ذلك السؤال بنبرةٍ هادئة من فرد شئون الطُلَّاب بعدما فتح دفتره وبدأ في كتابة التحقيق.

- مُ.. مُعاذ نجم الدين.

- في أي فرقةٍ أنت؟

- الثالثة يا سيدي.

- لماذا قمتُم بإرسال خطاب إلى رئاسة الجامعة بالتزوير في هضم حقكم للترشح لمنصب الاتحاد متجاوزين بذلك وكالة كُليتكم؟

بصوتٍ مُرتجف وتحت أعين دكتور مُراد المحدقة بالفتى يقول الطالب:

- لم يحدث، ذهبنا إلى دكتور مُراد أولًا لإعلامنا بسبب شطب أسامينا من الترشح رغم كوننا الأحق، ولم يُجِب علينا متجاهلًا، سعَيْنا إليه فلم نجد سبيلًا سوى وكالة الجامعة، لم نُخطِئ في البحث عن حقنا.

حالة من الصمت تُسيطر على المُحقق الذي يرى السبب مُقنعًا، وقبل أن يخُطّ بقلمه الحبر على السطور تمنعه يد الدكتور مُراد والشرر يلفظ من عينيه قائلًا:

- أتتقوّل عليَّ أيها الجرذ؟

يندهش المُحقق من أسلوب الدكتور، ولكنه يعلم قدْرَه وما هو قادرٌ على فعله إن تدخل، وبالطبع لم يكن مُعاذ أحسن حالًا منه؛ فكيف سيرد على الإهانة سوى بالرضوخ.

كيف تحدَّى مجموعة من الطلبة الدكتور؟ وكيف طالبوا بحقوقهم من الأصل؟! في ظاهر الأمر صواب وباطنه الويلات؛ فالحكم قد نفذ بالهلاك على من اعتقدوا في أنفسهم أرواحًا مُكرّمة يمتلكون الحق والسعي.

- سنتخذ إجراءات فصلك من الكلية.

قضَت كلمات مُراد على أحلام الفتى مُذكّرًا إيَّاه بوالدته و أبيه القعيد، وكيف سيستقبلان خبر فصله، قد يُدمَّر والده تمامًا؛ فما أشقى تلك الحياة التي تغصب عليه التذلل فقط ليعيش...، أفكارٌ متضاربة تعصف بعقل مُعاذ، وبعد مُجادلات لا طائل منها أحسَّ بصدق مُراد، وهو يعلم جيدًا كونه قادرًا على فعلها بأنامله؛ ليستجيب في الأخير رغمًا عنه، فكان ذل العزيز ليقول:

- سأفعل ما تأمر به.

المحقق في حالٍ يُرثَى لها؛ فمقدرته على الطالب فقط، وبجانبه مُراد يرى الكِبَر أداة لسحق كل ضعيف، وبينما يتلو مُعاذ اعتراف الزور وقُرابة انتهائه يسمع صوت الدكتور يُلسِّن بقولٍ مُهين:

- حسنٌ ما فعلت؛ فأنا أعلم مصاب والدك، ولا طاقة له بالشلل الكُلي.

"تسقط منازل الكرامة عند الحاجة" مقولة انتهكَت أعماق البشر؛ فصارت مُبررًا للهوان، ومَن فوقك هم السبب المُباشر للحدث، هم من أقنعوك بالخضوع؛ فالمال غاية كل شيء، وهم من أفلسوا بقع الدماء في الوجه حتَّى تحصل على ما تُريد، ولكنهم تناسوا أنَّ المُهان وإن غُصِبَ على التخلي فبعض الكلمات قادرة على إخراج كبتِ سنين، وها هي تفعل..

انفجر مُعاذ لكلمات مُراد، وأخرجت منه ذلك الكبت؛ ليثور كالثور قائلًا:

- أيها الظالم العربيد، نحن خُلقنًا أحرارًا، وأنت كالكلب يلهث لإذلالنا، ألا لعنك الله فوق سبع أراضين وتحت سبع سماوات، والله لن أنطق إلَّا بالحق.

ليخرج مُعاذ تاركًا الدكتور في حالة من الصدمة والجمود، الكِبَر أين هو؟! وتلك الكلمات ماذا فعلت بكرامته المُبعثرة أمام المُحقق، يتدارك الأمر سريعًا وقد استشاط غضبًا ليسبّ الطالب وأباه وعائلته بأبشع الألفاظ التي يندى لها الجبين، ويُقسِم على محوه تمامًا مُجبرًا المُحقق على كتابة ما قال، وليس ذلك فقط؛ إنَّما بالشك في توزيع الطالب/ معاذ نجم الدين، منشوراتٍ سياسية تخص الحُكم تقتضي بالتحقيق معه على وجه السرعة.

النقص من كبرياء الأسياد يقتضِي الفناء، أمَّا إذلال الضعيف فلا راد له سوى الدُعاء لرب العباد وهو أعظم الشعائر...

لم ينل الستة الباقون حالًا أفضل من صديقهم، وتعرضوا جميعًا للانتقاص، خصوصًا بعد ما فعل أولهم، ويبدو أنَّهم جميعًا على شفا النهاية.

يخرج الدكتور من غرفة التحقيقات وقد فار دمه، ليتلقّى اتصالًا من زوجته تُخبره بمجيء بعض المعارف ليلًا ووجوب وجوده ليستقبلهم؛ فهذه هي دواعي "الإتيكيت" كما يقولون، وبصدرٍ رحب يُهلّل ويُبارك بعدما قرر المرور على إحدى محلات الحلويات لشراء قطع من البسبوسة الفاخرة، التي ولربُما ازدانت بالزبيب والمكسرات، لكّم تعجّبتُ من حال الطغاة؛ فكيف يُطيحون بالأرواح صباحًا ويُمجدون أُخرى ليلًا؟!

انتهى مُراد من ابتياع الحاجيات ليُدخلها من الباب الخلفي بسيارته المرسيدس، ويدلف نحو عجلة القيادة مُتخذًا طريقه نحو المنزل، وقُبيل انطلاقه سَمِعَ صوتًا مُزعجًا قادمًا عن يساره؛ فارتجف ليرى طفلًا صغيرًا يدق على زُجاج السيارة بتتابعٍ مُزعَج يحمل بعض حبَّات الفُل، هذه فُرصة مُراد المواتية لمُمارسة ساديته المفرطة، حتَّى وإن كانت ضحيته طفلًا صغيرًا؛ ليُنزِل الُزجاج وتبدأ وصلة من السباب والقذف الذي قد تطاول إلى المُحصنات، هذا هو القانون "كيف تُزعِج الباشا؟!"، وبينما يستعد لمُغادرة موقف السيَّارات اقترب الطفل منه هُنيهةً، ومع تحفز مُراد لضربه أبصر بيديه بخاخًا، لم يُمهله الطفل للابتعاد عن مجرى رذاذه ليخترق مجرى تنفسه ويغطّ في نومٍ عمــيق.

على كُرسي مهتز يستيقظ مُراد للأنين الذي يخترق مسامعه جرَّاء هذا الاهتزاز المُنفر، وبعد مُحاولات لاستعادة وعيه وتذكّر ما حدث، خصوصًا لرؤية يديه مُكبلتين من خلفه وقدمه ما زالت حرَّة، لكن جسده ضعيف

لا يقوى حتى على الحراك، يتحدث مُستنجدًا بأحدهم لإنقاذه دون جدوى، الوقت يمضي والجسد لا يسترد عافيته؛ فما هذه المادة التي استنشقها لتوه؟!

وأخيرًا وبعد طيلة انتظاريسمع صوتًا من خلفه يقول:

- مرحبًا بك أيَّها الساديّ.

في مُحاولة بائسة لإدارة وجهه للخلف مُحاولًا تحريك قدميه المُتخدرتين يرد مُراد بكبرياء:

- مَن المتحدث؟ وهل تعلم بشأن من تختطفه الآن؟ سترى الويلات عمَّا قريب.

- لا يتخلى السادي عن كبريائه حتَّى تعتليه مهانة لم تمر على أحدٍ قط.

بتلك الكلمات الهادئة تحرّك صاحب الصوت بثبات ليُصبِح أمام أعين مُراد، الذي يرفعهما بهوان فتجحظان قائلًا:

- من أنتِ؟!

يرى أمامه فتاة حسنة المظهر، تُمسِك بعصا رفيعة مُدببة من البلاستيك، وفي الأُخرى قطعة من البسبوسة تقضم جزءًا منها فتمتلئ بالشجن:

- تُذكرني تلك القطعة بنظيرتها في البيت؛ فأُمي طاهية ماهرة.

يزداد اهتزاز الكُرسي مع انفعال مُراد الداخلي، وما زال السؤال المُصاحب له هو "لماذا؟".

تلتهم الفتاة بقية القطعة بنَهم، وفور انتهائها تنظر إليه لتتحدث بتملق:

- قرارفصلك من الحياة قد تمَّ إقراره.

ما زال المُخدر يُلقي بأسهم الشلل نحو جسد مُراد، وبالكاد يخرج صوته وهو يُبصِر تلك العصا التي يُدرِك عقله بكونها من مُسببات النهاية، تقترب الفتاة منه فتبصق على وجهه، ثم تتبعها بصفعةٍ مُحكمة بكفها الصغير المبسوط؛ ليهتز الكُرسي أكثر؛ فيضطرب جسد الدكتور لسماعه ذلك الأنين المصحوب بلطمات أُخرى من الفتاة، روحه يُنتقَص منها غير قادر على افتعال ردة فعل لثبوت جسده، تنتهي الفتاة ثم تُلقي بوجهها الحَسن أمام مُقلتي مُراد الغاضب، لتهمس بصوتٍ تتلقاه أُذناه بحنق:

- أعدُكَ بأنَّك لن تنسَى هذا الوجه طيلة حياتك.

هنا يجز مُراد على أسنانه مُحاولًا الشعور بالألم والتخلص من آثار المُخدر؛ فلا يعلم لماذا ارتعد قلبه وصارت دقَّاته بارزة، وما هي إلَّا لحظات حتَّى استدارت الفتاة من خلفه لتدفعه بيديها وقدميها للأمام؛ فينكفَئ برأسه على الأرض، وجهه للأمام والجسد بأكمله مفرود ينتظر فقط الفعل القادم، هنا شعر مُراد بالأمر والخزي الذي سينال منه، تبدأ حنجرته في دفع الأصوات مُحاولًا ضخ الأدرينالين بأي طريقة مُمكنة، ليشعر بأيدي الفتاة وهي تُجرده من بنطاله رويدًا رويدًا كأنَّما تُلاعب الوقت بأناملها، وبعد تكرار فعلتها تُعرّيه تمامًا وتُلوح بالعصا للأعلى بلسان حال يؤكد ما لفظَته قبل قليل، لتُدخِل العصا في مؤخرة مُراد الذي تعتلي صرخاته السقف، ولربما تجاوزَت ذلك متخطية الأنهار والمُحيطات، لم تكن صيحاته لعذابٍ جسدي يُلاقيه فقط، إنَّما لكسرةٍ لم ولن يتخطّى لحظاتها المريرة، كيف ينهار كبرياء رجلٍ أذلَّ الأرواح واستأنس لذلك؟ كيف سيتعايش بعد اليوم مع حقيقة النيل من شرفه ومن قِبل فتاة؟! وكيف سيعود لما يفعله وهو مُهان؟

لم تدم اللحظات القاسية طويلًا؛ فما أرادته الفتاة حدث ولم يستغرق الأمر سوى دقيقتين على الأرجح، لتكتفي بذلك تاركة رجلًا فُكَّ

قيده جرَّاء الاهتزازات المتواصلة، لكنه و أبدًا لن يقوَى على النهوض، تُغادره قائلة:

- انتهاك الروح أشمل المعاني؛ فاليوم انتهَيتَ يا مُراد، وغدًا سيأتي موعد استجو ابك عن طالب درّسْتَ له من قبل يُدعى "وحيد سعد".

ما بين دموعٍ منهمرة وجسد منتهك صراعات عقل يأبى جسد مُراد التعايش معها، بل والانتفاضة لمحوها، ثم عقلٌ يُهامسه "أحَدثَ ذلك بسبب وحيد؟!".

***

أكتوبر 1951م...

"من أجل مصر وقّعتُ المُعاهدة، ومن أجل مصر أقوم بإلغائها"

على تلك الكلمات دوت أصواتٌ مُتباينة وعقول مُستنيرة تعلم بأنَّ ما سيحدث بمصر منذ تلك اللحظة سيكون مريرًا لا محالة، من يرى نورًا في نهاية النفق المُظلم فهو مُختل، لا تفسير آخر.

انتهى مُصطفى باشا النحاس رئيس الحكومة المصرية حينذاك من كلمته والتي ختمها بالقصاص من المستعمر البريطاني بمحوه لمُعاهدة 36 اعتراضًا على التعنت البريطاني حيال رغبة مصر في تعديل بنودها وتحقيق الاستقلال التام؛ حيث سبق و أبرم النحاس تلك المُعاهدة سعيًا منه في الحصول على الحرية مُكملًا خُطى الزعيم "سعد زغلول"، وكانت تنص على انتقال القوات البريطانية من المدن المصرية إلى منطقة قناة السويس، وقد رضي الإنجليز بهيمنتهم على تلك البُقعة الهامة من البلاد، ولكن -ومع إلغاء المعاهدة- دبَّت روح الانتقام بالمستعمر، وصار يُندد ويثور، حتَّى بدأت أعمال القمع والقتل.

اندلعت المقاومة في مواجهة قوات الاحتلال في السويس كبادئ الأمر، وفي مرحلة تاريخية لم تتكرّر دعمت الحكومة ذلك بصدرٍ رحب.

"سنظفر بدار المُحافظة ولو كانت الأرواح ثمنًا لذلك، تأهّبوا؛ فأنتم جنود أعظم البلاد، ولن يقف هؤلاء أمامنا"

صدرت تلك الكلمات من رجلٍ مُحنك ذي شاربٍ كثّ وهيأة مهيبة يُدعى العميد

"Exham"، وها هم الجنود البريطانيون يقتحمون شوارع الإسماعيلية بالدبَّابات والعربات المُصفحة بغية النيل من دار المحافظة وإخضاع أمرها بشكلٍ تام، ومن سيغدو أمامهم فقد لقى حتفه، عذرًا هل استنكرت الوقوف أم خصصته على كل شريفٍ حُر اختلطت دمائه بذرَّات الوطن؛ فلم يتلون لبلوغ أعلى المقامات أو يهرب كالجرذ خائفًا من مُلاقاة الخالق الجبَّار، نعم العشرات من أفراد قسم بوليس الإسماعيلية وقفوا كالجبال بأفئدةٍ تُنادي "بلادي، بلادي"، سنُقاتل بتلك البنادق الرَهِقَة كما فعلنا في فلسطين، وإن هلكنا فلا بأس؛ فالله خير حافظٍ، مشهدٌ ملحمي يُسطّر؛ فما الذي سيفعله أسدٌ هزيل لم يأكل منذ أيَّام حتى افتقر لحمه جلده وبرزَت عظامه أمام مجموعة من الضباع الشرهة، يعلم أنَّه لن ينجُو، لكنه الأسد، وبكبرياء الملك سيُقاتل، وهذا ما حدث..

ذخيرة الدبَّابات تُسلط عبر مدافعها نحو القسم، والعربات تصد هجوم البنادق، كفّتَان لا تستويان، وها هو شهيدٌ يصرخ متألمًا جرَّاء اختراق قلبه بالرصاص، وآخر يُشهِد الله على القتال في سبيله؛ فيلقى مصرعه، والإنجليز يتعجبون.. كيف يسقطون الواحد تلو الآخر والبقية

يأبون الخضوع؟! ألا يرهبهم ملك الموت المُجاور؟ أم أنَّ هؤلاء أرواحٌ تختلف عن سائر البشر؟!

دامت المُناوشات ولم تسقط الإسماعيلية عبر دار مُحافظتها بفعل تلك الكتيبة من الأبطال، ليسقط قُرابة الثلاثين ميتًا، والبقية يحترمهم جينرال الإنجليز فخورًا بما قدموه رغم الصعاب، يا لفخر العدو بعد الجحيم! بالتأكيد سيصير هذا اليوم مجيدًا، أكان عيدًا أو أحداثًا على كاهله ستتغير على إثرها خريطة مصر في المستقبل.

على صيحات النساء المُنفرة استيقظ رجلٌ بَهُتَ الشيب على رأسه تاركًا بعض الخُصيلات السوداء التي تُذكّره بشبابه ومنعطفات الحياة، نهض متثاقلًا مذعورًا ليصرخ قائلًا:

- أدخلَت الجرذان اللعينة مرةً أُخرى إلى البيت؟!

تُخمَد الصيحات فيحل محلَّها صمت المقابر وظُلمتها، وعلى إثر خطواتٍ مُتسارعة يبرز وجه سيدة لم يترك الزمن على تقاسيمها سوى تجاعيده، وعلى جسدها سوى الوهن والعجز:

- هاجم الإنجليز دار المُحافظة والقتال مُحتدم في الإسماعيلية.

تبرز عينا الرجل للأمام؛ فينعقد جبينه، ثم يُشير إلى زوجته بالمُغادرة، يقف متثاقلًا ليخطُو أمام المرآة ناظرًا إلى وجهه مُتحسرًا بلسان حال يقول "أصابك الزمن بلعنته وصار جسدك كالأموات ما يُميزه عنها هي الروح، أين طاقتك وشغفك بالمُظاهرات والخُطَب؟ إلى من يعود هذا الوجه؟ ومَن العدو الذي سيرضخ له بتلك التجاعيد المقيتة؟! فيا لتلك الأيَّام الغالية!".

تدمع عيناه بينما تأبى مُقلتيه عن ترك التحديق بكينونته عبر المرآة، ليرى داخلها نفسه وهو صغير ذو همةٍ ونشاط، من وسط الجميع يهتف ويقول: "سعد سعد، يحيا سعد... الاستقلال التام أو الموت الزُؤام".

مشاعر مُتخبطة يتلقاها عقله ما بين شغف السياسة وكبح الإنجليز برجوع الزعيم، فيا لها من ذكرى حسنة لم يُعكّر صفوها غير اللقاء الأخير بينه وبين "حمد" صديقه المُقرب، والنّقَاش المحتدم الذي امتهن لإلقاء اللكمات ولأول مرة بينهما، مَن كان الرجل الذي بحث عن سيرته حينها؟ وما الغرض من مُجمل الأرقام المرتسمة على الأوراق المُبعثرة؟ سؤالان لم يُجبهما "إسماعيل" ولم يُفارقاه منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كيف لصديقه أن يغفل عن ميعاد عُرسه رغم وعده بالمجيء، أكان هو السبب بكتم سره عنه؟ أم لم يكن ذا شأنٍ حقيقي أو مكانة؟!

"من عاشرتهم لسنوات فيُفارقونك بلحظاتٍ غير مأسوفٍ عليك، يا لألم هذا الشعور!".

يترك إسماعيل المرآة متوقفًا أمام أحد الأدراج، ليحرق قطعًا من التبغ الملفوفة بإحكام، ينفّس الواحدة تلو الأُخرى فيهدأ عقله بعد غيظ مُرجعًا إيَّاه تسعة سنواتٍ كاملة إلى الوراء...

"سيُعقد مؤتمر في القاهرة قريبًا، سيحضره "فرانكلين روزفلت" رئيس الولايات المُتحدة و"ونستون تشرشل" رئيس وزراء بريطانيا الأم، وبالتأكيد سيحتدمان في الهجوم على اليابان، وربُّما إقحام مصر بذلك....".

ألم تقرأ رواية "رادوبيس" لنجيب محفوظ؟ بعض النقاط تحتاج إلى بينة، وبالتأكيد سيحصد ذلك الرجل "نوبل" يومًا ما.

ما زالت ذكرى وفاة "عبد العزيز البشري" عالقة بالأذهان، فيا تُرى...

لم تنل تلك العبارات والنقاشات الصادرة من جمع الرجال من عقل إسماعيل؛ فقد صبَّ كامل تركيزه نحو هدفٍ واحد؛ معرفة المولود الجديد له أهي فتاةٌ أُخرى لتُكمِل زوجته النصف دستة من النساء؟ أم يكون هذا الحمل مُبشرًا بمولوده الذكر الأول؟! فقد طفح كيله وضاق

صدره، نبذ عبارة "أبو البنات" ولم يُطِق ألحانها على أُذنيه، وقد انعكس ذلك على بناته بالذل والمهانة وضيق الأُفق؛ فصِرْنَ يمقتنه برغم خوفهم الشديد من بطشه، وكانت كلماتهم المُتحدة.. "لنقتُلنَّ الولد إن جاء".

صرخات الزوجة المُدوية شغلت مسامع إسماعيل المُترقب وقلقه من الشيب البادئ في الظهور؛ فقد تجاوز عمره الخمسة والأربعين، تلك الصيحات المُدوية بالتأكيد تعود إلى رجل قوي يأبى الخروج معتزًا بمكانته، لا لفتاة واهنة يسيرة المجيء، ولم يجل في مُخيلته كون زوجته قاربَت على المشيب أيضًا، والحملُ يُعرض روحها للخطر!

إسماعيل بالأسفل وزوجته بالطابق الأعلى، كانت هذه هي الدُنيا حينها، بمنزل أولاد الأصول وما بينهما متشابهات، حتَّى جاءه صوتٌ أُنثوي يُهلل ويُبارك قائلة:

- جاء الولد، جاء الولد، افرح يا حاج.

"الله أكبر، الله أكبر" كالجُندي يرفع علم وطنه أعلى جبال سيناء يُردد إسماعيل التكبير والدُعاء، يسْقِي الناس ويحث الخدم على جلب "الشربات". يقفز من كُرسيه مُندفعًا إلى الأعلى مُتناسيًا ضيق صدره لفرط شربه للسجائر، فهل يُرجِع الـ"سيروتونين" العجوز إلى المُراهقة؟!

لم يُدرِك حمد حينها أنَّ هُنالك من يُر اقب المشهد بأعين ثاقبة مقيتًا لإرادة الله عازمًا على السوءة، بناته الخمس لم يَغِب عن بالهم ما أقسموا به!

كَبُرَ الطفل الصغير، "الذّكَر البار" كما لقبه والده ليحظَى بشتَّى أنواع الاهتمام، لم يترك والده شيئًا إلَّا وجلبه له، يُمازحه ويسهر لصرخاته ليلًا، ووالدته دفعت ثمنًا لحملها به نزيفًا داخليًا كاد أن يُودِي بحياتها، ولم يتركها سوى على شللٍ نصفي، الجميع تكاتفوا لمجيئه مُتناسيين

البنات الخمس، الحلوى للذكر الصغير والشقاء لهُنّ، بئس الموضع والتمييز، والقسم يأبى أن يُفارق ذاكرتهن، فقط الفرصة المناسبة.

"من عاشرتهم لسنوات فيُفارقونك بلحظاتٍ غير مأسوفٍ عليك، يا لألم هذا الشعور!".

يترك إسماعيل المرآة متوقفًا أمام أحد الأدراج ليحرق قطعًا من التبغ الملفوفة بإحكام، ينفّس الواحدة تلو الأُخرى؛ فيهدأ عقله بعد غيظ مُرجعًا إيَّاه تسعة سنواتٍ كاملة إلى الوراء.

يعود إسماعيل إلى وعيه مُجددًا ليتجه صوب أحد الأدراج؛ فيقوم بفتحه مُخرجًا قُصاصات وورقات متفرقة، يبدأ في قراءتها؛ فتدمع عيناه متذكرًا صديقه حمد، لماذا رحل وإلى أين السبيل إليه؟ ثلاثون عامًا من الأحداث وفي كل عام ينتظر إسماعيل صديقه ليُحدثه ولا يأتي، اعتَقَدَ أنَّه سيكشف عن نفسه عند مولد طفله الصغير ولا أثر له، نفرَ الشريان في جبينه وهو يُزيح الأوراق عنه ليُفتش عن شيءٍ آخر حتى يجده، صورة قديمة له مع صديقه وهما يسيران على طُرقات شارع المُعز الشريفة، ليقلبها على وجهها ويُبصِر الكتابات التي دوّنها طيلة سنوات، وكان مُختصرها..

"من الرجل الذي بحث عنه حمد في ذلك اليوم؟!"

تأبى السنون الر أفة بحاله وطبع النسيان على كاهله، ويمتقع قلبه كمدًا لتذكر أسماء من ساندوه، وتلك الجماعة التي لحق بها، ولم يكن حمد من بينهم، وبينما يقبع الوالد على فراشه مُشغلًا عقله فقط بصديقه القديم ووضع البلاد الذي لا يسُرّ، لم يكن يُدرِك بأنَّه وعلى الجانب الآخر من المنزل تجلسن بناته الخمس يُخطِّطن ويُدبرن المكائد على طاولة صغيرة بعدما أنهين واجباتهن المنزلية وخلدت أمهم العجوز إلى النوم، يتسامرن ضائقات الصدر بالعنصرية والضيق، ولا تعلم أكان هذا

مقتًا للطفل الصغير الذي لم يبلغ التاسعة بعد أم أنَّه حبٌ حقيقي نحو والدٍ لم يعطف عليهنّ يومًا؟! وإن رآهنّ انشغل بمن هو أثمن وأعلى.. ولده الوحيد الذكر الرشيد.

- أين يوجد الفتى؟

تقول تلك العبارة الأُخت الكُبرى والتي يبدو على تقاسيمها التسلط والحكمة، عيناها سوداوتان منعقدة الجبهة، ذات أنف مُفلطح قليلًا، لكنه وعلى دائرية الوجه يُعطِي تناسقًا نادر الحدوث، مجدولة الشعر تعقصه برباط؛ فيبدو مثل نهرين التقًّا على بعضهما البعض في نمطٍ يجذب الأنظار.

علمَت كونه بالخارج يلعب مع الأطفال الصغار يُلوّحون بالعصا الخشبية ضد آخرين يجعلونهم كالإنجليز مُعتقدين في أنفسهم "عُرابي" أو "سعد زغلول".

تلمع أعين الأُخت الكُبرى لتُكمِل:

- لنجعله يستزيد في ذلك الأمر، بل ولنكن نحن من نُشجعه ونُخبره عن البطولات والفداء؛ لنغرس في قلبه الأمل والصحوة، ونزيد مقته على الاحتلال، حتى تُواتينا الفُرصة المناسبة لتحقيق مُرادنا ودون أن يشك بأمرنا أحد.

تتعجب الفتيات من نبرة الأخت الكُبرى، ولن أُبالغ إن قلت بأنَّهن خشينَ من بطشها للحظات، عمَّا تتحدث وكيف ستجعل من روح المُغامرة والفداء كبشًا لتحقيق مسعاهنّ والتخلص من أخيهنّ الصغير والظفر بحب والدهن دون أن يعلم الحقيقة، تترقّبنَ جُملتها التالية والتي لم تتأخر:

- أشم رائحة هياجٍ مصري وكارثة تدنو من الأذهان، وحينها سيتحقق الأمر وتنتهي لعنة ذلك الصغير.

قد تبدو فطنة الفتيات ساذجة إلى حدٍ كبير، لكنهم وإن أصبن فحتمًا أمرٌ جلل على وشك الحدوث؛ فهل كانت الأُخت الكُبرى تعلم حينها بأنَّ مصر على أعتاب حدثٍ سيُعَدّ الأبرز في تاريخها الملكي على الإطلاق؟!

***

"قطةٌ أُخرى ميتةٌ بالداخل"

استيقظتُ على ذلك الصوت اللعين ينغسّ عقلي كالمخياط الأعرج، ويُذبِل قلبي؛ فيجعله آثمًا بذنبٍ لم أكتشفه بعد، لماذا وكيف أتَت تلك القطة يا وحيد؟!

يُغالبني عقلي بالأفكار، وتأبى مُقلتي النظر نحو الدولاب؛ لتسقط أشعتها المنعكسة على الجزء الأول من الرواية؛ فيعتلي الوميض مُجددًا، يجب أن أقرأها؛ فلا أُريد التأخر عن مقابلة الفتاة المُريبة تلك.

سريعًا أمسكتُ غلافها وشرعتُ في الانتهاء من سطورها قُبيل العمل، وها قد بدأت.. الرواية تتحدث عن عالم الجان الذي لم يرُق لي يومًا وإن كان واقعه ملموسًا، ولكن ما فائدة التفكير في أجسامٍ لا نراها وعوالم تعتلي العقول دون المنطق؛ لذا كان مسعاي هو إزاحة الوُريقات حتى أظفر بالنهاية، ومعها سأجد الحُجة المناسبة لمقابلة علياء مُجددًا؛ فنفسي عزيزة تأبى الهوان، وللقاعدة المُقدسة "لا جائزة دون شقاء"، قراءة مُتتابعة تطغى على الطعام، لن أموت إن مضغتُ القليل منه، على الفراش، على قاعدة دورة المياه، مُرتديًا الثياب، ولرُبَّما طالت العمل أيضًا، وصدقًا لم تؤثر فيّ الكلمات قدر رؤيتي لعلياء بين السطور، أستحِسّ أنفاسها هنا، وخوفها هناك؛ فأمتثل لعقلها وأبعادها النفسية التي تحرق الفؤاد، والعجيب هو أنَّني وعندما ارتشفت كوب القهوة الخاص بي مع التسعة قطع من السكر توغّلَت أحداث الرواية بعقلي أكثر فأكثر؛ فهل يُعقَل أن تتَّفق الحبَّات أيضًا مع الفِكر؟!

انتهيت من منتصفها وحان وقت الاستعداد للعمل، سأغيب؛ فالعمل لن يزول، كانت تلك الأصوات هي المُسيطرة لتمحوها أصواتُ أنين قادمة من الردهة؛ فارتجفت مُزيحًا الرواية بعيدًا، ما الذي يحدث بالخارج؟ وهل عادت الزواحف مرةً أُخرى؟! فقد صارت الشقة لعنة بحق، ولا يمر يوم بغير حدثٍ يندى له الجبين وتشرئب لأمثالها الأعناق، وفي حقيقة الأمر يكفيني من أمر القطة ما حدث، ولا مجال لسطوٍ آخر على النفس، سأرتدي الثياب وأنطلق نحو العمل ولتذهب علياء إلى الجحيم، فإن ذهبَت بحق أرجو أن تكون ناره مثل مثيلتها على إبراهيم نبي الله الخليل.

لعنة الله على ذلك الدّرَج الذي وحتمًا سأسقط في أوغاره يومًا، الحي الذي يعج بالغوغاء والفقر والوجوه الناضبة وعلامات القهر على الكهول، أسير مُسرعًا والكتاب بين يدي، أرتشف من صفحاته ما استطعت، لتخترق قنواتي السمعية صوت العجوز مرةً أُخرى:

- ستجلب لعنتك الخراب على الجميع، ارحل واترك الحياة تسير، غادر الآن قبل أن يُصيبك مكروه.

أُمنية الرجال هي الاستيقاظ على وجهٍ حسن لزوجة تُحضِر الفطور على الفراش، وإن كانت ساذجة تظل حلمًا جميلًا، فكيف تحولت أُمنيتي للخلاص من تلك المرأة؟! فقد سئمتُ تلك العبارات نهارًا وبغضتُ وقعها عليَّ، ولكنني لمحتُ شيئًا عجيبًا، أمام العجوز شتَّى أنواع الخُضرَة لم يختلف العدد، وإنَّما اللون؛ فقد بدا عليها صفارٌ يُوحي بسوء تخزين؛ فهل تغش القوم الآن؟!

الُكرسي المُجاور للنافذة ولا أطفال بالعربة، فنِعم الأجواء للقراءة، فيا لسعدي الذي انتهى بمُجرد انطلاقنا؛ فقد أدار السائق أغانيه الشعبية المُزعجة، وبالطبع بعد مُحاولاتٍ خائبة للزبائن لعدوله ولو حتى قليلًا بإخفاض الصوت أردتُ ضم كفَّاي على أُذني بغية جلب الهدوء والتمعن

في القراءة؛ فتذكرت طبائع الناس حينها؛ فقد يُصورني أحدهم مُتنمرًا عليَّ بامتثال الدين ومُتعهدًا بالنشر على وسائل التواصل؛ فيسبني رجلٌ وتلعنني فتاة، وقليلٌ من يُدافعون مُنددين "أتلك هي الحُرية التي تصيحون بها؛ فإن كانت تخص الصواب عُكِسَت فصارت إخلالًا للشرف!".

وفي النهاية النتيجة قائمة "الريتش" قد امتلأ عن آخره بالصفعات نحوي لأرجع إلى الواقع وتحمّل الإزعاج في سبيل النجاة.

أقفُ أمام الجهاز مُحاسبًا ومُدخلًا للبضائع، وعيني لا ترقب سوى سطور الرواية التي قاربت على النهاية، ومع تتابع الصفحات يزداد خفقان قلبي؛ فالحُجة تُطبَخ على نارٍ فائرة ستتطاير كالبُركان في سبيل الظفر بمُقابلتها مرةً أُخرى، ورؤية أبعاد النفس التي تُولّدها، حتَّى سمعتُ صوت يحيى:

- تبدّلَت أحوالك يا صديقي؛ فصارت جبهتك أكثر ظُلمة ممَّا كانت عليه، ألا تعقِل وتسير الطريق معي؟

لم أنظر إليه؛ فعلى الرغم من صِغَر مُدة صداقتنا كانت نفسي تخشى لقاء الأعين مع يحيى لعله يستنبط ما حلَّ بي بحق، واكتفيت بنبرة ثابتة تقول:

- لا عليك يا صديقي، محض فتاة أستزيد منها ما أُريد ثم الرحيل.

- لم أستطع قراءة جبهتها وهذا يُقلقني؛ فوالله ليَكون أثرها كبيرًا إن لم تعدل وتتّعِظ.

لم يُمهلني يحيى فُرصة الرد وسار بعيدًا ليُتابع عمله؛ فهو يعلم أنَّنا سنسير سويًا في المساء، وحينها سيفرض ما يُريد وينتظر من وحيد الخضوع، وقد علمتُ ما ينبغي عليَّ فعله من أجل الهرب.

قارَبَت الساعة على الثانية عشر، وهنا سمع الجميع صوت ارتطامٍ مُدوٍّ بالأرض، وأصوات تصيح مع أقدام تهرع:

- ماذا بك يا وحيد، أحدث لك مكروه؟!

أعين مغلقة لدقائق مع رجفةٍ في الأطراف، ثم صمت وإحكام السيطرة على الضحك، كُلُّها أسباب كانت كافية لتصديق الإعياء، والأهم هروبي من السير مع يحيى والتوجه نحو منزلي مُباشرةً، وقد رأيتُ في عينيه مرارةً؛ فلا أدري أكانت خوفًا على حالي أم قراءة الجباه تُخبِره بما أضمرت؟ وبمُناسبة الجهل أكانت فعلتي تلك للهرب بحق أم لإكمال الرواية والانتهاء منها ليحين موعد اللقاء؟!

وسيلة مُواصلات أُخرى بعد إجباري من قِبَل المُدير للرحيل؛ فنِعم الأخلاق هو! وقراءات تتجدد وصوت يقول "سأنتهي منها اليوم عن بكرةِ أبيها".

وكالسابق لا داعي لذكر أحداث الطريق؛ فالضجر رفيقٌ لمن لا يعلم أُنسَ النافذة، وها أنا داخل الحي مرةً أُخرى، وحمدًا لله دون العجوز، أخذتُ الدرج بسعي أصحاب الهِمم، وأدرت المُفتاح ببطء، ولا أُنكِر تحفّظي من الشقة، بل وتقريب أذني من بابها لمعرفة هل ما زالت الأصوات قائمة أم انتهت ولو مؤقتًا؛ فالردهة والدهليز كانوا كالكابوس الواقعي يأبى الخلاص والاضمحلال، وكانت النتيجة لا أحد ولا أنين، فقط الصمت وشعورٌ داخلي بأركان الشقة تُرحب بعودتي سالمًا لكنافاتها.

اكتسبتُ عادةً عجيبة في الآونة الأخيرة، ألا وهي عدم الولوج إلى الغُرفة مُباشرةً خشية أن يكون بها مكروهًا يُصيبني، وأن أمكث في الردهة على ذاك الكُرسي المهتز بعد إشعال أعواد الحطب؛ لعلي ألتمس الدفء، لا لا بل قُل الدفء والأمان عبر نيرانه المُشتعلة، وفي كل مرة أجلس على الكُرسي أستشعر كوني غريبًا عن تضاريس شقتي، الحطب

كما هو، الطاولة وزُجاجة الخمر التي تمتلئ بالميسر تارةً، وأُخرى فارغة تتأرجح عبر طيَّات الزمن، نعم الكومود الصغير؛ فأدرتُ وجهي نحوه لألمح درجًا صغيرًا في منتصفه لم ألحظه إلَّا الآن! أأذهب إليه أم أكتفي بالمكوث على المقعد المهتز الذي يأبى أن أُفارقه؟ فلأنعم الآن بتردداته و أنين صوته وهو يخلق طقسًا من الريبة تُناسب فحوى سطور الرواية التي وجب الخلاص منها حتى أُلاقيها؛ فقد سئمت الروتين وأُريد تذوق شيئًا أكثر غموضًا.

ساعتان مضت وقد قاربت الصفحات على الانتهاء، وفي حقيقة الأمر لم تكن الرواية سيئة إلى حدٍ كبير؛ فقد اشتعلَت الأحداث قُرابة النهاية، ولوهلةٍ شعرتُ بأنَّ طيفًا ما سيخرج من درج الكومود ليبتلعني، خصوصًا بعدما قرأتُ طلاسمها بإحكام، النيران المُشتعلة تُلقِي بظلالها على الحائط الخلفي، والساعة الدائرية تأبى همسات عقاربها عن الخمود؛ فمن أين سيأتي العدو؟ ولا أدري لماذا استشعرتُ خطرًا قريبًا؟ وها هو الخيط الأسود يخرج من جانبي الأيسر ليلتف أمامي؛ فطالني الارتعاد، خفقات القلب وتنافر الأوردة تقول "شيءٌ خطيرٌ سيحدث الآن"، أغلقت الكتاب وأخذت أتلفّت؛ فسمعتُ دحرجة زُجاجة الخمر والخيط الأسود يقترب بمُحاذاتها، أيُعقَل أنَّه يُريدني التقرب منها لعلي أكتشف أمرًا ما! قدماي مُتخدرتان ولا أقوى على الحراك، لأصرخ مرةً واحدة بعدما التقطَت أُذناي صوت دقَّات الباب المُتسارعة؛ فالتفَتُّ إلى الساعة لأجدها الثالثة صباحًا، وكان السؤال "من سيأتي إليَّ بمثل هذا الوقت؟ ومن يعرفني من الأصل؟! أيُعقَل أن تكون العجوز؟!".

اقتربتُ من الباب متوجسًا والطّرَقَات لا تتوقف، والسؤال يتجدد بلا توقف

"أجاءت لتقتلني؟!"

فتحتُ الباب متأهبًا لأرى روحًا لا شخص، تقف ثابتة بوجنتيها الحمراوتين، وعلى شفتيها الورديتين همهمات مَفادُها "تلميذي الصغير يقرأ واجبه"، وبجحوظ العينين رددتُ قائلًا:

- علياء!

دفعَتني إلى الداخل منتزعة الرواية من بين يدي، ممُسكة بطرف الورقة حيث توقفت، لتقول بصوتٍ حنون:

- تلميذي نجيب شارف على الانتهاء وفي يومٍ واحدٍ فقط!

لماذا وكيف تفعلها؟! تُخضِع مُحاولاتي للفشل وتفعل غير المألوف، دائمًا ما كان عقلي مُسيطرًا على الجميع؛ يُحركهم كالدُمى ويعبث بأنفاسهم كيفما شاء، ولكن مع هذه الصغيرة لا يقوى سوى أن يكون ردة فعل واهنة لأفعالها العظيمة، ثمَّ "تلميذي!" لماذا لا أنهرها؟ وكيف يألف الخيط الأسود معها؟! فكُلَّما اقتربت ظهر واستزاد، وهذا الضمير الأذعر أحقًا أعود لها؟!

- لمَ هذا الصمت؟ ألن تتفضل عليَّ بالجلوس؟

ما بين حُرمة الذنب وفضول التحدث ثار عقلي كثورٍ ضلَّ العلم الأحمر، هل أجلس أم نخرج؟ فلا صُحبة مثل تلك إلَّا واجتمع الشيطان معنا، أين أهلها؟! وقبل أن أرد تجاوزتني مُلقية بالكتاب بعيدًا، مُتجهة نحو الطاولة، ويا ليتها لم تفعل.

اندهشت من وجود زجاجة الخمر رفيقة المنزل وأحد أركانه، لم تعلم ماهيتها لعدم وجود كتابات عليها، فقط أثارت فضولها.

توجهتُ نحوها مُفتعلًا الشك، لأقول:

- هذه تُراث وجدتُه هنا ولم آبه له.

تركَتْها تتدحرج على الطاولة، ثمَّ تحرّكَت نحو المدفأة لتوقد لهيَها أكثر متغنية بتلك الأجواء و أنا عاجزٌ حتَّى عن قمعها، فكيف تتحرك بتلك الحُرية دون إذنٍ حتَّى؟!

أخذَت تُحوِّل بصرها يمينًا ويسارًا بغية الاستكشاف، وهنا حان وقت تدخلي:

- ما الذي أتَى بكِ؟

تجاهلَت كلماتي، و أبت عيناها أن تتلاقَى مع نظيرتي؛ لتستمر بالسير وهو تعقد شفاهها مُصدرة لحنًا موسيقيًا عذبًا.

فحقيقة الأمر لم أُرِد أن أقسُو عليها، ولكن إن تركتُها دون عنفوان فقد يتكرر الأمر، ولا مجال لذلك وإن كانت "علياء"، ماذا أُخبرها وكيف سأصيغ جُرم ما نحن عليه الآن؟ وبينما أنا عالقٌ بالحيرة في أمري سمعتُ صوتَها يقول:

- أردتُ التحدث معك في هدوء، خلوةٌ لا يقطعها صوت زحام أو أنفاس العامة، أنا و أنت فقط، وبابٌ من الذكريات، ثمَّ يمضي كلانا في طريقه.

يقولون بأنَّ الحب قد يُولَد من أول نظرة، فهل زحف إلى أذهانهم التّلاقي الروحي وليد القدر الذي يجمع السُبل بموقفٍ عابر؛ فتأتي من وراءِه تيَّارات من الأشجان والشغف.

أطفأَت الأنوار كاملةً لتجعل من لهيب الحطب سبيلًا للحكمة والرشاد ومُستنقعًا لسرد الذكريات، ثم وبخطى ثابتة جلسَت على الكُرسي الهزَّار مُثبتة أنظارها عليَّ قائلة:

- من أنت؟

هزَّ سؤالها أركاني؛ فتحرّكتُ ببطءٍ نحو أحد المقعدين المُتهتّكين مُفكرًا في أمرين؛ أحدهما هو اغتصاب مقعدي المُفضل من طرفها، والآخر الإجابة على سؤالٍ أمسَّ روحي، فأردفت قائلة:

- مُذ قابلتُك واستشعرتُ بقوى تُحيط بك، قد تجد حديثي ساذجًا؛ ففي الأخير أنت كاشير يمر عليك مئات الأشكال وكنتُ أنا "علياء" منهم، أعلم الجباه وعلمَها، ورأيتُ في المُدير ما اشمئز له قلبي؛ فبمُجرد مُحادثة قصيرة المدى استخرجتُ من شهوته ما تعُوذ به النفس وتلهث لها الكلاب شوقًا، رأيتُ في عينيه لسانًا يتلفّظ بالجسد، وربَّما أعانته كلماتي على التصريح بعنفوان، لا تسألني عن ردة فعل وأسبابها، ولكن يستحق العقاب مَن أذنَب.

لم أعِ جيدًا مقصدها، أراد وجهي إظهار البلاهة؛ فحجمته محتفظًا بانفعالٍ ثابت دون حراك، لأبصر يديها تفتح هاتفها تُقلب داخله، لأسمع بعدها صوت إشعارٍ من هاتفي وهي تُخبرني بالنظر إلى ما أرسلَت، وبتريثٍ أُحسَد عليه قمتُ بفتحه لأرى صورًا من مُحادثة، بعد تدقيق النظر لطرفيها ارتعشَت أوصالي؛ فكانت سببًا لنتيجة صارت واحدة "الخيط الأسود"، ولكنه ظهر بمُنحنى أكثر بروزًا وسُمكًا عن ذي قبل، يتلوّى مُحيطًا بي ومُمتدًا قُبيل علياء دون القدرة على الاقتراب من جسدها، ما الذي أنظر إليه وكيف حدث؟!

المُدير الغَرُور يتضرّع مُتذللًا إلى علياء من أجل مقابلتها فقط، لا بل وفي صورٍ أُخرى يبكي كالأطفال مُتحسرًا على جفائها معه، يا إلهي! من تكون هذه الفتاة؟! لأسمعها تُكرر سؤالها:

- من تكون يا وحيد؟ ما هو ماضيك؟ ومن أين لك تلك السطوة على النفس؟!

أزحت الهاتف بجانبي و اتَّسع الخيط، وبدأت أطراف نهايته تتشكل وكائنُها يرتع ويلعب حتَّى صارت صيحاته قريبة المنال، من أكون؟! سؤالٌ يدعو للتأمل؛ فالماضي يُوشِك على القذف بصديده...

***

السادسة مساءً، عام 2002م..

على طاولة الرّدهة كعكة الفراولة الشهية، وعلى جنباتها تسعةٌ من الشموع، والدتي تُحضِر الأطباق و أبي يُمسِك بزجاجةٍ كبيرةٍ من مشروبٍ لا تُميزه عيني، وأمَّا عن أُذني فهي تُميز جيدًا تلك الألحان والكلمات التي تقول:

"يلا حالًا بالًا حيُّوا أبو الفصاد، هيكون عيد ميلاده الليلة أسعد الأعياد، فليحيا أبو الفصاد".

الزينة تعلو الردهة والكُرسي المهتز يتحرك تباعًا مُحتفيًا بما يحدث من أجواء تُدخِل البهجة في النفس، لا يشوبها سوى العقارب المُزعجة و أبو الفصاد الذي لا أعلم كيف لعاقل أن يختارهُ ليكون تعبيرًا عنَّا نحن معشر الأطفال في أعياد ميلادنا!

وبينما تتحضر الأُسرة ثُلاثية الأفراد للاحتفال انقبض قلبي المُستمع لاهتزازات ذات مدى بعيد وصوتٍ خافتٍ مكتوم يصيح:

- توقفوا توقفوا.

انطفأَت الأغاني وعمَّ الصمت تبجيلًا لظهور كُرسي مُتحرك يَحمِل على معدن عجلاته جسدًا قد نال الزمن منه؛ فلم يُبقِ عليه سوى شتات من اللحم الرفيع يكسو شرذمة من العظام على وجهٍ يقِلّ به التجاعيد، فهل كانت له تعاويذ مُضادة ردعَت أسهم الزمن؟! بأعين جاحظة وصلعةٍ تعكس الأضواء رأيتُ جدي العبوس ينظر فقط بعينيه نحو والدتي، ثم

يُحوّل مقلتيه صوب الزينة في إشارةٍ إلى نزعها، نعم كنتُ طفلًا صغيرًا، لكنني امتلكتُ خِصالَ الكبار لأول وهلة، ولم أكن أدري حينها سُوءَ القادم.

لماذا الآن؟ كيف أوقَف البهجة ممتلكًا تلك الهالة من الاستحواذ برغم عمره الكبير؟ كانت هذه أول مرة استخدامًا لتلك الكلمات في أسئلتي، والنتيجة هو عيد ميلاد بلا شيء، قُطِّعت الزينة، صمتَت الألحان، وحتَّى أبو الفصاد لم يعد موجودًا، العيد التاسع لي أمسَى جحيمًا بحق.

في مساء هذا اليوم، وبينما ألهو أمام التلفاز ليلًا لساعةٍ مُتأخرة بعد سماح والدي بذلك تعويضًا عمَّا حدث سابقًا، سمعتُ صوت أنين لا أُميزه ولم آبه؛ فالصراع على التلفاز يحتدم، و"يوغي" سينتصر حتمًا في لعبة الأوراق مهما كان النزال صعبًا وقاربت نهايته، سيجد وسيلة لقلب الأُمور، وبرغم عشقي له لم أكُن أدري أهذِه سذاجة لتوالي المكسب على هذا النحو أم ينبغي للبطل أن ينتصر حتَّى تستمر حلقات الكارتون؟ فكيف سيُحب الطفل بطلًا مهزومًا؟! ومن أين سيستمد الحماس؟!

العقارب تُشير بعُنفوان إلى الثانية عشر ليلًا، ومعها أرى شبحًا خفيًّا يتحرك ببُطءٍ على جانبي الأيمن، في حقيقة الأمر لم أهَب شيئًا؛ فلا وجود للعفاريت كما قال أبي، فقط الزواحف وهي ماكثة في غرفتهم لا تقوَى على الخروج، فهل هرب أحدها؟ وبينما يعلق ذهني ما بين الكارتون والو اقع تلقَّت طبلة الأذن همسًا:

- وحيـــــــــد.

التفَتُّ إلى مصدره؛ فر أيته رجل اليوم والمُتسبب الأول فيما حدث، جدي يجلس بنفس وضعية المساء يرقُبُني بأعينه الجاحظة مُشيرًا بسبابته لحَثِّي على الاقتراب منه، وهُنا عجزتُ أمام أمرين: أأترُكُ التلفاز وقد احتدم القتال، فحتَّى وإن علمتُ بانتصار "يوغي" فنحن معشر

الأطفال نُريد رؤية الحدث، أم أتوجه إلى الجد لعله يُعاقبني إن لم أفعل، تجمّدتُ للحظات حسمَتها حركته الصامتة بالرجوع بكُرسيه إلى الخلف ليتوارى في الظلام داخل حُجرته، نعم لم يتحدث أو يصرخ، لكنه وبذلك الفعل أضفَى على قلبي رُعبًا وخيفةً من عقابه وسطوته لأترك الحلقة غير مُبالٍ؛ فلن يُنجدني أحد من قبضته، وعيد الميلاد خير بُرهان.

حرَّكت القدم تلو الأُخرى مُتثاقلًا، وكان السؤال الذي يعبثُ بعقلي لمَ يستخدم الجميع نيران لهب الحطب في الردهة مُتجاهلين الكهرباء؟ فهل في ذلك سر أم أنَّه توفيرٌ للمال؟!

على أعتاب باب الغرفة أقفُ لأرى ظلًّا يجلس بجانب الفراش على كُرسيه المعدني وبحوزته مجموعة من الأوراق، لأخطو الخطوة الأولى نحو المجهول؛ فكانت تلك هي المرة الأولى لي دخولًا إلى غرفته؛ فدائمًا ما كانت مُوصدة ولا أدري السبب، بل قل وفي حقيقة الأمر لم يعترِني فضول الأطفال لمعرفة ماذا يكمن بها؛ فدائمًا ما شعرتُ بالخوف من ساكنها.

أقفُ الآن أمام جدي القعيد، فيحثني بنظراته لغلق الباب؛ فكيف يُخاطبني بتلك التعبيرات وأنا طفلٌ في التاسعة؟ أيظنني رجلًا كأبي؟! ولكنني فعلتُ لأقترب منه بعدها، وعلى ضوء المصباح الخافت صرتُ أتبيَّن الحقيقة وما تحويه تلك الغرفة؛ فكان هُنالك فراش ضيّق الأُفق لا يتسع سوى لفردٍ واحدٍ ليس بالثمين أيضًا، مشجبٌ مُستخدَم لحمل الحاجيات، وطاولة عليها عدد لم أتبينه من زلعات الفخَّار موضوعة بشكلٍ دائري، لم تضم الغرفة سوى بساطة الأثاث، ورُبَّما لم تكن بهذا الرعب حقًا؛ فلماذا تلك الرهبة؟ وبينما أُحاول استنباط الأمر بعقل الطفل الصغير المُحبّ للكارتون مُعتقدًا في نفسي الذكاء، مُرتديًا نظَّارات دائرية وحاملًا بساعة مُخدّرة فأصير "كونان"، سمعت صوت جدي القريب يقول بجفاء:

- اذهب وأمسِك بهذه الزُجاجة، وضع منها تسع قطرات على تلك الأخشاب الموضوعة على الدائرة الحديدية، ثمَّ أشعل ثلاثة من أعواد الثقاب وارمها نحوهم، ومتى اشتعلت أطفئ المصباح اللعين وقِف في منتصف الغرفة وأعِد استكشافك.

كان يرمقني طيلة ذلك الوقت وكلماته أمست مُرهِقَة لعقلي حينها، والعجيب أنَّني استجَبتُ لأوامره و أكملتها على النحو الصحيح، لن أكذِب باصطناعي عدم الفضول، بل والسؤال عن تفاصيل دقيقة؛ مثل الأعداد واستخدام اللهب أيضًا، ثمَّ كيف عرف جدي بأنَّني أُحاول فحص غرفته؟ وربُّما كان استنباطه ذاك هو الدافع الأول لتنفيذ أوامره دون جدال خشية عقابه الذي وبالتأكيد سيكون جحيميًا، وها قد شرعتُ في الأمر، زُجاجة لا أعلم ما تحتويه أكبُّ منها بحرص فقط تسع قطرات، ثمَّ الإشعال يتم بالثلاثة أعواد من الثقاب بعد مُحاولات من الفشل، إطفاء المصباح، وأخيرًا الوقوف في المنتصف وإعادة المُحاولة، رغم تيقني من سذاجة الأمر ففي النهاية بالتأكيد ستكون مثل "يوغي"، نفس الأمر يتكرر رغم اختلاف المُعطيات، كانت هذه قاعدتي للحياة.

أدرتُ أنظاري لأرى المِشجَب كما هو وهذه الأغراض مُعلّق.... لا لحظةً واحدة، الانعكاس يتشكل بسبب النيران على الحائط المُقابل، والظلال تتشكّل بنمطية مُخالفة عن المنطق، أرى مثل طريق يُشكّله البنطال بجانب السترة ينتهي على الحائط المُقابل، يا إلهي! ظلالٌ أُخرى لا أعلم من أين تشكّلت وما هو المصدر، تُشير كونها سهمًا نحو منتصف زلعات الفَخَّار، لأتوجه إليها وروح "كونان" تُرفرف منتظرة الانقضاض؛ فأقِف أعلاها لأُبصِرَ وريقات مطوية في مجموعات مُتباينة، لم أعِ مَفادَها، فهل انتهى اللغز الآن؟ لا؛ فلن أعجز اليوم، وبعد مُحاولات من البحث وفتح الأدراج، ثم رؤية الأوراق المنتشرة على الأرض بكثرة تجمّدَت أوصالي بعد الرجوع إلى فكرة النار، لأُحول وجهي للأعلى ناظرًا نحو السقف؛ فأرى

مشهدًا مهيبًا وقعتُ لإثره على الأرض، وتسارعَت دقَّات قلبي بنحوٍ سيقتلني حتمًا، وصوت جدي ضاحكًا ولأول مرة:

- الآن تيقَّنتُ بأنَّك الخيارُالأنسب، الماضي يُريدُكَ يا حفيدي الصغير.

كلماته تلك لم تغِب عن خاطري، ولم يقطعها سوى صوت الباب مُنفتحًا، ليظهر والدي على أعتابه مصفرّ الوجه لا يقدر على التقاط أنفاسه، يُمسِك عصا غليظة مُندّدًا بصيحاته عن سبب دخولي إلى الغرفة، ألم يُحذّرني والدي مرَّات؟ وها أنا قد تجاهلتُ أوامره والجزاء من جنس العمل، الويلات لي والعقاب صاروشيكًا.

طفلٌ في التاسعة انحصَرعقله ما بين ظلال تتشكّل، أبٌ يُريد القضاء عليه ونظراتٌ خافتة نحو الجد لعله يتحدث؛ فيُخبِر أبي بأنَّه من أدخلني إلى هنا، أويُدافع عن حفيده؛ فالجميع سيمتثل لأمره، كانت هذه الظنون سذاجة طفلٍ أهوج؛ فارتحل الجد عن و اقعنا بالمكوث على الفراش والاستعداد للنوم، وعصا أبي الغليظة تُلامس أضلعي فتهتكها كما المقْعَدَين بالرُّدهة ويداه الكبيرتان تقبض على ملابسي مُزيحة إيَّاي نحو الخارج، أنا مظلوم، ولمَ أتعرض لهذا العقاب؟ ألم يُخبرونا في المدرسة ومُسلسلات الكارتون بأنَّ العقاب فقط للمُذنِب؟ فهل كانوا يتلاعبون بنا؟!، لأتلقى ضربةً أُخرى على كتفي فأكتم صرخاتي، وكانت هذه هي المرة الأولى لي مُبصرًا لذلك الخيط الأسود الذي ارتعَدَ قلبي لانبثاقه وتشكله، أراه يخرج من الدائرة الصغيرة في البطن؛ فتشتعل بالألم مُتجاوزًا ثيابي مارًا بأبي، كان عظيمًا ومهيبًا، فهل هو حارسي من الأرض سيخرج للقضاء على مصدر الخوف؟ أم أنَّه سيكون إشارة متى حانت لحظاتٌ من الشجن أو التلاعب بالنفس؟ فلم يكن الخيط بارزًا لأحدٍ غيري وفقط، صار يمتد دون نهاية حتى عجزبصري عن مُر اقبته، وقُبيل غلق باب الغُرفة سمعتُ جدي يقول كلمات لم تَغِب عن بالي يومًا:

- اضربه الآن بأقسى ما لديك؛ ففي الغد القريب سيضْرِبُ الجميع.
- ولكنك لم تضرب أحدًا بعد.

أفقتُ على صوت علياء الحنون يُهدئ من روعي، تصطنع ابتسامة مازحة تُخفي ما داخلها من قلق، أدخلتُ رأسي بين كفتَيّ مُتعرّقًا رغمًا عن قسوة برد الشتاء؛ فسطوة الماضي أقبح وأمقت، كان أمر الجد لغزًا عجيبًا، ولطالما أردتُ كشف الحقيقة يومًا، فهل أشكر علياء على سطوتها وإحياء ما غفلت عنه أم أنَّها مُجرد وسيلة للعبور نحو الذكرى؟ فالذكرى وإن كانت ذكرى فهي إدمان.

أجواءٌ من الصمت المهيب تحتَّم عليّ قطعه بالشيء المُشترك، والذي وحتمًا سينجح:

- أتُريدين القهوة؟

استدارَت بوجهها نحوي كأنَّما وجدَت الخلاص من الخوف المُلازم، وأومأَت برأسها كناية عن الموافقة بلسان حال "لا تنسَ التسعة حبَّات من السكر".

تركتُها وهي تسير في الرُدهة تُقلِّب أعينها بين التضاريس لعلها تتوصّل إلى لغزٍ آخر يُحيط بي، لا أعلم ماهية هذه العلاقة، ولا أدري أتُبنَى الصداقة هكذا فما زلتُ متحفظًا كتومًا، ولم أُصادق سوى يحيى عالِم الجِبَاه وعلياء ملكة النّفس وصاحبة الأثر العميق، حتَّى صفاء كانت عاهرة.

انتهيتُ من تحضير القهوة، لأرجع مرةً أُخرى إلى الردهة أقف متحجرًا تتأرجح القهوة من بين يدي، أرى علياء تُمسِك بظرفٍ أعرفه جيدًا، ثم تضعه على الطاولة لأرنو بنظري ناحية الكومود؛ فأرى دُرجَه الصغير مفتوحًا، فهل قرأت أفكاري بحق؟ ولكن كيف؟! فقد كنتُ أتطلع لمعرفة ما يحتويه الدُّرج قبل مجيئها، يا إلهي! ألن يُريحنِي القدر!

وضعتُ القهوة على الطاولة بجانب الظرف الذي قرأتُ عنوانه؛ فارتعدَت أطرافي..

"هذه المخطوطات إرث من الأب إلى الابن"

تناولَت علياء قهوتها، ثم ارتشفت بنَهم بضعًا منها مُتغنية بمذاقها الجذَّاب دون أن تعلم سرَّها، لأسألها واجمًا:

- كيف أتى ذلك الظرف هنا؟!

لاحَظت توتري غير المُبرر فهو وإن كان مُغلقًا ما زال ورقةً مطوية لا ضرر من الكشف عنها، فلمَ هذا الخوف وتلك الترددات التي تسري في سائر الجسد؟! فتاة مثلها وبروحها الغامضة من الطبيعي أن يلفت انتباهها دُرجٌ في الكومود، ولكن ما الذي يتوجب فعله الآن؟ بالطبع سألَتني عنه وهي لا تعلم كوني أُكافح مليًّا للخلاص من آثار الماضي التي لم أتبيَّنْها بعد، وكانت إجابتي:

- لا أعلم، كان بالشقة عندما أتيت إلى هنا، وصوتٌ داخلي يقول "لا شأن لك به".

ارتشفَت علياء مُجددًا من فنجان القهوة؛ ففعلت مثلها لعل قطع السكر تحترق إلى سُعرات تزيد من شجاعتي لفتحه، لأقترب منه رُويدًا تحت أنظار الفتاة المُندهشة من ذلك الخوف المُحيط بي، ولربما تساءلَت داخل أعماقها "ما الذي أُخفيه عنها؟"، في حقيقة الأمر أبدو مُريبًا نعم، ويحق على نساء العالم الفرار مني، ولكن علياء لم تفعل.

أمسكتُ بالظرف لأقوم بفتحه، وقد شعرتُ بأنَّ أجزاء الردهة بأكملها تترقبني، الكُرسي المهتز، الكومود، العقارب، وبالتأكيد الحطب المشتعل، إلَّا علياء تسترق النظرات فقط وهي تقول "فلتقرأه إذًا".

أخرجت ورقةً مطوية ففردتها؛ لأقرأ مُحتوياتها وقد شعرَت علياء بالرهبة التي تعتليني هالتها عبر حبَّات العرق المتساقطة؛ فاقتربَت ومسّدَت على كتفي قائلة:

- نحن معًا يا صديقي.

أعلم جيدًا بكون ما تفعله حرام شرعًا ودينًا، ذنبُه متأصل ولا طاقة لي به، أمَّا عن ذلك الموقف فلن يُمحَى الذنب نعم، لكنني احتَجتُ لطمأنينتها، وها قد شرعنا سويًا في القراءة...

"بسم الله، البسملة حميدة في مُقدمة الأمور، وما يتلوها هنا ليس سوى شجرة زقوم مكروهة المأكل والشراب..

إن كنتَ تقرأ هذه الصفحات فحتمًا تمتلك لغز الأرقام، مضى على تنفيذ التجربة الأولى عشرات الشهور، والنتيجة كانت سيئة إلى حدٍ كبير، ليعود بعدها صديقنا العبقري بدائرة إن تمكّنْتَ من لضم معانيها فُتِحَت لك أسرار الكون، من إرثٍ نحو إرث تناوَبَ العديد من الأشخاص عبر ذلك المسعى والجميع يعلمون قدر الأرقام، اختفَى صاحب الدائرة وقد أُشيع موته، ولكن الحقيقة تكمنُ في الخفاء؛ فهل أعطى جُموع القوم الطريقة نحو تحضير النفس؟

التجربة الثانية، لم يمت العبقري بعد، ها هو يرسمها مُجددًا ويتلو السطور؛ فقد اعتقدنا كونه طلسمًا وقرابين، ولكن ما العقل والمنطق في دراسة الماورائيات؟ فنحن نبحث عن النفس فقط، وهو وحده قادر على إعطائنا المصفوفة الكامنة للحقيقة، من أين أتَت العوالم؟ وكيف نقبع ونُمسِك بلجام الأمور؟! ويبدو أنَّه اقترب.

التجربة الثالثة، انتهت الدائرة أخيرًا وعمَّ الفزع الأجواء، فلم يعتقد أحدٌ من الرؤساء وجودها، وتبدّلَت الأمور؛ فنحن قادرون الآن على تحضير النفس البشرية، بل وكبح العقول، سيكون لنا في كل بُقعةٍ مكان

وعلى كل أرضٍ أفراد يتعلّمون ويتلقّنُون حتَّى يوم العهد والخروج، سنكون نحن هم وسنعبث حتَّى اللقاء..

الكلمات السابقة تشترك في جميع الخطابات، وما يتبدل هو عناوين الأرض واللقاء، هذا الجواب خاصٌ بالشرق أُرسِل نحو "مصر"؛ لذا أنت صاحب الميعاد، وعليك بالتوجه نحو تلك العناوين الثلاث، وهناك سترى ما لم تبصره عيناك، وتسمع ما لم تلتقطه أذناك، وتشعر بما لم يخطر على قلب بشر!

العناوين...

1. شارع الديوان، حي جاردن سيتي.

2. شارع المهابيل.

3.!!!

نرجو من حامله حفظ العناوين ثم حرق الجواب، ثم دفنه في التراب؛ فبالنار تقوم الساعة، وبالتراب نُبعَث".

انتهيتُ من قراءة الجواب لأرى خيطي الأسود صار غليظًا مُشرَئِبّ الأوصال، وعلى نهايته مساحة سوداء تتظلّل وتستزيد؛ لتُشكل هيأةً مقيتة لا تقدر على تثبيت عينيك تجاهها، ينبغي الهدوء؛ فإن استمر الأمر هكذا سيخرج لا محالة، لأُحول نظري إلى علياء، وهنا كانت الفاجعة...

بجسدٍ مُرتعد وأطراف ترتعش يعقبها نظراتٌ جاحظة ولسانٍ يقول بتردد:

- من تكون؟!

نظرتُ إليها واجمًا لا أدري ماذا حلَّ بها؛ فتذكرت الجواب وسطوره؛ لأقترب منها بصوتي الهادئ:

- ماذا تقصدين؟ أنا وحيد!

بالطبع تر اني شيطانًا الآن، أو عضو داخل منظمةٍ ما، تشعر بالظلمة التي كافحتُ مرارًا من أجل محوها، ولن تُصدق وإن أقسمتُ لها بالعقائد أجمع كوني لا أعلم ماذا تحمل تلك السطور، وها قد بدَت الريبة على أسئلتها الثلاث.. "من أنت؟ ماذا تكون؟ وكيف أتَت تلك السطور إليك؟!".

الكثير من الأسئلة والجواب واحد "لا أعلم"، ولكن على حالتها تلك ستنفجر إن أخبرتها بذلك، ولكن ماذا ينبغي أن أفعل؟ كيف أستطيع اختلاق أمرٍ مجهول الهوية؟ بل وُمرعب الأصل؛ فهل هذا الجواب كان لأبي؟ ما الذي أراده صاحبه؟ ولماذا أبي؟!

وبينما أُفكر مُحلّلًا للأمر تجاوزَتْني علياء مُندفعة قاصدة الباب، وهنا سمعتُ صوتها يقول:

- وداعًا يا وحيد ولتنسَ صلَتِي بك، عابران سبيل و انتهى الأمر.

انفجرَت الأوعية داخل عقلي، نفرَ العرق في جبهتي وتشكّلَت الخيوط السوداء، تكاثرَت وصارت غلظتها طاغية، وها هو الجسد يتشكل، لا.. لا أُريد الآن.

- علياء لا تتركيني، اعتدتُ على الحديث معكِ، أرجوك.

لم تُعِرْني انتباهًا آخذةً حاجياتها لتفتح الباب بعنف، فأدركتها، ونعم.. يا لسوءتي أمسكت يديها بقبضتِي، وبوجهٍ شاحب لتأثير الكائن المُتشكل المُلاصق لي أخذَت الأفكار تتدافع عبر عقلي، لماذا يلعب القدر تلك اللعبة معي؟! لوهلةٍ اعتقدتُها قادرة على نزعي من ظُلمة النفس؛ فلمَ الهجر؟! لا أعلم فحوى الخطاب، ولم أكن لأفتحه من الأصل؛ فأنا مُجرد شاب عادي لا أصل له غير هنا، حيث بدأت وارتحلت، بادرتها مُتحدثًا:

- كُونِي بجانبي وسأترك الجميع لأجلك؛ فتكفيني صداقتك وما أتذوّقه منها، أرجوك.

حقًا لم أُحب علياء، ولا أُكِنّ تلك المشاعر وذاك الخوف من الخسارة، لكنني أُريد وجودها فقط؛ فمعها تذوَّقتُ شيئًا لا أعلم ماهيته وهي الوحيدة التي استطاعَت تحجيم مسعاي وسطوتي، ترقّبتُ حديثها؛ فكانت الثواني مثل السنين التي مرَّت على فسقية مُعطلة حتَّى باشت حلقاتها، لأسمعها تقول:

- حسنًا يا وحيد، اتركني فقط لأذهب الآن على وعدٍ باللقاء، ولا تقلق.. سأُكرر الزيارة؛ فهنالك شيءٌ يخصني تملكُه، وعلياء لا تترك أمانتها بعيدًا عنها، فقط المرَّة القادمة أرجو أن تُخبِرني بالأمر؛ فالفضول يعتريني.

- ما رأيكِ أن نذهب إلى تلك العناوين سويًا حتَّى تتيقّني؟

لمحتُ جحوظ عينيها وصمتها المُريب، ولا أعلم كيف لفظتُ بتلك الكلمات؛ فبهذه الجُملة أكان مقصدي التبيّن أم إجبارها على المكوث معي أطول وقتٍ مُمكن، لأراها تتملص من يدي بوجهها الحسن الذي تُقرّبُه مني وتهمس:

- أرجو ألَّا تكون شيطانًا بحق، سأذهب معك، وداعًا.

رحلَت علياء وانغلق الباب تاركة إيَّاي أُواجه الجسد المتشكل وقلبي ينتفض، استدرتُ متأهبًا لأتجمد وأنا أرى الفراغ فقط، زُجاجة الخمر، كوب القهوة والخطاب اللعين، ولا شيء آخر!

***

أيمتلك المجنون عقلًا يرهب التعذيب مثل العاقل أم أنَّه لا يشعر بشيء؟!

دائمًا ما كان ذلك السؤال محل أرق مُختار الطبيب النفسي، ولم يقدر يومًا على إجابته، حتَّى تلك الحادثة مع وحيد وما تلاها ظُلمة لرجلٍ كافح مُستميتًا للعمل بطريقته الخاصة، ولكن هل يتطلّب النجاح تلك التنازلات بحق؟! وها هو يُقدمها، مرَّ شهرٌ كاملٌ على تلك الواقعة استباح من بعدها مُختار جميع السُبل للظفر بالمريض؛ فمع غياب وحيد للأعراض الجسدية الآلمة له والتي أبعدته عن الساحة لفترةٍ من الوقت أجهزَ مُختار على البقية من الحالات المُستعصية ما بين التعذيب، الشدة وتطبيق الدراسة، ولكن بنحوٍ يخدم أهدافًا شخصية فقط -كما القانون- ببعض كلمات تُطبَّق على من تُريد وكيفما تُريد.

خمسة حالات كاملة لم تنجُ من شَرَكِ مُختار؛ فأقبض على أرواحهم المُهاجرة بوضعها داخل قفصٍ حديدي والخروج بكل شيء، أكان الجنون حقًا أم اختلاق الأمر؟! وصار مُختار محلّ أنظار أساتذته غير مُصدقين النجاح المُلفِت، فهل قام باستبدال هويته أم أحضَرَ مُعينًا؟! في ذلك الوقت الذي كان يقبع هو على كُرسيه بغرفة الأطبَّاء يُفكر مُبتسمًا.. "الآن فقط بدأوا في الاعتراف بي، فهل يمحق نجاح النتيجة مرارة الأسباب؟!".

- الحقد يتوالى عليك يا صديقي من البقية، يتعجّبون لأمر تحوّلك وذلك الصيت الذي اكتسبته جرَّاء الظفر بجميع تلك الحالات.

لا يرفع مُختار عينيه، إنَّما يدفس وجهه بكفّيه العريضتين مُتذكرًا كلمات وحيد: "في غبشة الليل أفِق، قد انفلتت أولى حبَّات عقده، والنهاية قادمة!".

لم تغب تلك العبارة عن خاطره، وبرغم تفوقه المُتصل أراد الظفر به مرةً أُخرى، وقد اقترب الأمر؛ فما هي إلَّا أيام معدودات وسيخرج من بوتقة الحجر الطبي إلى قفصِه هو، لينهض الطبيب مُفكرًا بأنَّه قد تبقَّت

له حالةً واحدة وسيرجع مرةً أُخرى إلى وحيد، وعندها سيظفر به كما غيره.

تبدو أمارات الدهشة على عامر جلية.

- هل تُرادوك الكوابيس مُجددًا؟!

يقف مُختار للحظات مُرتابًا من أمر عقله الذي انكفأ على الحالات مُتجاهلًا انقطاع الكوابيس عنه مُذ انتهت جلساته مع وحيد، فهل يمتلك ذلك الشاب القُدرة على اختراق أحلامه؟ لا لا هذا مُحال، وكانت تلك هي الإجابة التي أرضَى بها نفسه ليُغادر المكتب دون حديث، وصوت صديقه يلحقه:

- تغيَّرتَ بحق يا صديقي.

لم ينزل مُختار إلى الحديقة كعادته في التحدث مع المرضى، إنَّما استبدلها بما أسماها "البوتقة"، وهي غُرفة منعزلة في الطابق الثالث بإحدى البنايات لا أثاث بها سوى منضدة مُهترأة تصدّعت أخشابها؛ فصارت كئيبة المطلع، وكُرسي صغير لا يكفِي لحمل رجلٍ راشد، وإن حدَثَت المُعجزة وفعلَها سيُولّد ضغطًا مُتصلًا على فقرات الظهر، مصباح مُعلَّق بالأعلى ونشارات من الخشب تتناثر حبَّاتها قطعيًا على الأرض المُزدانة بالحصى، فلا تدرِي أهي غُرفةٌ للمرضى أم مصيدة للجرذان!

يجلبُ المُمرّض الحالة الجديدة على مُختار والقديمة بالمشفى، رُبَّما تجاوزَت مُدة مكوث وحيد بسنَوات ولم ينجح أحد في معرفة العلاج.

يجلس مُختار مُنتظرًا قدومها وهو يتذكر ما قرأه في الملف الخاص بها، شابٌ ثقيل الطباع وجهه ليس بالحَسن لأُسرةٍ ميسورة الحال، وهو طالب بُكلية الحقوق، وحينها كان عامه الأخير، أصابه مرضٌ نفسيّ غير مُحدد أكان فصامٌ أم اسكيز، والعجيب في الأمر أنَّه حدث فجأة ودون أسباب،

فقط استيقظ أهله على حالته تلك، ومنذ ذلك الحين وهو قابعٌ هنا يضخّ أهلُه الأموالَ لتوفير سُبل الراحة له لعله ينجو يومًا، وهنا توقّف الطبيب قليلًا أمام جُملة "وجهه ليس بالحَسن"؛ فما المغزى من وضعها؟ ولمَ تُوضع من الأصل؟! فالجميع سيان، وبينما تعبث به أفكارُه سَمِعَ صوت خُطى المُمرض يُعلِنُ عن جلب ضحيته التالية، ليراه مُختار وهو يرتجف، ينظر حوله في ارتياب ليُجلِسه على الكُرسي مُهتّك الفقرات، ثم يُغادر الغرفة بحسب أوامر الطبيب ليخلق حالةً من الفزع مُساوية لتلك التي تجلبها الغرفة على النفس، يعتدل مُختار في جلسته ويبدأ:

- ما الذي حدث معك؟

ينظر له الشاب غير مُبالٍ بالسؤال، يُحوّل أنظاره فقط على الغُرفة، وعينا مُختار تُتابعه عن كثب؛ ليُكرر سؤاله مُجددًا والنتيجة واحدة، ليبتسم وقد استعد جيدًا؛ فيصرخ جاهرًا بصوته فيتردد صداه:

- ما الذي حدث معك أيَّها اللعين؟

تنبثقُ أعين الشاب إلى الأمام غير مُصدق ما حدث للتو؛ فما زالت ترددات الصوت تعصِفُ بأذنيه، ولمَ يسب الطبيب مريضه النفسي من الأصل؟! ليهرع المُمرض إلى البوتقة؛ فيراه مُختار مُكملًا صيحاته:

- ألم أُخبِرك بعدم المجيء طالما لم أرتكب جريمةً هنا؟

يُغادر المُمرض وعلى وجهه أمارات التعجب لحال طبيب كان الرفق سمةً مُتأصلة ومُلاصقة له، والآن يفعل ما لا يُقدِم عليه أحد!

- والآن ما سبب تحوّلك، أنت لست بمريضٍ نفسي، بل تختلق الأمر! فالمجنون لا يخاف ولا يمتلك العقل الذي يُجبره على ذلك، هذه إجابة العلم، والو اقع لن يعكس الأمر، أخبرني ما الذي حدث معك؟ وإن لم

تفعل أُقسِم بأنني سأكون سبب إخراجك من هنا، ستُغادر المشفى إلى الأبد.

ينتفض الشاب عند سماعه لتلك الكلمات، ويبدأ في ترديد:

- لا لا، أنا سالمٌ هنا، لا تفعل، لا لا لا لن أُغادر ولا شأن لك، لا أُريد مساعدة أحد؛ فالعالم بالخارج لا يقوى عليه أمثالنا.

انفرجَت أعين مُختار وقد صدَقَ حدَسُه، وهذا الشاب ليس بمجنون، وقد ساعدته البوتقة في ذلك؛ فهي أداة تكشف له الحقائق قُبيل تحدثه، ودائرة زمن يمر عليها القاصي والداني، فمن سبقوا تلك الحالة قد عانَى مُختار معهم الأمرَّين فقط لجعلهم يبصقون أو لرؤية دموعٍ تهرف بالأنين، أمَّا العاقل فسيجبره عقله على الخضوع لأمارات الخوف، لن يأبَه بمن أمامه وجُلّ حدسه سيُصَبّ ناحية مصدر الخوف وهو مُمتثل للإشارات الكهربائية التي تُريد نزعه بأية طريقة، ليقول:

- إذًا أنت تجلس هُنا بنقود أبويك، ولكن لماذا؟!

يستمر الشاب في مُحاولة التملص من قبضة مُختار، أكان بإعطاء أسبابٍ واهية أو المُتابعة في امتثال الجُذام أمامه؟ ولكن دون جدوى؛ فقد صار مثل عصفورٍ صغير قُصَّت أجنحته وقارب على السلخ إن لم ينصع لأوامر سيده، مُهاترات استغرقَت ساعة كاملة كانت نهايتها انفجار مُختار مُزيحًا كُرسيه وقد انتفخت أوداجه.

- قرار خروجك سيُصدَر اليوم، والتقرير سيُفيد بسلامة حالتك وبشكلٍ تام، وداعًا.

يخطو الطبيب أولى خطواته لمُغادرة البوتقة مُتأهبًا لجلب المُمرض؛ فيسمع همسات الشاب تقول:

- بعثَرَت كرامتي وجعلَت الكون بأكمله وبرغم اتَّساعه ضيّقًا كعنق زجاجة، كنتُ ذليلها وقبل أن أتعافَى لحقني شاب فأجهزعلى ما تبقَّى من عقلي.

توقف مُختارليُحول نظراته مرةً أُخرى نحو الشاب:

- من هي وماذا فعلت؟! هيَّا تحدث يا هشام!

***

أمام مبنى كُلية الحقوق تقف مجموعة من الفتيات وهُنَّ يتسامرْنَ بباطن الغيبة حول كل صغيرةٍ وكبيرةٍ بالجامعة، فؤاد مُرتبط بميَّادة، أحمد يلهو بتسنيم، وسعيد يُرافق مُنَى، وربَّما تعدَّى الأمر للذهاب إلى شقتها، وبالتأكيد لم يلعبوا الكوتشينة فقط بالداخل، وسط الأقاويل تنأَى فتاة واحدة بذهنها شاردة عن الواقع، تُفكروتُراقب الأرواح بعينيها الضيقتين، ليُداهمها صوت صديقتها مازحة:

- يبدو أنَّ هشام نجح في الإطاحة بصمود علياء وثِقَل شأنها.

تحوّلَت الغيبة إلى هرجٍ يتلوه حسرةً على صديقتهنّ التي لم تأبه أو تُناقش، فقط تنتظرهشام ليعفو عنها ويأتي لرؤيتها كما أخبرها بالأمس، وبعد دقائق معدودة ظهر الشاب القصير؛ فخفَتَ قلب علياء مُتّجهة إليه، وقبل أن يلحظ وجودها من الأصل وسط دهشة صديقاتها اللاتي لا يُصدّقنَ ما أمسَت عليه علياء الفتاة التي يتمنى الجميع ولو أن تنظرإليه فقط!

- لماذا تُعاملني هكذا؟! ما الذي أخطأتُ به؛ فمنذ ذلك اليوم حيث دار الحديث الأول بيننا وتغيّرَت طباعك رويدًا رويدًا، فبعدما كنت تهتم لشأني وتحرص على وجودك جانبي صرتُ أنا التي أبحث عنك، أُطاردك وأطمح لإخراج مشاعري المكنونة تجاهك وأنت تتجاهل كل شيء! ولا

تكتفي بذلك، بل تجاوزته لتُقِيم علاقات مع أُخريات وأنا أستمع إلى فتيات وهنَّ يحضرن سيرتك ويتناوبْن على السُخرية من سذاجتي معك.

بأعين بلهاء ورأس لا يتحرك:

- علياء، لا تُضيعي فُرصة قضاء الوقت معي بمِثْل هذا الفكر العقيم، أتغارين بحق؟

"عقيم" كلمة قد تبدو واهنة للبعض، لكنَّها ومع علياء زلزلت أركانها، بل وأطاحت بجُلِّ مشاعرها، إنَّه الحب الأول لها، وبنحوٍ خاص أرادت به الهروب من قدرها وما أجبرتها سُلالتها على الامتثال له، فكيف يكون عقيمًا ما تُريد؟ ألم يُخبِرها الجميع بأنَّ الحب مفادُه التحليق وعنفوان، لا.. بل قُل لهيب الأشجان، فما الذي يحدث هنا؟!

أردف هشام قائلًا:

- ألا تتذكرين ذلك اليوم حيثُ كنتُ وحيدًا مُطاردًا من القوم لا أُريد رؤية أحد إلَّا أنتِ؟ وعندما أخبرتُكِ بأن تأتي إلى شقّتي لنجلس سويًا انقطعَت أخبارك ليومين كاملين مُتجاهلة مسعاي نحو رؤيتك أنتِ فقط، أنا من قمتُ بتمييزك والآن تندبِين نتيجة أفعالك.

لم تُصدّق علياء ما تتلقَّاه آذانها؛ فهي تتذكر جيدًا ذلك اليوم وكيف أخبرته بالنزول والتسكع سويًا بالخارج لنفسيته الناضبة، ليقلب الطاولة هو الآن ويلومها على عدم المجيء إلى بيته! هل كانت تُحب الشيطان؟!

استغلَّ هشام وجوم علياء وأخبرها برحيله مُجبِرًا قلبها على الانتفاض وعقلها على الحث بمنعه، بل والاعتذار له! ولكن نجح الشاب الثقيل في فعلته وغادر تاركًا علياء لأفكارها تعبث بها بعدما أرسَخَ داخل عقلها كونها هي فقط المُذنبة.

أيَّامٌ أُخرى تمضي ما بين شدٍّ وجذب حتى أتى مُفترق الطرق، رسائل تُرسَل ونُطق تفقدُه الفتاة الصغيرة لمدة شهرٍ كامل، تنقطِعُ أخبارها عن الجميع ولا ترى جامعتها ولو ليومٍ واحدٍ فقط، كانت وحيدة في منزلها بالقاهرة بعيدًا عن الأهل، و أيضًا أصدقاء القِدَم، شهرٌ كاملٌ من الحسرة والندم والتردد على الأطبَّاء فقط لأخذ العلاج دون ذكر السبب، لتعود علياء بصلابة جنود طروادة برغم سوء الحصان الخشبي؛ لتبعث إلى هشام الذي احترق شوقًا للمعرفة وأرسل من الرسائل ما تجاوز المئات سعيًا لمعرفة ما ألمَّ بها فقط لإرضاء غروره ليس حُبًّا لها!

- هذه الصور من هاتفك عن الرهان الذي أقمتَه بينك وبين أصدقائك السفهاء حول الإيقاع بي، وها قد نجحت.

يتلقَّى هشام الرسائل كالصاعقة لا يدري كيف الرد ومن أين يختلق الأسباب؟ هو لم يتحصّل على مراده من علياء بعد، ومع قُربه من النجاح تأتي هذه المُصيبة لتوقف كل شيء! الكثير من الحِجَج حول السرقة والبُعد عن تلك الأفعال من شخصِه، ولكن كانت ردود علياء قاسية مُستوحشة، بداخل قلبها بُركان أحرق الجميع وسيستزيد، لم يُصدق هشام أنَّها فقدَت النُطق بحق، وربَّما كانت من أفاعيل النساء المُراهقات تعبيرًا عن الأذى أو إدخال الشعور بالذنب لتُرسِل علياء صورة التقارير له وتُنهي رسائلها بواحدة لم ينسَها الشاب طيلة حياته:

- هشام، سأنتقم منك وممَّن اشتركوا معك، سأخترقك وأعبث بك كما العروس الصغير، بل و أُقسِم على تلطيخ صورتك عمَّا قريب، ولكن تظل حقيقة واحدة رغمًا عن ذلك.. أنَّني ما زلتُ أحبك.

تمتنع علياء عن الرد مُجددًا تاركة هشام في حالة من الذعر، ما بين خشية الانتقام ولوع تأثيره، وعدم قُدرة علياء وإن هددته بكبحه، و أنَّه

سيظل داخلها وسترضخ له في الأخير، وكانت تلك الحيرة سببًا فيما سيحدث من أمورٍتهوى لها الأنفس وتخضع لجانبها الأذهان.

يتوقف هشام عن سرد قصته للدموع التي تهطِل من مُقلتيه، وأمامه الطبيب مُختار عاجزٌ عن تقييم وصفه: أهو شيطانٌ أم مجني عليه؟! فتلك الحال من الذل، الارتعاد، رعشة الأطراف، البُكاء كالأطفال والتمسك بالجلوس في عنابر المجانين، يبدو وأنَّ تلك الـ"علياء" فعلَت به الأفاعيل، ليسمعه يقول:

- صارت ثقيلة لا تُحدثني مهما فعلت، أراها في الجامعة فتنهرني أمام الكبير والصغير، لم تأبَه لأحد، وحياء الأطفال تلاشى بالرد على أصدقائي حينها، بل وسبّهم إن رمش أحدهم تجاهها، كنتُ أسعى للوصل بل ولمُشاركة نشاطات الجامعة سويًا؛ فأبت، بل وتفوقت عليَّ في محافل أُخرى، ورفضَت أن تُصبِح قائدة فوقي؛ فولّدَت بداخلي شعورًا بالنقص، امتنعتُ عن كل النساء وصار مُبتغاي التحدث مع علياء فقط، ولاقيت في سبيله جُلَّ أنواع الذل والمهانة؛ فصار هشام حديث الفِرَق من الأولى إلى الرابعة، ولكن كان ذهني مُعلقًا بكلمتها في الحديث الأخير بيننا "ما زلتُ أُحبك"، ولأجلها تحمّلتُ، حتَّى رضخَت علياء لها ورجعت تُحدثني مُجددًا، ولكن...

هنا صرخ هشام، انتفض وصار يستشعر الخطر، استخدَم أحباله الصوتية بأعتى طاقة لها ليُخبِر مُختار:

- لااااا أُريد مُغادرة المشفى أرجوووووك.

وجمَ وجه مُختار؛ فعلى الرغم من طبيعته المتحجرة إلَّا أنَّه احتفظ ببعضٍ من أصله والذي لم ينضب بعد، وبلسان حال الأسى يُفكر.. هل يتركه الآن ويُتابع في وقتٍ آخر؟ أم أنَّها فُرصة مُتاحة للإجهاز عليه ليقطع

حيرة القرار؟! ظهور حدثٍ أرغم مُختار على ترك حالته وهو يسمع مُمرضًا آخر يدنو منه لاهثًا وهو يقول:

- مُصيبة يا دكتور، العجوز الذي كان يُراقبه المريض "وحيد" في الحديقة شنق نفسه منذ ساعتين، وقد وجدوا جوابًا بجانبه يقول فيه "جريمة قتل".

فزع مُختار ليقف متأهبًا:

- كيف حدث ذلك؟!

***

اليوم الثالث دون علياء...

يقولون بأنَّ الفراق يمر بعناصر مُتفرقة؛ ففي يومه الأول لا تشعر بشيء نتيجة غضب قادر على كبح جماح القلب، أمَّا الثاني فيكون نقطة الخلاص وفحواه سؤال إجابته أستتعدَّى الأمرَ حقًا أم ستقبع في جحيم الذكرى؟ وفي الأخير يأتي دور اليوم الثالث، والنهاية دائمًا وأبدًا ما كانت قاسية على من تعلَّق بصدق.

أقف على البضائع أُدخِل الواحدة تلو الأُخرى بوجهٍ شاحب وعقلٍ يكاد يُجن لماذا لا ترد علياء؟! أتَّصل بها مرارًا فلا تُجيب، أبسبَبِ الجواب وما قرأته؟ ولكن ما ذنب وحيد؟ هي من أخرجته وأنا من أُحاسب! لا ينفطِر قلبي عشقًا لها فقط أُريدها، ما زال الكثير لنتحدّث به عن عاداتها وما ألمَّ بوجدانها، وأنا أيضًا لقد أحيَت بداخلي عُمق الذكرى ومرارة الماضي، وأُريد لفظ الأمر بأكمله؛ فأين هي الآن؟ لا أعلم سوى رقم هاتفها؛ فالاتِّصال والمُراسلات لا تُجدي نفعًا.

وبينما أغرق داخل بؤرة العقل شعرتُ بأحدهم يمسّد على كتفي؛ فانتفضتُ مذعورًا، لأراه يحيى يقول مازحًا:

- أخِلْتَني عفريتًا أم ماذا؟ لستَ على ما يُرام يا صديقي.

رجعتُ إلى العمل أنتظر عميلًا آخر لإدخال بضاعته مُتجنّبًا النظر في أعين يحيى؛ فكيف يراني أحد بتلك الشاكلة من الهوان وأنا وحيد؟! تركني الصديق دون مُتابعة حديثه، واستمر العمل حتى انتصف الليل، ولا أُخفي الأمر.. كنتُ أُراقب الجميع لعلي أراها، ألحَظ قِصَر قامتها ووجنتيها، وبالطبع فشلت؛ فلم تأتِ علياء أبدًا.

ها أنا أُغادر الـ"هايبر"، وكما اليومين السابقين دون وداع أحد؛ فقد استزدت فوق عُزلتي عُزلةً، وقبل أن أجد مُواصلة إلى بيتي تلقّيتُ لكمةً موحشة أدارَت وجهي خمسة وأربعين درجةً إلى الخلف، وصياحٌ يتبعها:

- تركتُكَ؛ فصِرتَ عبدًا للذكرى مُتناسيًا الحياة.

نظرتُ إلى يحيى وقد نفرَت عروقه واحمرَّ وجهه، ولكم وددتُ قتله الآن على فعلته تلك؛ فكيف يضربني؟! كيف فكَّر حتى في الأمر؟! كان الحل هو التجاهل واستمرار الصمت؛ فحوّلتُ وجهي تجاه الطريق ألتمس عربةً تُخلصني؛ فقد سئمت المكوث وأُريد منزلي بأية طريقة.

- من لم أقدر على قراءة جبهته فهو الخطر.

"الخطر"! لقبٌ يليق على تلك الـ"علياء" وروحها المُظلمة؛ فهي قادرة على إتلاف روحك ولو حتى بقليلٍ من القُرب، ثمَّ تتجاوزك كأنَّك لم تكن، قليلٌ من الوقت معها كان كافيًا لمعرفة جُلَّ الأمر، لأرى نظرات يحيى تنطق قبل شفتيه تُخبرني بعدم وجود ضررٍ في البُكاء إن ألمَّ بنا الفراق؛ فدائمًا ما كانت الدموع مخرجَ الكبت والحنق، بدايةٌ إلى نهايةٍ قاسية اعتصرَت الكاهل ومزّقَتْه إربًا.

"يحيى" بحق صديقٌ لا تقرأ عنه في أمَّهات الكتب؛ فهو يعلم جيدًا أنني وحيد الذي لا يبكي، وإن كان السبب صديق، أهل أو حبيب، لم يستزِد في

النُصح والكلمات المُبعثرة من أجل إرجاعي؛ فهذا لا طائل منه، واكتفى فقط بالتأثير بنظراته الحنون، وأُجزِم بأنَّه لم يُلقها عبثًا، فقط فعلها ليُحييني من جديد.

- شكرًا لك.

اكتفيتُ بتلك الجُملة وتبعتُها بلكمةٍ مُوجّهَة إلى وسط رأسه؛ فخرَّت الدماء من أنفه مُتراجعًا خطوتين إلى الوراء جاحظ العينين يترقب كلماتي.

- كنتَ تستطيع فعل ذلك دون أن تكسر لي أسناني أيَّها الأحمق.

ها أنا الآن على أعتاب المنزل أسيرُ في الشارع المؤدي إليه بعدما عمَّه السكون مُتذكرًا سبَابَ يحيى، وكيف كان وسيلة دفاعٍ عنه؛ لأسمع صوتًا أعلم نبرته جيدًا:

- أخبرتك بالرحيل مرارًا والعودة فلم تستمع، والآن بدأت أولى سلاسل النفس، وحبَّاتها ستنفَكّ الواحدة تلو الأُخرى ولن نقدر على إيقافك.

كُلَّما مرَّت الأيام صارت كلمات العجوز أكثر ريبة وامتعاضًا من النفس، ولم أكن في حال يسمح لي حتَّى بُمجادلتها؛ فما الذي أيقظها لذلك الوقت المتأخر؟ ومن ذا الذي سيبتاع منها في غبشة الليل وأجوائه الباردة تلك؟ نظرتُ إليها فوجدتها هزيلة قد برزَت عظامها عبر كومة اللحم المُغطاة؛ فاشمأزّت نفسي على حالها وتركتُها وبداخلي أمران؛ أحدهما المُساعدة مُشفقًا على جلوسها بتلك الحال، والثاني رُبَّما كان تطلعًا إلى موتها والخلاص من ذلك الخوف الذي تدثرني به كُلَّما لقيتُها طيلة تلك الأشهر.

بعدما أزحتُ أقفال باب المنزل ولجْتُ مُشعلًا الحطب على الفور؛ فقد صارَت عادة أستَأنِس لها، ولم أخلع سوى الحذاء فقط، لأجلس بعدها

على الكُرسي المهتز، وعلى نغمات عقارب الساعة انتعشت طيَّات الذكرى ويوم كانت علياء هنا.. قُصر قامتها، عنفوانها النفسي، جسدها الفاتن وثِقَل شخصيتها؛ فلم تكن كغيرها من النساء، ومَن تلك التي تعبث بوحيد وتُخرِج منه كلمات الماضي السحيق، بل وتُعمِل عقله على التذكر! نازعَتْني نفسي في ذِكرِي لجسدها؛ فهل صرتُ رجلًا عربيدًا أتوقّف لمفاتن المرأة؛ فنهرتها أُخرى تُخبرها بكوني أتفحّص فقط أثر تحركاتها الجسدية ونتائجها على نَفْس من يُعاملها، وما بين هذا وذاك أجلسُ حائرًا وصوتٌ يكاد يُهتِّك أضلعي مفاده "أريد علياء".

لن تسقط دموعي ولكنني أُريدها، عرفتُها قدرًا فلماذا لا يكتمل؟ أُريد الحديث أكثر، البوح أكثر، وأن تُحررني من ضيق نفسي وتقلّباتها، سأذكر لها مساوئي ومحاسني، أقسم بأنني سأقسو على عقلي معها ليُخبرها بجُلَّ أمري، و أيضًا أن أستمع إليها وإلى حديث نفسها.. إلى تلك الروح المشتعلة بالغضب وما ألمَّ بها، أُريدها وبأي ثمن؛ فلأول مرة لم أسمع صوت الزواحف وقتما كانت هنا معي بداخل شقتي، لم أخشَ شيئًا وشعرتُ بالأمان، نعم أنا الرجل وشعرتُ به، فهل أجلب فتاة أُخرى لتؤدي دورها؟ بل وستجعلني أخوض معها، ااااه، ماذا حلَّ بك يا وحيد؟! أنسيت ربَّك والدين؟ أستُلقي بنفسك إلى جهنَّم لأجل فتاة دام وجودها أيامًا معدودات؟! كانت الأفكار تعبث بعقلي كعُصفورٍ صغير خشِي الوقوف على إفريز نافذة، لكنه فعل وتم صيده بنجاح! وقفتُ مُستشيط الغضب، وضربتُ قدمي بالطاولة؛ فاهتزت، وهنا ارتعدَت أطرافي و أنا أرى على ضوء اللهب المُشتعل زُجاجة الخمر قد امتلأت عن آخرها مُجددًا، وبداخلها وُريقة بيضاء صغيرة تسبح بين أمواج النبيذ المُتعفّن، بدايات خيطٍ أسود أعرفُه جيدًا، وصوت حشرجة قادمٌ من الدهليز، عقربٌ أم ثُعبان؟! على يد مَن سألقَى حتفي اليوم كما لاقاه أبواي بالأمس البعيد، لأشعر باهتزازات غُرفة الردهة، بل قُل غرفة الجد! بعدما تذكّرتُ ما

حدث، سرتُ بخطواتٍ مُرتابة نحو زُجاجة الخمر، وأشعر داخلي بأنَّه متى مددتُ يدي لألتقِطَها ستُقطَع على يدِ كائنٍ ممَّن أسمع أصواتهم الآن، وها أنا على مشارف الحدث..

"متى امتلأَت تلك الزُجاجة بالنبيذ؟!" كان هذا السؤال مُلازمًا دون إجابةٍ تُذكَر، حالُه كحال القطة الميتة، الأرقام والأصوات المُتعطشة لسَحق الأرواح؛ لذا أمسكتُ بالزُجاجة أخيرًا أُقلِّبها لعلي أقرأ مُحتوى الوريقة، لكنَّها كانت مطوية تُخفي معالمها عن ناظري؛ فتحتَّمَ عليّ إفراغ السائل لأصل لها، وهنا وقفت بين أمرين؛ أين سأفعلها؟ هل أسكب السائل في معدتي لترتوي أم بالداخل في الحوض؟! وقفتُ لحظات أتأمل، ليخترق أُذنيّ صوتٌ هامسٌ، صوتٌ أتاحت لي الذكرى تبيّنه:

"الإرث من الأب إلى الابن، ألم يُخبرونا بأنَّ آدم أبو البشر وجميعنا أبناء، مُصطلحٌ شاملٌ يا وحيد؛ فلماذا لا يكون الحفيد ابنًا فعليًا للجد عوضًا عن صُلبه على الورق؟!".

دائمًا ما كانت الهمسات أكثر سطوًا ووغرًا بالنفس عن الصيحات، تجري من العروق مجرى الدم؛ فتنغس العقل بمِخْيَط تشلّ به أطر افه، لا أدري كيف أقف الآن أسكب مُقتنيات زُجاجة الخمر على سجَّاد الرُدهة مُتلذذًا يتساقط اللُعاب من الشدق مُتتابعًا، حتَّى أفرغتُ السائل بأكمله، غير بضعة قطرات امتزجت بالوريقة، لأدفعها خارجًا؛ فتسقط على كف يدي، وهنا بدأت دقَّات القلب تتسارع بلسان حال، أنهِ ذاك الغموض و اقرأ الآن...

"كان (تسلا) بيدقًا ثائرًا أتاح للملِك الفوز على رقعة الشطرنج"

بُمجرد أن نقل العصب البصري إشاراته إلى المُخ مُخبرًا إيَّاه بذلك الاسم حتَّى استشاط و انفجرت ومضاته، تشَكّل الخيط الأسود دون إنذار، وعلى طرف نهايته ارتسم شكلٌ مُظلمٌ تخرج منه همساتٌ أُخرى؛

لأسقط على الأرض جالسًا القُرفصاء، "علياء، أين أنتِ؟! أُريدك الآن، لا أستطيع الخوض في ذلك وحيدًا، عليـــــاء"!

الظُلمة المُتشكّلة على نهاية الخيط باتت قريبة، وبطرف عيني لمحتُ وجهًا أُدرِك ماهيته برغم وحشيته، إنَّها والدتي.. تنظر لي بأعينٍ مُلتهبة، تهمس بصوتٍ أجش... "بُني وحــــيد".

ما زلتُ في التاسعة، وها أنا على أعتاب مُباراةٍ ملحمية أخوضُها رفقة صُحبة الشارع الحميدة.

عددُنا تسعة يتلاحَم ثمانيّتنا للظفر بالكُرة، والتَعِس الأخير هو الحارس، أو كما يقولون "جون مشترك"، وبالطبع تعلمون من أكون بينهم؟ ولكن لا بأس؛ فتلك النشوة لا تنطفئ، وبرغم افتقاري لمهارة اللاعب امتلَكتُ صلابة الجماد؛ فلن تمر الكرة وإن كانت روحي ثمنًا لذلك، لن يدخل الهدف أبدًا، ها هم يُراوغون بعضهم البعض، أحدُهم يخسر حذاءَه والآخر تُمزَّق ملابسه، وعينٌ واحدة تترقّب كل ذلك الألم للوصول إليَّ؛ فورائي كنزٌ من يغتنمه ستُدَقّ له الطبول كفارسٍ اقتنص المعركة، كنتُ أطمح في المزيد من السقوط والجراح، الكَلِم والأَسَى، أُريد أن أتسبّب في ذلك بعد كل هذا العناء، وكانت تلك هي مرّتي الثانية لرؤيته، ذلك الكائن القاتم والذي ظهر من العدم، شريطٌ أسودُ يصِلني به، وها هو ينظر نحوي جامدًا بلا تصنيف؛ أكان شيطانًا أم روحي المعذبة؟! اقترب مني ببطء، والعجيب هو عجز اللسان عن الصراخ، أليسَت الصيحات وسيلة الطفل الأولى للدفاع عن نفسه؟ بل والهجوم على فريسته؛ فلماذا إذًا؟! لم أفِق سوى على تلك الغوغاء التي تنُمّ عن فقدان عذريتي بإسكان الكُرة الشباك متجاوزة إيَّاي، وهنا اختفى كل شيء.

انتهى اليوم وانقضَت الساعات برجُلٍ من الباعة وهو يضربُ أحدنا بمِكنَسته بعدما أطاح بالكرة بعيدًا، كعادة مُتأصّلة يُعاني منها لاعبو كرة الشارع، وقد آن أوان الرجوع، أزحَفُ داخل حذاءِي المُتهتّك، وأعلاه عقلٌ تزحف إليه أيضًا أفكار الجَدّ، ما الذي يعنيه بكوني قاتلًا؟ وما هو القتل من الأصل؟! مُنذ عيد ميلادي وصار مُتوحّشًا يستزيد من جلوسه معي، برغم نفور أبي وحيطته، وعلى النقيض والدتي بطباعها الحسنة كانت ترْفُق به وتحثني على الانصياع لأوامره، فعلى ما أتذكّر تبريرها "رجلٌ قعيد لا يمتَلكُ الكثير من الوقت بيننا"، وما بين قمع والدي وشفقة الوالدة جلستُ معه، وبدأ مُسلسلٌ من اللاوعي عن عباراتٍ لم أتبيّنها؛ فكانت غليظة مشوّبةً بالحنق، ولا أدري لمَ اختار طفلًا صغيرًا ليُلقي بأسهمه نحوه؟! وها أنا على مشارف المنزل بعدما حاولتُ جاهدًا فصل بُقعة الطين عن البنطال؛ فبسببها قد أمتَنِع عن اللعب مدة أسبوعٍ كاملٍ، ويبدو أنَّني نجحت.

دخلتُ شقتنا، ودائمًا ما كانت بوتقة الحطب تُرهِبني بجانب صوت عقارب الساعة المُعلقة بجانبها، وبعد توبيخ والدتي حول الثياب رغم مسعاي ذهبتُ إلى المطبخ لإعداد الطعام ريثما يعود أبي من عمله، فكان موظفًا في الضرائب، بالتأكيد يمقته جميع أفراد الشعب عدا المسؤول، مررتُ أمام الغُرفة عبر الرُدهة، لأسمع صوتًا يُخاطب مسامعي:

- تعالَ يا وحيد، فقد افتقدتُكَ كثيرًا.

لكَم أردتُ المُضي حينها، ولكن لم أقدر؛ فللجَدّ سطوةٌ لا تقدِرُ على التملص من بين ثناياتها؛ لأُزيح باب غرفته وأدخل مُرتابًا، فعلى غرار جميع الجلسات معه لم تكن النار مشتعلة، فقط ضوءٌ خافتٌ من الشمس يُنير بقاع الغُرفة، ليشرع في البدء مُتجاهلًا إرهاق الجسد ورائحة العرق:

- وحيد، أحضِر لي تلك اللوحة الصغيرة القابعة على الطاولة.

ذهبتُ لجلبها واختلَستُ نظرةً سريعة لما رُسِمَ عليها؛ فوجدتها دائرة فقط دون شيءٍ آخر، لأُعطيها له وهو ينأى بها بعيدًا عن ناظري لدرجةٍ شكّكَتني هل ما اختلسته من النظر كان الحقيقة أم أنَّني غفلتُ عن تفحصها جيدًا؛ ليبدأ بعدها في الحديث:

- هل تراه؟

جحظَت عيناي كناية عن الجهل.

ابتسم؛ فصارت تجاعيد وجهه أكثر بروزًا:

- أخبرك بأنَّك القاتل أم لا؟ لا يهم؛ قد أتى ميعاد قراءتِك ل قصةٍ يا وحيد مُخبأة بين طيَّات اللوحة داخل ظرفٍ أبيض اللون، لتقرأها الآن واجتهد في فَهم الكلمات.

"قديمًا عاش رجلٌ ذائع الصيت، كانت بدايته عصيبة؛ فعلى الرغم من نبوغ عقله واتَّساع مداركه لقبول مفاتيح الكون لم يلقَ سوى الهجوم والبغض من أسلافه، أسلافه هؤلاء كانوا أذكياء بقدرٍ لا يُدركون به نبوغه، لكنهم امتلكوا ما لم يقوَ عليه.. "السُلطة"، وليس ذلك فقط، إنَّما رزانة التأثير على عقول الناس بالخطابات، صديقنا العبقري كان شابًا ما زال في مُقتبل العمر، لا يُشغِل باله سوى بالعلم، ولا يُدرِك ما الطريقة للولوجِ إلى العقول غير وريقات البحث والمُعادلات، ومع ذلك استطاع التفوّق على الثوابت وعُلماء عصره بالتجارب وإخراج أفكارٍ كانت بذرة خصبة لما صرنا عليه، ومنها تلك الكهرباء التي تعيشون عليها اليوم، بل وتُمجّدونها، قصة كفاح بحق؛ فقد مرَّ بالكثير وامتعض على وجُودِه كبار الساسة؛ فحتَّى هم لا يعنيهم مُبتغى العلم على قدر أن يكون المصدر أقلامهم وعقولهم المُستنيرة، وإعمالًا بمقولة "لا جائزة دون شقاء" كافح صديقُنا الشاب، وامتصَّ من فشله طاقةً لإخراج نجاحاته، حتَّى صار أشهر العُلماء وأكثرهم نبوغًا، وهُنا مفترق الطرق.. متى بدأ

شخصُك في اللمعان والسطوع وجب عليك الحذر؛ فحتمًا ستتطلّع إلى فعلةٍ تجعل منك ذكرى لا يغفلها عقل ويعجز عن محوها لسان مُتّخذًا كافة السُبل لتحقيق ذلك، وصديقنا نجح مرتين؛ الأولى كانت تجربة تُدعى "فيلاديلفيا" أظن بأنَّ جموع الكُتَّاب والمُفكرين استفاضوا في شرحها، بل وإصدار كُتبٍ خاصة عن المأساة التي ألمّت برُكَّاب السفينة المشؤومة، وكيف صارت أجسادهم مُلاصقة للسطح واختفى البعض دون رجعة بعد تسليط شُعاعٍ من الضوء، ولكن إلى مَن يقرأ خطابي.. لا تظن بأنَّني سأُعطيك ما يعلمه الجميع؛ فبقراءتك تلك صِرتَ مُميزًا في حقبة قائد المنارة، كان لذلك العالم المُبَجّل تجربةً أُخرى أقلَّ صيتًا وأعمق نفوذًا فحواها "استحضار النفس"، وشموليتها طالت الحياة بأكملها بكافة الوظائف وشتَّى البقاع، بِضعُ الأحاجي إن قُمتَ بفكّ شيفرتها امتلَكْت الروح ومن رافقها، إلى القائد، الطبيب، رجل المُخابرات، العالم والمُعلّم، حتَّى إليك أيّها الساحر، وأنت يا صاحب التأمل في الملكوت، إليكم جميعًا السر الذي قتلَ صاحبه، وبه تَمّ إخفاء جُثة العالم العجوز عن أعين البشر، وبالتأكيد قُبيل موته كان يتذكّر نفسَه شابًا ما زال يركض، فقط لتحقيق أول نظرية اختبار تيار مُترددٍ في التاريخ....."

انتهيتُ من القراءة وإن لم أفهم الكثير؛ فقد ولجَت الكلمات إلى رأسي لتُحفّز الشجن على النهوض مُجددًا بعنفوانٍ وحَثّ على فهم مغزى الكلمات، نعم صغير وليدُ التاسعة فقط، ولكن أشعر بتلاحمٍ واشتياق لمعرفة المزيد، ليردف جدي قائلًا:

- نعم أنت القاتل.. كُرة الشارع لا تُناسبك يا صغيري.

رجعتُ خطوتين إلى الوراء ولا أدري كيف أصابتني الحكَّة بمُقلتي العين؟ فأدرت وجهي ناحية إحدى مرايا الغُرفة؛ فانزعجت لرؤيتها

مُلتهبتين تختلطان بشر ايين حمراء، ولم يَظْهر الخيط الأسود على المرآة، ليُهاجمني جدي مُجددًا بكلماته:

- يا صغيري، يبدو أنَّ الإبصار سيصبو إليك؛ فأنت الابن والحفيد.

- جدي، أنا لا أفهم شيئًا.

كانت تلك العبارة وليدة القلب المُرتعد والوحيدة التي لفظتُ بها، أُريد البكاء، فكيف ولماذا آلت الأمور إلى هذا النحو؟ نعم كانت تلك الكلمات المُستخدمة في التساؤل هي مُتلازمتي، وبدايتها أمام الجد.

اقترب بكُرسيِّه ذي العجلات الأربعة وهو يُردد:

- نحن أرواحٌ هائمة وجب عليها المعرفة لكشف حقيقة ذلك العالم المُوحش يا صغيري، سأكون بجانبك دومًا.

انفجرتُ أخيرًا؛ فسقطت الدموع عبر العين تجر بعضها بعضًا بعدما حاولتُ زمَّها عن البوح والبكاء، شهقةٌ خجلتُ منها أمام ذلك الرجل المهيب، ولكن لماذا؟! ألستُ طفلًا؟! تلك الريبةُ المُسيطرة على الأجواء بذلك البيت اللعين، و أين الحنان والاحتواء؟ أين تلك الـ"ياء" التي تنتهي بها الكلمات؛ فتُضيف المِلكِيّة لصاحبها، ولماذا أسمعها من جدي الآن "صغيري"؟! هل أنا صغيره بالفعل؟! اااه أصواتٌ لا أعلم مصدرها تُحيط بكاهلي؛ فأين أُمي تدثرني بعطفها، وقبل أن تتبع انفجارات الدموع صيحات الصوت المبحُوح دثّرَني جدي إليه؛ فاحتضنني بساعده ضامًا إيَّاي نحو صدره، حتى كتم الصيحات وصار لُعابي يهطل على قميصه المُهندم، يمسّد على شعري الأكرت ويقول:

- لا تقلق يا تلميذي النجيب، أنت القاتل نعم، لكنني سأحميك، العالِم الشاب الذي تحدَّث عنه الخطاب هو نفسه العجوز الذي لم يرَ أحدًا جُثته، كان يُدعى "تسلا".

هنا تسارعَت دقَّات القلب وارتجفَت أوصالي بجحوظ عينين حمراوين، قلتُ بصوتٍ خافتٍ متلعثم:

- أنا القاتل، فلا تتركني يا جدي، أرجوك.

***

ملكٌ مُنشغل بميلاد وليّ عهده، احتفالات داخل القصر الملكي مُنفصلة عن أرض المعركة، قلقٌ دفين من السُلطات عن تنظيمٍ سريّ لم يَكشِف عن أنيابه بعد، خبايا تثور لتلتحم أركانها بين السكنات، إلغاء مُعاهدة 36 في مجلس النوَّاب وسفيرٌ بريطاني يمد وزارة خارجيته بتقاريرٍ سرية عن الوضع الحالي للمحروسة والبلاد، جميعها اتّفقَت على نتيجةٍ واحدة؛ ألا وهي حرق العاصمة!

بعد حادثة الاسماعيلية وشُهداء البوليس الأجلَّاء اشتعلت المُظاهرات في كل صوبٍ وحدب حتى طالت القاهرة؛ فهي القلب الذي يستزيد في ضخ الدماء وقتما حلَّ بأحد الأعضاء شللٌ ما، لم تقتَصِر على الشعب فقط، إنَّما طالت أفراد من بلوكات البوليس الذين انضمّوا إلى المظاهرات تنديدًا لما حدث لزملائهم؛ لتتَّسع المُظاهرات نحو جامعة "فؤاد الأول"؛ فثار طُلَّابها جميعًا في مشهدٍ ملحميّ ينُمُّ عن قوة الشعب وإرادة التغيير؛ فهذا الشعب يأبى أن يحكمَه ظالمٌ أو أن يعبث بعقله المنافقون، انجرف الجميع ليصلوا إلى ميدان "الأوبرا"، وتحديدًا عند تمثال "إبراهيم باشا" بقلب المدينة، وهنالك -وتحديدًا الثانية عشر والنصف ظهرًا- بدت معالم النيران بارزة، ولم يكن يعلم أحد حينها بما ستؤول إليه الأمور.

مبنى يحوي داخله كازينو "ملهى بديعة" صار أولى أمارات الحريق؛ فاشتعل عن بكرة أبيه، تلاه ملهى "صفية حلمي"، ثم سينما "أوبرا" في مشهدٍ يبدو للوهلة الأولى يسهُل السيطرة عليه، ولكن وخلال ساعاتٍ قليلة امتَدَّت الحرائق لتطول أربعين دار عرض سينمائي، مثل "بلازا،

كليبر، هوليوود شارع فاروق، وسينما البسفور ميدان محطة مصر" وغيرهم، وهنا ظلَّت الجموع تثور دون دراية عمَّا يُحيط بهم من أهوال؛ فاستمرت الشُعلات في الانتشار كما الحناجر تأبى الصمت والخضوع، دار السينما صارَت 13 فندقًا كبيرًا، 92 حانة خمور، 16 ناديًا، وإلى جانب أعداد كبيرة من المقاهي ومحال وبيوت وشركات، جميعها اتَّفقت على بيانٍ واحد.. "انتهكَ أعراضَنا لهيبُ الغدر".

تحرَّكت المؤسسات، ولِنكون أكثر دقة تحركت المطافئ فقط في مُحاولة بائسة لإخماد الاشتعال، ولكن حدث ما لم يخطر على بال، جميع مُحاولات هؤلاء باءت بالفشل لمنع العربات من الوصول إلى مكان الحريق، أو بالأحرى لاختلاق سُبلًا لردعهم، وعمَّت الكارثة.. القاهرة تشتعل (فتمَّ إحراق 750 مؤسسة وتدمير 400 مبنى بالكامل)؛ فماذا عن الضحايا؟!

على صعيدٍ آخر وداخل منزل "إسماعيل" يجلس الرجل الهَرِم وقد سال الزبد من بين شدقيه، مُحاطًا بحفنةٍ من الرجال يرتشفون الشاي الساخن مُتبرمين ممَّا يحدث بالعاصمة، يتناوبون فيما بينهم عن الأسباب، مُلقِين على مسامعهم حديث العامة من قلب الحدث؛ فيقول أحدهم مسترقًا لانتباه الآخرين:

- سيفْقِدُ الآلاف وظائفهم جرَّاء ما حدث.

يُقاطعه آخر وقد نفر العرق في جبينه:

- القتلى أمسوا أربعين، والإصابات طالت المئات، و أنت تتحدث عن الوظائف الآن! أي الرجال أنت؟!

تدافع البقية فرُسِّخَت عواميد المُظاهرات داخل منزل إسماعيل شاب الثورة وقعيد العُمر، وهو يزمُّ فكَّيه مُستاءً، حتَّى استمع إلى

صرخاتٍ قادمة من زوجته مفادها "اختفى ولدي، أين هو؟! أين الغضنفر؟! هل ذهب إلى المُظاهرات وحيدًا؟ يا ويلتي يا ويلتي".

كان الغضنفر اسمًا أطلقه إسماعيل على ولده الصغير صاحب التسع سنوات نيةً منه لجعله الرجل الذي يُحرر بلاده من الإنجليز والاستعمار، حتَّى نسي الولد اسمَه الحقيقي مع الوقت، وتناساه الجميع.

توقّفَت المُشاحنات ودبَّ الأدرينالين في الجسد الآخذ في الأفول، ليصل إسماعيل إلى زوجته في الطابق الثاني، وفي ثوانٍ معدودات؛ فيراها حاسرة الرأس خاضبة الكف وبجانبها بناته ينهرنها مُتظاهرات بالبحث والقلق في مشهدٍ تفتّتَ كبد إسماعيل له كمدًا، ولسانٌ ثَقُلَ بيانه يقول:

- أين ولدي الغضنفر؟!!

على مقربةٍ من الحشود وقد قاربت ساعة العاصمة على الثالثة عصرًا، بلغ الذُعر أرجاء الشوارع والميادين، تبَعثرت طرابيش القوم، عمَّ الهرج والمرج وباحت الأصوات بكلماتٍ مفادها "النجدة" مُتناسية الثورة والمُطالبة بالثأر، الانفجارات اتَّسع مداها ليشمل الأُفق، ورهبة الموت استحوذَت على العقول؛ فطالت القاصي والداني، إلَّا البعض الذين تذوّقُوا طعم الثورة، وأمسوا عالقين بأحبالها وإن ذبلت، وهانت وكان من بينهم الطفل الصغير "الغضنفر" يسير بقامته القصيرة وهو يُبصِر الأرجل المُهرولة، وترفض حنجرته البوح سوى بالقصاص من الاستعمار مُتذكرًا الحديث الذي أودى به إلى هنا...

***

الحادية عشر صباحًا..

على طاولة الطعام جلس الطفل الصغير مُحاطًا بأخواته البنات الذين يكبُرْنَه بسنواتٍ كُثر، يُلاعبنه مُتودّدات إليه وهو يتملص منهنَّ

مُحاولًا الاستماع إلى ما يقوله الكبار عن الأحداث، وهل بالفعل ستحمل أرحام الشوارعِ جنين الثورة اليوم؟!

- ما بك يا أخي الصغير؟

نظر الفتى نحو مصدر الصوت؛ فيجده أخته الكُبرى، تبتسم له وتنتظر إجابته.

- لا شيء، أُريد الاستماع لما يقوله أبي مع أصدقائه.

أخبرته بأنَّهم يتحدثون عن اندلاع بشائر الثورة اليوم في غضون ساعة على الأكثر، وبحنكتها المعهودة قرَّبَت إلى نفسه شعورًا بالضيق جرَّاء إبعاد والدهم إيَّاه عن قلب الحدث وهو رجلٌ مثلهم.

ازدرد الفتى ريقه؛ فهو وإن صَغُر سنه فقد كَبُرَ مقته للاستعمار لما عَلِمه عن سيرة أبيه ونضاله أيَّام الزعيم، فتمنى لو كان له من الحصاد أردبة يتفاخر بها كما يسمع الأقاويل عن والده المُناضل؟ مطَّ شفتيه وعجز عن الرد، وقد بدر على جبينه علامات الأسى، لتردف أخته قائلة:

- نحن نفتخر بك، نرى في طلعتِك زعيمًا جديدًا نستنشق على إثره أريج الحرية، يحتاج فقط إلى البداية، وما بعدها سيأتي إليه زحفًا.

لم ترمش أعين الطفل الصغير وهو يُبصِر حديث أخته الكُبرى، وقد نغس مخه بمخيط؛ فعبر شدقيه إلى الصدر.

- وكيف أحصل على البداية؟

أمام أنظاره رأى أخواته يتشاوَرْن في أمره؛ فأحسَّ بالرهبة، وعندما لاحظَت أخته الكُبرى ذلك باغتته بجملةٍ كانت الفاصلة:

- لتذهب إلى ميدان الأوبرا، وهنالك سترى الثورة وتكون بذلك أبْرَمْتَ عقدًا لكونك زعيمًا في سنك الصغير، تهتف بأقصى طاقةٍ لديك، وستعلم جميع الأرواح بأنَّك "الغضنفر" على حق.

استثارت روح الفتى وبرزت أنيابه الصغيرة؛ فنهض مُتجهًا إلى الطابق الأرضي قاصدًا والده ليُخبره بذهابه؛ فباغتته أيدي أخواته تدفعنه عن ذلك، فتقترب منه إحداهن هامسة داخل أذنيه:

- إن ذهبتَ إلى والدي فلن تجد سوى الجفاء والنهر وقد يُعاقبك، اذهب دون إخبار أحد واندَثِر بذرَّات أتربة الميادين، ثم أقدِم وقد نلت شرفًا عجزوالدنا عنه.

"دائمًا ما كانت الهمسات أغوَر من الصيحات وأبرز تأثيرًا"، وهذا ما حدث، أعطَيْنَه نقودًا ليستقل مُواصلة نحو الميدان مُشدَّدات على كتمان الأمر، مُتفاخراتٍ به بعدما أوحينَ له بكينونته في المستقبل القريب.

***

"الاستقلال التام أو الموت الزئام"، كانت تلك الصيحات الخافتة ما قَوِيَت عليه حنجرة طفلٍ صغير تشبَّع ببطولات والده أيَّام الزعيم؛ فاقتبس منها العبارات وإن لم تُلائم الحدث، الدقائق كانت فاصلة، ومع دويّ أصوات الانفجارات وهرع الأرواح دبَّت أمارات الارتعاد على وجه الصغير؛ لتُملِّص منه روح الشجاعة والإقدام؛ فتتبدل بأُخرى تنُمّ عن طبيعته وعمره، ألا وهي البحث عن الأمان؛ فسبقت الدموع عينيه وانكتمت مُطالباته بالحُرية فصارت "أبي، أمي أين أنتما؟ النجدة النجدة!"، لم يأبه له أحد ولن تنصت لمخاوفه أرواح؛ فما يحدث بالشوارع من حرائق وفوضى يوحي بكونه يوم الحشر، حيث يُحاسَب كل امرئ عمَّا اقترفَت يداه؛ فما ذنب الصغير؟!

يسير وقد أنهكه التعب لاعنًا رجل المُواصلات الذي لم ينهره وقَبِلَ بتوصيله إلى هنا متى رأى النقود التي معه، حاول ساعيًا لجذب سُترة الرجال، فلم يشعر لأصابعه الصغيرة أحد، وإن حدث قذفوه بعيدًا؛ فالكُل يبحث عن ذويه، وبينما تُظلِم الدنيا في أعين الطفل وإن كانت الشمس بارزة، هان وضعف كاهله؛ فظنَّ بأنَّها النهاية، أحسَّ بأيدٍ رفيقة بيضاء تنتزعه من بين الحشود، ليرى وعلى أشعة الشمس الحارقة طربوشًا مُزدانًا بالكر انيش، ووجهًا حسنًا يبدو عليه العجز يقول له:

- كيف وصلت إلى هنا يا صغيري؟!

.***

اليوم السادس دون علياء...

"لا تنقطع عن المُخدرات مرةً واحدة".

تلك العبارة هي فحوى أي طبيب يُعالج الإدمان؛ فلا عقل في الترك المُفاجئ، ولا حياة لمن يفعلها بتلك الشاكلة، بروز المُقلتين بنحوٍ يتعدَّى تجويفها، هالاتٌ سوداء تستزيد في طُغيانها، حكَّةٌ تنتهي بخيوطٍ من الدماء، وقلبٌ يعتصر جرَّاء الهجر، تلك أعراض المُدمنين، ولكن لم يذكروا لنا بأنَّها تشمل الأحبَّاء أيضًا! وهذا ما آلت إليه أمور شاب عجز عن فهم ما يحدث معه، أجُنَّ لأجلها؟!

"لا أُحبها لكنني أُريدها"، كانت تلك العبارة ما يصدح به العقل مرارًا، هل أبى فكرة الترك بكبرياء العظماء؟ أم أنَّه يُريد إخراج مهالك الماضي السحيق وعلياء كانت السبيل؟

- هذا المُدير من ألطف ما يكون.

صحوتُ على تلك الكلمات القادمة من سيدة فاتنة تُحدّث صديقتها بصوتٍ تلتقطه أُذناي، فلم يكن مني سوى إظهار ابتسامة خفيّة مُتذكرًا

أولى عبارات علياء وهي تُواجهني بأعينها الذابلتين حينها، ولجَت إلى أطراف أصابعي رعشةٌ وتبرّمٌ بلسان حال "هل أبتسم حقًا؟!"

انتهى دوامٌ آخر وفي الغد ميعاد إجازتي، ولا أُنكِر مسعى يحيى المُتكرر لإخراجي ممَّا أنا فيه، وها هو يُعيدها..

- ماذا ستفعل غدًا؟

- لا شيء، رُبَّما سأمكث بالبيت أتسكّع على الهاتف فقط.

- ما رأيك أن نقصد السينما؟ نطمح التجديد ونقرأ العديد من الجباه.

مُعضلتي أنَّني قادرٌ على فهم مغزى الجميع، يحيى هنا يُريد إثقال طباعه النفسية؛ فهو وإن لم يعِ ماذا فعلَت علياء بي، يُدرِك تأثيرها جيدًا، ويقصد إبداله بآخر، نعم أعلم ولكن لأسير معه فقد ينجح.

- حسنًا، إذًا على ميعاد.

غادَرتُه مُستقلًا المواصلات قاصدًا الكُرسي المُجاور للنافذة بعدما ابتعتُ كوبًا من القهوة وأودعته التسع حبَّات من السكر؛ لأُشكِّل عقيدتي الخاصة وما يسعد له القلب، على آثار المُعطيات تُبنى النتائج، وكانت حاضرةً بحق؛ فخلال الوقت المُنقضي في الطريق خرجتُ بخاطرة قد تُقيلني من عثرة الذنب في هجر علياء بصخبٍ آخر مفاده السير وراء الخطاب وقصد العناوين الثلاث، لمحو علياء يجب إحداث طبيعةٍ أُخرى أغوَرُ عمقًا و أبرَزُ مصيرًا.

على مقربةٍ من المنزل و أنا أخطو آخر الخُطى جاءتني أصواتها مُباغتة كما عهدتها دومًا تقول:

- لا أقدر على كبحك، لا أرى فيك أملًا، لا أُشاهد مَن عاشروك سوى مُسبّلين الأعين صاككين الصدر، ولا أُدرِك غير أنَّ الأمر بات وشيكًا، لا قبر يُنبَش دون ألم، وفي حالك سيكون الهلاك.

دائمًا ما رأيتُ في تلك العجوز الهاونة جسدًا يهرف بكلماتٍ لا طائل منها ولا ضرار، ولكن هذا اليوم اهتزَّ قلبي لكلماتها كقربة ماء حتى كاد يسقط بين ساقَيّ، نظرتُ إليها فرأيتها على حالٍ يُرثى لها قد استزاد الزمن في عنفوانه، وبدا الشيب راسخًا بين ضلوعها، ستموتُ لا محالة؛ فهل يحنّ لها القلب أم يسعد للذم الذي طالني منها ليلًا ونهارًا؟ تركتها تَئنّ أمام بضاعتها الذابلة، و أُقسِم سماعي لاسمي "وحيد" خرجَ مُتثاقلًا بين طيَّات الأنين.

الدّرَج والسكون، أقف أمام باب شقتي متأهبًا لحدثٍ جديد؛ فيا تُرى ستفتك بي الزواحف اليوم أم تتركني لسطوع شمسٍ أُخرى؟! أدَرتُ المُفتاح وولجتُ لأرى ظلًّا ضخم الهيئة يقف أمام غُرفة الجد؛ فارتعدت أطرافي وتثاقَلَت أنظاري، فركتُ عينيّ لأنظر مُجددًا؛ فرأيته كما هو جامدًا لا يتحرك، أشعلتُ مفتاح الإنارة فلم يعمل، لا تنبعث الأشعة من المصباح؛ فما الذي يحدث الآن؟!

تسارعَت دقَّات قلبي مُجبرة الحنجرة على إعمال أحبالها.

- من أنت؟!

لا صوت يرد، لأعيد الكرَّة مُجددًا:

- من تكون؟!

النتيجة واحدة؛ فهل أهرب؟ أدفع الباب وأسكن الشارع حتَّى الصباح؟ أسارقٌ هو أم قاتل أم أحد أتباع العجوز؟! يا إلهي! ما العمل ولمَ هذا السكون؟! فأين صوت اهتزاز الكُرسي ودقَّات عقارب الساعة

المقيتة؟! أين الحطب؟ ولماذا لا يشتعل رغم مسعاي باستخدام أعواد الثقاب دون أن يلحظ الرجل القابع أمام الغُرفة؟! هل توقف الزمن؟!

قد تتعجّب حركتي القادمة؛ فها قد دنوتُ منه بخُطى تجر إحداها الأُخرى إلى الأمام تأبى الرضوخ، ومع القُرب منه تراءى لي شاكلته دون ملامحه؛ فالظُلمة تمنع الأمر، لم يكن بتلك الضخامة حقًا، إنَّما خدعني ما يرتديه على رأسه، وكان طربوشًا عرفته من الكرانيش المُدلاة من قمته، كررتُ المحاولة وقد فصلني عنه بضعة سنتيمترات..

- سأطلب الشُرطة، من أنت؟ تحدث.

رأيتُ جسده يتحرك فهل خشيَ البوليس بحق؟! أم أنَّه ينوي مُهاجمتي؟ فتراجعتُ خطوتين مُستعدًا لأبصر حركات قدمه تُغادرني مُتجهة إلى الدهليز، أُريد أن أصرخ، أن أبوح بالخوف، فلأُجهِز عليه الآن، وإن قتلتُه لن يلومنِي أحد.

"القتل" فكرة متى رسخت في العقل أمسَت على الجبين علامة بارزة كالصلاة، سال اللعاب؛ فعبَرَ الشدق حاثًّا القدم على تتبعه والإجهاز عليه، سيدفع ثمن الخوف والصرخات التي لم تعبر الحنجرة بعد!

ازدردتُ ريقي مثل أفعى تُحشرج قُبيل الإجهاز على فأرٍ صغير فتعتصره عصرًا، ثم ترتشف من بقايا جسده المُتحلّل ما يفيض افتراسها، دخلتُ الدهليز أحبو كالأطفال؛ فقد انعدمت الرؤيا ووجب الإسراع، حتَّى خلصتُ منه دون أن أشعر بالاختناق المُعتاد، لأُصعَق وأنا أرى الظل يقف أمام باب الغُرفة اليُمنى، جسده نحوها ورأسه تلتفّ إليَّ دون مُلاحظة تعابير وجهه بالطبع، صوت ضحكاته المكتوم كان سببًا جليًّا لنفور الشريان في الجبين، أتبعه بالضغط على مُفتاح الباب وأنا خلفه تتملّص مني جميع المشاعر الحاضرة، لتبقى واحدة مُتسلّطة مفادها

"الفضول"، ليس لرؤية مُقتنيات الغرفة، إنَّما للاستمتاع بالزواحف وهي تلتهمه عن بكرة أبيه.

اصطنعتُ حركةً مُفاجئة لإيهامه بالهجوم عليه؛ ففعل ما أردت وأزاح الباب مُسرعًا ليدخل الغرفة مُغلقًا الباب من خلفه، وبدت ضحكاتي ساطعة أتبعتها بصيحاتٍ:

- مُباركٌ لكم طعامٌ شهيٌ، فلتفعلْنَ به الأفاعيل.

أقف مُتلهفًا أرتقبُ همساته، أنفاسه المُتقطّعة بين طيَّات السكون وقد انتزع طربوشه ليضعه على مشجبٍ غزير الأفرع، ولم يمكث سوى دقيقتين فقط لتصل صرخاته عنان السماء.. "النجدة، وحوووش، النجدة"!

بقعٌ من الدماء تتناثر ألتَمِس بعضها على قطعة الزُجاج التي يزدان بها الباب أو من أسفله حيث تتهافت النقاط رويدًا رويدًا، أمات أبواي بتلك الشاكلة؟! ما بين الفضول لرؤية مقتل اللصّ وشجنٌ قديم يعتريه الكَلِم على حالٍ ألمَّ بوالدتي خصيصًا وذكراها الطيبة في النفس، انكفأتُ على رُكبتي أرتَقِب الدقائق القادمة بخوف، حتَّى لمحتُ ورقةً بيضاء مطويّة قد تلطّخَت بالدماء تنفذُ من أسفل الباب؛ فالتقَطتُّها بأيدٍ مُرتعشة، و انتزعني الفضول لقراءتها، ووسط عنفوان الظُلمة تذكرتُ هاتفي وكونه يمتلك كشَّافًا مُضيئًا، فكيف لم أُخرجه لرؤية صاحب الظل؟! أهو الخوف يمنع العقل أم الفضول يحثه؟!

على إثر شُعاع الضوء الخافت تحركتُ قاصدًا غُرفتي مُمسكًا الورقة مُتفحّصًا إيَّاها عن كثب، لأجلس على الفراش وأشرع في قراءته، لهُنيهةٍ من الوقت ظننتُه حديث العهد سأكتشف عبر سطوره لغزًا جديدًا، ولكن ويا أسفاه! كان مثل سابقه الذي قرأتُه أمام علياء، لم يتغير به حرفٌ أو يُمطّ به ذراع، كدتُ أن أتركه وأعود إلى صاحب الظل، لألمح كتابات

صغيرة الحجم على خلفية الورقة لم ألحظها من قبل، سلطتُ كاشف الضوء عليها لأقرأ الكلمات...

"أمام العناوين الثلاث تقبع عجلات نُحتِتَ عليها حروف أربعة، وعلى باب شقة صاحبها الحرف الخامس المُكمل لتمام الأمر، فإن أصبت بالحصول عليه؛ فاطرق الباب مرَّاتٍ ست، ثم أتبِعها بالمغادرة، وكرِّر الأمر بعد ثلاثة شموسٍ مُتتالية حتى تنال المُترادفات التسع".

الشجن، ها هو يُطلِق العنان مُتخذًا كافة سُبل الخلاص من أمر علياء وسطوتها على النفس بشأنٍ آخر أعظم شأنًا و أبلغ مقامًا، فمن خلف هذه السطور؟ وهل أكمَلَ أبي الخطوات قُبيل موته؟! حُسِمَ الأمر، سأقصد العنوان الأول غدًا وأرى الحقيقة.

أمسكتُ الغطاء لأدثّر كاهلي به مُتجاهلًا حقيقة الجسد الميت بالغرفة المُجاورة، والقط الذي وبالتأكيد سأرى نُسخته الثالثة زاهقة الروح خلف الدولاب القاتم.

استيقظتُ باكرًا لأُزيح الغطاء عنِّي مُتثاقلًا أسرد شريط الحياة على عقلي لعله يفيق، قفزتُ مذعورًا مُتسائلًا كيف سأتخلص من الجثة الماثلة في الغرفة المُجاورة، وبخطواتٍ دقيقة أخذتُ دربي نحوها، ووقفت واجمًا أمام الباب ألتَمِس من ضوء الشمس حمايةً لي من غزو الزواحف، وبخفة حركة مُصاحبة للحذر أدرتُ المُفتاح لأضغط عليه؛ فينفرج الباب وعيني تُلاحقه حتى انكشفت لي الغُرفة بأكملها، وجاءت الصاعقة قوية مُركزة نحو الفص الأيمن من المخ، لا جُثة ولا آثار لبقع الدماء، فدخلتُ مُحتاطًا بالفزع وعقلي يعمل شاردًا، أقضَت الزواحف على الجثة بأكملها فتكفّلَت هي بآثارها، وإن كان ذلك ما حدث فأين السائل الأحمر أو رائحته على الأقل؟! وبينما أرنو ببصري على الفراش وغيره لمحتُ بطرف عيني المشجب وقد مال بطرفه على جانبه الأيسر، ومع قُرب التيقّن من

كون حدث البارحة حلمٌ مزعج الأطراف، رأيتُ الطربوش المزدان بالكرانيش المُدلاة وهو يقبع عزيزًا أبِيًّا عليه، تراجعتُ خطوتين إلى الوراء وتضاربت خبايا الأفكار.. "من الذي فعلها؟!".

قضيتُ سنون حياتي التاسعة والعشرين في بُطء وروتين من الأحداث مُتجاهلًا تسارع الزمن ما بين الدراسة، البيت وطعام عمتي، الحياة لا تُعطيك كافة السبل لإكمال الروتين؛ ففي مرحلةٍ ما ستتسارع قيود الزمن؛ فيبعث لك برقِيّة من الغيوم، وحينها فقط يتوجب عليك الكشف عن الوَدْق، وها أنا أفعل.

اتّخذتُ الدّرَج قافزًا ومعي الجواب أُعيد قراءتَه لأصل إلى العنوان الأول..

1. شارع الديوان، حي جاردن سيتي.

تسارعت خطواتي لأتجنّب سماع كلمات العجوز، وفوجئت بعدم جلوسها المُعتاد، فهل مرِضَت بسبب مكوثها في وقتٍ مُتأخر من الليل تحت أعين الشتاء؟ أم زُهِقَت روحها فداءً لشقائها؟! ففي مصر نطلق الشهادة على العمل، ولكم فعلنا.

توقفت للحظات حائرًا ما بين سؤال الباعة عنها أم إكمال الرحلة والطريق، واهتديتُ إلى الفكرة الثانية؛ فمالي ومال امرأة أرَتْني من قبح الكلمات ما ليس بغيره، استقللْتُ المواصلات نحو شارع القصر العيني؛ حيث الزحام والعرق، ونعم.. بهذه الأماكن يعرق الجسد وإن كان الشتاء قابعًا، لم أمكث به طويلًا واتخذتُ السبيل إلى شارع الديوان أخيرًا، ويا لها من مُفارقة، كيف تحوّل الزحام والهرج إلى ذلك السكون؟! وكيف آلت القمامة إلى الأشجار المُتراصة والتي تطل على شُرفات المنازل المُتسعة، لا أبغي أن أكون حاقدًا، فكيف يمر هؤلاء بهؤلاء فيتجاذب الاثنان معًا؟! أهي الطبقية أم نحن الفقراء صرنا حاقدين بحق؟!

"أمام العناوين الثلاث تقبع عجلات نُحتت عليها حروف أربعة، وعلى باب شقة صاحبها الحرف الخامس المُكمل لتمام الأمر، فإن أصبت بالحصول عليه؛ فاطرق الباب مرَّاتٍ ست، ثم اتبعها بالمغادرة، وكرِّر الأمر بعد ثلاثة شموسٍ مُتتالية حتى تنال المُترادفات التسع".

هذا ما كُتِبَ في الخطاب وينبغي عليَّ البحث دون أن يشعر بي أحد، فكما سمعت يزدان ذلك الحي بالسفارات والوضع الأمني المُشدّد، وبحالتي تلك من الفقر و انعدام المعارف قد أصير إرهابيًّا أتَى للتفجير؛ فيخرج لواء يُندد بالحادث وإحباط المحاولة، وإعلاميٌّ يتقول بانتمائي لأحد البلدان، ورجلٌ هَرِمٍ بينه وبين القبر أُنملة يصيح في الطرقات "أعدموا الخائن".

لاحت السُبل أمامي تُجبرني على الفرار مُتناسية طبيعة وحيد الذي سيُكمِل رحلته، عددٌ كبير من السيَّارات المُتراصة بجانب بعضها البعض، واستنتجتُ بأنَّ من بينهم مُرادي؛ فصرتُ أفتش عن السيارة المقصودة وسط عددٍ ليس بالقليل؛ فلا أظن أنَّ أحدًا هنا يركب المواصلات، العجلات جميعها سليمة لا يعتريها سوى الغبار؛ فأين الخدوش والأحرف؟! هل كان جوابًا قديمًا و انتهى أمره، لأضرب جبهتي بكَفّ يدي تصديقًا على تلك الفكرة مُنددًا بفقدان العقل وخوض هذا الطريق، فلربما يرجع الجواب إلى عشرة سنواتٍ سابقة وداخلها انفجرت السيارة أو غادر الكائن المقصود، بأي عقلٍ جئتَ إلى هنا يا وحيد؟! وهل كان مُحركك التملص من ذكرى علياء ولو بكونك أحمقًا؟!

وبينما أندب الحظ لمحتُ رجلًا عجوزًا ينظر إليَّ بأعين الشك؛ فو اتتني جُملة "أعدموا الخائن" على فورها لأصطنع كوني أبحث عن رقم عمارةٍ ما تاركًا عجلات السيارات بعدما أعدَدتُ أمري على الرحيل، وبينما أسير في مُلتقَى طريقين أحدهما يُرجعني مُجددًا إلى القصر العيني، والآخر

يُدخلني إلى وسط حي جاردن سيتي، التقَت عيناي بسيارة فريدة من نوعها ذات طرازٍ قديم قد يعود إلى الخمسينيات، وجودها هنا ليس بمحض صدفة؛ فقد تكون نداءً، دنوتُ منها دون أن أقدر على تحديد نوعها؛ فمعلوماتي عن السيارات لا تتخطى كون الأحدث مَن يمتلك مُبرّدًا قادرًا على إيصال نسماته إلى المقعد الخلفي.

انتظرتُ هُنيهة من الوقت حتى خلا الشارع من الأرواح، ومع حدوث الأمر رميتُ عملةً معدنية بجانب السيارة؛ فتدحرجَت بعيدًا عنها، وبعد وصلات من السباب على الحظ العاثر وقفتُ أعلى العُملة وأزحتها بقدمِي لتقترب من عجلات السيارة ولو قليلًا؛ ففعلت ولكن صارت أسفلها، فنظرتُ إلى السماء مُشرئبّ العنق ظنًّا بكونها علامةً من السماء للهرب، ومع الامتثال للأمر الراهن ألقيتُ بعملةٍ أُخرى لعلي أُصيب هدفي؛ ففعلَت وتدحرجت مثل أُختها مُفارقة العجلات، فإن استمرَّ الأمر على هذه الشاكلة لن أجد نقودًا أعود بها؛ فتوقّفتُ عن الاستذكاء وجلستُ القرفصاء دانيًا من العجلة الأمامية على الجهة اليُمنى لأتفحصها جيدًا وداخلي الشك، وستكون هذه المُحاولة الأخيرة لي، وبعد الفحص كانت النتيجة واحدة... لا حروف، فقط ذرَّات الغُبار؛ فهنيئًا لحماقةٍ أودَت بي إلى هنا؛ فبالنقود التي صرفتها لكنتُ قادرًا على ابتياع خمسة ساندوتشات من الفلافل الطازجة، تبًا لكِ يا علياء ولمَا أوصلتِني إليه، ولأبي أيضًا الذي لم يحرق تلك الجوابات اللعينة.

أخذتُ دربي قاصدًا شارع القصر مُجددًا ومن هناك سآخذ مواصلة الرجوع، في ثالث الخطوات سمعتُ صوتًا هزيلًا يقول:

- ماذا تفعل هنا؟

التفتُّ له مُضطربًا لأراه العجوز الذي بصَرَني سابقًا، وبالتأكيد دبَّ الشك في قلبه؛ فلحقني لأرد مُتهتهًا:

- أردتُ شارع الديوان، وسأعود فقط.

أبرز أسنانه الصفراء التي انتزعَ الزمن نصفها على الأقل ضاحكًا:

- يا لشباب هذه الأيام! لا يُفرقون بين شارِع الديوان وبين شارِع د. مصطفى الديو اني، مقصدك في نهاية ذلك المُنعطف يمينًا.

تنفَّستُ الصَّعداء شاكرًا إيَّاه، واصطنعتُ ذهابي إلى الوجهة تحت ترقب عينيه، فيا له من عجوزٍ مُتطفل! وبينما أخطو نحو شارع الديوان بصرتُ سياراتٍ أُخرى على جانبَي الطريق لأعود مُجددًا؛ فأُصعَق لرؤيتي العجوز ما زال قابعًا في الجوار، فما الذي دها ذلك الرجل؟! وبقدر مكوثي حبيسًا لذلك الشارِع قررتُ مُتابعة تفحص عجلات السيارات المُتشابهة ليمضي الوقت فقط، وها أنا أفعل...

"الأرواح مُخيرة أم مُسيرة؟"، لطالما اختلف أصحاب العقول حول إجابة المعضلة، و اتفق أصحاب اليقين على التخيير تحت معية الله، نعم اخترت الذهاب إلى هنا وبمعية الله وقدرِه كان العجوز سببًا في رؤيتي للأحرف، ها أنا أقف أعلى السيارة اللعينة من طراز الـ"مرسيدس" قد نُحِتَ على عجلاتها الأربع حرفٌ واحدٌ لا يُشابه الآخر، وقد كانت دون ترتيب "ي، ق، د، ع"، تشنّجَت أطرافي من خُصلات الشعر وحتى أخمص القدم، الجواب ما زال حقيقيًا بحق، والآن ينبغي الدخول إلى العمارة التي تصطَفّ السيارة أمامها والبحث عن الحرف الخامس على الباب، دخلتها وتزيّنَت عيناي بطبيعة العمارات بهذا الحي الراقي؛ فهي تمتلك مصعدين، دهليز مُتسع الحجم، والدرج لا يُصيبك رباطًا صليبيًا إن أخَذْتَ دربه لأتذكر مدخل شقتي المزدان بالفئران، وبعد البحث في كل دور والذي كان يحوي من الشقق أربعة، وجدتُ ضالتي في الدور الثالث، بابٌ بُني اللون على مُقدمته دائرة تبرز منه تُستخدم للطرق، رُبَّما! وبجانبها حرفٌ منحوتٌ بإتقان، وكان الحرف الأخير "ة" تاء مربوطة.

ازدردت ريقي مُجددًا؛ فما قرأته حقيقة، هنالك لغزيقبع خلف ذلك الباب الموصد، ومن يكون هؤلاء؟! هل أخطو نحوه وأدق الباب دقَّاتٍ ست أم أترك كل شيء وأُغادر، تسارَعَت النبضات، وما بين دويّ الشهيق والزفير امتدَّ الذراع حتَّى طال الباب وفعل فعلته، ستة دقَّات مُتتابعة ثم صمت وسكون.

***

كثيرًا ما أذَى المرضى النفسيون أنفسهم، لكن أن يشنق عجوزًا نفسه داخل طيَّات هذا المبنى العتيق فهذه كارثة كُبرى، ما خرجَ للعلن كان الانتحار، وداخل الأسوار تهافتَت الأصوات حديثًا عن الورقة التي سُطِّر داخلها كلمات "جريمة قتل"!

هل صدق العجوز أم كانت مُحاولة لإحياء ذكرى الجريمة بمُخيلته؛ فبعد قراءة ملفه من قِبل الطبيب مُختارعَلِمَ بأنَّه يُعاني من الفصام ما بين القاضي والمُحقق، وهو بين ذلك سيان، ما أثار ريبته حينها هو كونه الرجل الذي حدَّقَت تجاهه أعين وحيد، وقد تكرر الأمر تارةً في الحديقة وأُخرى داخل الغرف.

اليوم هو الأخير لوحيد داخل مضجعه الانفرادي، واليوم أيضًا يحين ميعاد جلسته مع مُختار، وبالطبع قرر أن تكون داخل البوتقة كما اعتاد في الآونة الأخيرة، جهَّز مُختار حاجياته وقد عزم على استخراج السرائر متوغلًا حتَّى الأعماق، وإن تطلب الأمر القضاء عليه، وبينما يضع نفسه داخل هيئة من الغضب المكنون سمع صوت صديقه آكل الساندوتشات الشَره يقول:

- الرقابة مُشدَّدَة على المشفى مُنذ الحادث، وأنت قد استزَدت في وسائلك الكابحة للمرضى، وبرغم نجاحك الساحق لن يُسمِّي عليك أحد

إن أمسكوا بك؛ لذا توخَّى الحذر، فلا نعلم بعد ما يقدر عليه ذلك الـ"وحيد".

نبرةُ عامر وما بها من جَدّ لم يعتد عليها مُختار من قبل، وهذا ما أشعل الريبة والتبرم بأنفاسه، أيَعدِلُ عن البوتقة أم يُكمِل مسيرته المُميزة؟! فتذكَّر جُملته الأخيرة في آخر لقاء اجتمع معه، "أنا من قتلتُها". نفر الجبين على جبهته مُتجاوزًا صديقه المُرتاب وهو يقول:

- لا تقلق، وحيد مثل غيره سيخضع في الأخير.

انطلق مُختار قاصدًا الغُرفة الساكنة مُتأهبًا لمجيء وحيد، وقد مكث مُطولًا في انتظاره حتَّى أصابه التبرم، ليسمع صوتَ مُمرّضَين وهما يجران رجلًا بكامل طاقتهما، ووسط تضاربات من الحيرة ارتقب إجلاسه على الكُرسي وقد كبلَّاه خشية أن يفر أو يُصيب الطبيب بمكروهٍ.

- ارحلا الآن.

كان ذلك الأمر صارمًا، وامتثلا الرجلان للأمر، وما لبثا أن غادرا البوتقة حتَّى اقترب مُختار بكرسيّه من وحيد الذي هدأ روعه مُترقبًا الأرض فقط.

- مرحبًا بعودتك.

لم يلقَ ردًا على ترحابه، فقط الوجوم ونظراتٌ مُرتابة نحو الأسفل، أشعل ذلك الغيظ في نفسه، وأردف صائحًا:

- أخبرني الآن ما الحقيقة حول قتل تلك الفتاة؟

هنا وبمجرد وصول ترددات صوت مُختار، وقد استقبلتها أذن وحيد بنفسٍ راضخة، هاجَ وماجَ، فرَّ مُستشيطًا يقع بالكُرسي ثم ينهض ثم يقع ثمَّ التكرار بغية الخلاص، انبثقَت أعين مُختار للأمام بلسان حال "ماذا حلَّ به؟!"، وهرع إثر صوته المُمرضان وقد تخلص الطبيب من دهشته

مُتحولًا إلى وحشٍ رابض يأمر الرجلين بالتراجع، وهو يقترب من جسد وحيد طريح الأرض، وبأعين مُلتهبة يزمّه عن أفعاله؛ فهو لم يفعل شيئًا بعد.

- أُريد الخروج إلى الحديقة، إجراء محادثتنا بالخارج في الهواء الطلق، أرجوك.

- ولكن لماذا؟!

بمُقلتين تضطربان رواحًا وجيئة داخل تجويفهما يرد وحيد مُتهتهًا:

- فقط لا أطيق الأماكن الضيقة، ستلتهمنا الزواحف حتمًا، بالخارج سنتحدث بلا قيود، حيث بداية كل شيء.

ما زالت كلمات وحيد تعبث بعقل مُختار، ما بين حديثه السابق عن الماورائيات، الفتاة المقتولة، والآن البداية! فماذا يعني؟!

مُحاولاتٌ عديدة باءت جميعها بالفشل كانت سببًا انصاع لأجله؛ فتحقق مطلب وحيد، والذي دائمًا ما انتهى بكلمة "أرجوك".

انتقل المشهد نحو الحديقة، حيث الأشجار وزقزقة العصافير، وقد اختار وحيد لنفسه مقعدًا خاصًا، وبالطبع رضخ مُختار له وحان ميعاد الوفاء بالعهد.. الحديث والبوح بكافة الأسرار.

- هيَّا تحدث وأخبرني، مَن هذه الفتاة التي قتَلْت؟

- هل تعلم يا طبيب لماذا لا تُهاجم الزواحف العصافير إلَّا خفية بعيدًا عن وضح السماء؟

زمجر مُختار مُتبرمًا ليرد:

- كفاك مُراوغة وتحدث حتَّى لا أُعيدَك إلى البوتقة.

- الزواحف وإن كانت حيوانات بلا عقل فهي مُستخلصة للحقائق، تعلم جيدًا أنَّها وإن لاذت بفريستها "العصفور" فقد باتت عُرضةً إلى هجوم "النسور"، لا حائل بينهما سوى المخالب فقط، الزواحف تصيد في غبشة الليل وظِلّ الصباح؛ فدون أن يشعر الطير الصغير يجد نفسه مُعتصرًا بين جسدها الملتف تخرج عصارته بتمهّل وهو يُدرِك موته في الأخير دون أن يتحرك، فهل تتلذّذ الزواحف بالعذاب قبل الموت أم أنَّهم ينتقِمُون من النسور بالسوء في العصافير؟!

مُحال أن يكون ذلك الـ"وحيد" مُجنونًا، وإن كان فهو مرضٌ نادرٌ بحق ينأى بنفسه عن الـ"فصام" أو الـ"بارانويا"، فماذا يكون؟!

أراد الطبيب الحقيقة بكامل جوارحه، بعيدًا عن مُهاترات الزواحف التي غفل عنها عقله، طلب البداية التي ذكرها وحيد داخل البوتقة وانتظر الرد فقط.

هنا بصُرَ أطراف وحيد وهي ترتعد، شفتاه تتلوّنان بالأبيض وعيناه وهي تحوم، أخرج من جيبهِ ورقةً مطوية وقلمًا أسود اللون، لا يعلم الطبيب كيف خبأهما لكنَّه تجاهل الأمر وهو يُبصِر الكتابات القادمة وعيناه تلتقط الحبر على السطور..

"كانا اثنين؛ أحدهما يُفتَح له الأبواب والآخر عنوانه الظُلمة وما عليها، يعيثان في الأرض الفساد، بيادق ترتَع داخل حوش الملك، الرسول وعابر السبيل، لا أعلم لِمَ انتقلت إليهما وأنشأتُ حديثًا لا قِبَل لي به، وكانت معي دون أن أسأل عقلي لمَ جلبتُها؟! وهل أنا المسؤول عمَّا حدث لها؟!"

هنا اضطرب جسد وحيد وصار ثقيلًا، شعر مُختار بعدم قدرته على حمل القلم خفيف الوزن، صمتٌ دام طويلًا ومعه بدأت السطور تنتعش من جديد..

"رأيته، على نهاية الخيط الأسود كان يحثُّني دائمًا يُخبرني بأنَّني قادرٌ على إكمال مسيرته، بل وفهم الحقيقة، حادثَني كثيرًا وقتما غلبَت ألاعيب النفس، وكان خير رفيق وقتما دثّرَتْني الوحدة مُطولًا، يتوجّب الخروج لمحق سبيلهم والقضاء على البُقعة الأخيرة في الصف الأول من عساكر الشطرنج".

هنا ابتسم وحيد وقد ترك القلم يسقط على الحشائش، ثم قال:

- فقط للقضاء على العساكر!

كلماتُه وإن كانت مبهمة فآثارها على النفس لا يكبح جماحها أحد، تُطيح بك وبعقلك حتَّى يتسنى له العودة بالمزيد، وقد عجز مُختار مرارًا عن ترويضه، وها هي الكرَّة تتجدّد برغم مرور الزمن، نبَذَ مُختار هذا الشعور وتألَّم جليًّا لمُعاودته مرةً أُخرى "سأقتلك يا وحيد"، لا تندهش إن كانت تلك الأفكار سائغة بعقل الطبيب الذي يعمل به؛ فهو لا يكدح في الأرض أو يُعافر من أجل تحقيق تارجت شركتِه السنوي، ودون عقله سيجلس بجانب هؤلاء، فكيف يردَع من أطاح به؟! نعم بالقتل وإن كان داخل مُخيلته فقط، وبعد الصمت شهق مُختار مُستعيدًا زمام الأمور ومُزيحًا ما ألمَّ به من رؤيا للتغلب على وحيد، شهيق أتبعُه زفيرٌ مرَّات، لينظر إلى وحيد غاضبًا، ولكن كان المريض النفسي أقسَى على الطبيب من كهرباء طيلة ثوانٍ، رآه ينظر نحو وجهةٍ ما، وعند تتبع مصدر شُعاع البصر جحظَت عيناه وهو يُبصِر رجلًا رُبَّما قارب على الثمانين، يجلس على كُرسيه واضعًا كفيه إلى الأمام ومُتمتمًا بهلاوس المجاذيب، تركه ليعود ببصره نحو وحيد الذي ما زال مُركّزًا عليه دون أن يرمش كما فعل مع العجوز السابق؛ فلم يُكرر مُختار خطأه وباغته على الفور:

- أتُريد قتله كما فعلت في غيره؟!

اعتقد مُختار بأنَّه قد حصل على خطوته الثانية بتلك الجملة، وسيُجهِز على وحيد بخطواته الثلاث في علم النفس، ولكن ما حدث كان كالصاعقة، ظلَّ وحيد كما هو، وتحدثت شفاهه فقط:

- هذا الرجل قد مات اليوم!

***

اليوم التاسع دون علياء..

على الكُرسي المهتز أقبع غافلًا عمَّا أصابني، يدور رأسي رواحًا وجيئة ما بين الرهبة التي انتقلَت من القلب إلى الذراع الذي فعل فعلته ودقَّ الباب مُتواليًا لمراتٍ ست، وما بين علياء التي كُلَّما ظننتُ في نفسي التجاوز والنسيان تراءت لي بين السطور، على مقربةٍ من المدفأة كانت تقف بعنفوانها المُعتاد، زُجاجة الخمر المُتدحرجة وذلك الدرج الخفي في الكومود، أأحسدُه على كون أناملها قد لامسَت تطاريزه؟ أم أمقته لأنَّ قبضتها اعتصرته لتُخرِج ما يحويه من أوراق؟ لم أشهد فتاة بمثل تلك الثقة وهذه القدرة على تأثيرات النفس والتوغل عبر أمواجها العاتية، "علياء" اسمٌ لربَّما استحقت أن تكون الزوجة التي تدثّر بين ثناياها علَّتي، هنا توقّفتُ عن التفكير مفزوعًا تاركًا الكُرسي يئِنّ كحالته، لأصفع وجهي مرتين على تلك الحماقات، كيف يكون لاسمها القُدرة على الإطاحة بعقلي والخضوع لها وإن غابت!

"وحيـــــــد" أتى الصوت من بعيد به من الغَنَج ما ليس بغيره، أعلم جيدًا بأنَّنا ما زلنا تحت تأثير أشعة الشمس ولم يسكن الليل بعد، فهل بدأت لعنة الشقة باكرًا؟! ليست الزواحف ولا يُمكِن أن تكون علياء، فمن أين خُلِقَ ذلك الصوت؟!

"وحيـد" تكرر مُجددًا، ولكن بشاكلةٍ أقل وتردّدٍ يكاد يكون صفرًا، ولا تتعجب إن قلت لك بأنَّني أعلم من أين جاء هذه المرة، قد أبدو مجنونًا بتلك الحقيقة المُنافية إلى المنطق، الصوت قادمٌ عبر الدهليز!

إن تبدّلَت الأمور وكنت أنت من يسمع النداء، فهل ستُلبي أم تنتظر الانتهاء فتعبر سالمًا لا موت عليك اليوم، أعرف اختيارك، و أنت بالطبع

تعلم خطوتي التالية... بحركاتٍ ثقال يجرّ إحداها الأُخرى توجّهتُ صوب الدهليز لعلي ألتمس نوع الزواحف؛ فأقتص منه، أسيرُ مُترقبًا مارًا أولًا بالغرفة المُغلقة، و أقسم على رؤيتي للنيران تشتعل بين أركانها، فمن فعل؟! علياء تمر من أمام عينيّ تعبر كأنَّها وشاحٌ تلامسَت أطرافه مع وجهي؛ فخلق طقسًا من الأُلفَة أتبعها بصورةٍ غوغاء من الذعر والألم، "مَن المُستتر داخل الدهليز؟"، كانت صيحاتي بتلك الكلمات بعدما نبذتُ ريح وشاح علياء الحنون، أهو قرينها يجلس منتظرًا الانقضاض عليَّ أم ثُعبانٌ أقرعٍ يُلقِي على كاهلي العذاب قبل القبر؟!

"150" أجزم بأنَّها سُرعة ضربات قلبي الآن، ولتكتمل اللوحة ها هي عقارب الساعة تدق، الكُرسي يئنّ لأُحول بصري نحوه؛ فلا أجد له اهتزازًا، فمن يجلس عليه! ، "سأواجه"، هذه الرغبة كانت الغالبة يخمدُها فقط "الحنين" خشية الموت قبل مُقابلة علياء مُجددًا، وبينما أسير لأدخل الدهليز انقشع الهواء فصار ثقيلًا كما الحال دومًا بين حائطيه، الظُلمة تستزيد؛ فهو منفصل عن النافذة، والصوت يبدو أكثر خفوتًا "وحـ...د" ها أنا على أعتاب قائله، وسأكتشف الحقيقة لا مفر، ثوانٍ فقط تفصلني عن كل شيء، وبضع سنتيمرات ستكون كافية للمكوث في القبر، تخدّرَت الأطراف وقد وصلتُ إلى منتصف الدهليز، كانت تلك كلماتي الأخيرة "من أنـ...."

رياحٌ عاتية أتَت من العدم كانت سبيلًا لاصطدام رأسي بالحائط وإحداث فتحةٍ بالرأس يسيل عبرها شعاعٌ من الدماء، لاحظتُ خطواتٍ تقترب و أنفاسًا أشم ريحها عن كثب، فهل نهايتي قد حانت الآن؟!

صوت طرقات على الباب مُتسارع وعنيف رجَّ كياني بأكمله، وبالطبع طال قاتلي فانقشع مُبتعدًا، حاولتُ الوقوف مُتثاقلًا وأذناي تستقبلان

الطرقات الموحشة، أهو البوليس جاء ليقبض عليَّ؟ أم أنَّه الرجل صاحب الشقة التي طرقتُ بابها قبل ثلاثة أيامٍ من الآن؟!

تركتُ الدهليز مارًا بالغرفة مُجددًا وقد رأيتُ على زجاج بابها رجلًا قعيدًا فلم آبه، ينبغي اللحاق بذاك الطارق ومعرفة هويته، فتحتُ الباب بأعينٍ ناعسة لأرى روحًا تأثير وجودها أطاح بي خطوتين، لا لا.. بل قُل ثلاث إلى الوراء، وبأعين جاحظة قلت:

- علياء!

سحبَت أنفاسها مُحاولة إدخال أكبر كَمٍّ من الأوكسجين لتقدر على البوحِ بخطوتها التالية، أخرجَت هاتفها، ثمَّ وضعته أمام ناظري صارخة:

- هل جُننت يا وحيد؟ تمكثُ داخل القبر ليلًا وتُرسِل صورتك إليَّ، هل تُريد الموت قبل أن تموت؟!

القهوة ذات الُحبيبات التسع من السكر كانت مطلبها وهي تجلس محتمية بنيران المدفأة من برد الشتاء، ما زالت مُرتجفة الأوصال، أهو حقًا قلقٌ على حالي أم لأمرٍ ألمَّ بها مؤخرًا؟ أجلس جوارها على أحد المقعدين المُتهتكين وهي تهتز بدورها على الكُرسي العتيق، فعلى ما يبدو كونها أحدثَت ارتباطًا خفيًا بأثاث الردهة، ولكن أين كانت طيلة تلك الفترة؟ لِمَ لَم تُجِب على الهاتف؟ وكيف تظهر من العدم الآن؟! هاتفها بين يدي أرى داخل إطاره صورتي واضحة بجسدٍ مُمدَّد داخل بوتقة مثل ذلك الحطب وبجواري العظام، حتمًا إنَّه القبر، أيُعقَل أن يكون توأمي أم محض سراب! أهي خُدعة أم أنا بحق مَن أرسلتها؟! ميعاد الإرسال كان بالأمس ليلًا، ولأكون أكثر دقة الثالثة فجرًا، ألا يكفيني جنون الجواب وكلماته، هنا فزعتُ قافزًا وقد اعتلَى صوتي سكون المكان:

- ميعاد الذهاب وتكرار الطرق هو اليوم، لقد مرَّت ثلاثة أيَّام.

انتبهَت علياء إلى صيحاتي مُندهشة:

- لمَ هذا الضجيج وعن أي تكرار تتحدث؟!

أعلم بأنَّه ينبغي التفكير في تلك الصورة وذلك القبر، لكن لا وقت لدي، ثمَّ كيف تتحدث علياء بذلك الهدوء؟! كيف لها ألَّا ترى فيما فعلَت خطأً جسيمًا يتوجب على أقل تقدير اعتذارًا مُزخرفًا بهديةٍ ما لعلّي أتقبله! كيف تُبادر هي أيضًا بالسؤال وبإقحام نفسها عبر مُجريات الأمور دون تبرير ماضٍ ليس ببعيد؟! سأنفجر قريبًا غير قادر على المكوث هادئًا كما لو كنت أهدهدها و أنا المُخطئ خشية أن تغضب.

- علياء، لا يحق لكِ أن تتـ....

قاطعتني وقد انتفضَت و اقفة:

- هل للأمر علاقة بالجواب الذي قرأناه سويًا؟! هل هنالك شيءٌ خفيّ تعجز عن إخراجه؟ تحدث.

جلستُ القرفصاء واضعًا رأسي بين راحة يدي، قد شُلَّ كاهلي من أطراف الشعر المُجعدة وحتَّى أخمص القدم، لا أدري كيف تنجح في قلب الأمور بتلك الشاكلة؟ لم ولن أرَى فتاة مثلها؛ فمن تلك التي لا تخشى وحيد القادر على الإطاحة بتجمعات من النساء دفعة واحدة؟! من تلك الـ"علياء"؟ لتذهب إلى الجحيم! فقد سئمت.

هنا ترجم عقلي عبر شبكية عينيه مشهدًا أطاح به وهو يرى علياء تجر خطواتها تجاه الباب مُغادِرَة، أُريد الجحيم لها وهو يُريد بقاءَها، يُريد ومضات الحقبة القديمة أن تصحُو مُجددًا، وهذا لن يحدث إلَّا بوجودها، تملَّكَني ودفعني نحوها مُمسكًا يديها كما المشهد السابق قُبيل مغادرتها، وبصوتٍ مهتز دون أن تسألنِي لمَ فعلتها قلت:

- أتذهبين معي اليوم نحو تلك الشقة وفي الطريق سأحكي لكِ كل شيء؟ أعدك، فلا تُغادريني مُجددًا، أرجوك.

أزاحت يديها مُتجهة إلى الداخل مُجددًا، لتقبع على الكُرسي ترشف من فنجان القهوة مُتلذذة بمذاقه الفريد.

وضعَت قدمًا على الأُخرى وهي تقول:

- أكثرتَ من إمساك يدي يا وحيد، ودينُك يمنعك من ذلك، فماذا دهاك؟!

***

شارع الديوان، الساعة السادسة مساءً...

أسير بجانب علياء بعدما شرحتُ لها جُلَّ الأمر، ولم يبدُ على وجهها علامات الرهبة، فقط رأيتُ الفضول المتشبّع بالريبة من أمري؛ فقد تظنني الآن يهوديًا، نعم أجزم بذلك؛ فجملتها الأخيرة عن الدين وإمساكي يديها تؤكد تلك الشكوك، معها حق، لم أعتد يومًا على لمس ظفر فتاة، فهل صارت راحة كفّ علياء هي البوتقة التي يشتعل بداخلها حطب الدّفء والأمان؟!

ليل هذه المنطقة غير نهارها؛ فمع الأشجار المزدانة بحفنةٍ من الأوراق الخضراء يُضفِي عليها طقسًا من الرعب المكنون، والذي وبالتأكيد سيكتمل برؤية السيارة المنحوت عبر عجلاتها الأحرف الأربعة، والتي لم أسعَ إلى ترجمتها؛ فقد يكون الحرف عنوانًا نحو كلمةٍ ما، أو رُبَّما يستقل بذاته، تيقّنَت علياء من نحت الأحرف على العجلات، فلربما أصابها الشك مرَّات، وبعد مُشاحنات دخلنا إلى العمارة حيث تقبع الشقة، رأيتُ في أعين علياء إعجابًا بتصميم المدخل كما أذهلني، وقُبيل صعود أولى الدرجات، استوقفتها:

- أين كُنتِ طوال تلك الفترة؟ تعلمين جيدًا مُعاناتي، لماذا اختفيتِ؟!

- لستَ وحدك من يُعاني يا وحيد ولديه خبايا من الماضي، وفي حالتي أُفضّل الانسحاب.

ابتسمتُ مُهدئًا تلك الحدة، ثم تابعتُ صعودي قبلها مُتجاهلًا الرد، وهو أمرٌ اشرأبَّ له عنقها، فكأنَّما أمسينا قطًا وفأرًا يعبث أحدنا بالآخر، فأين المُندّدُون بالعلاقات السوية ممَّا يحدث هنا؟!

ها قد وصلنا الطابق الثالث وحان ميعاد كشف حقيقة لغز الجواب الأول والذي صار وشيكًا، اقتربتُ من الباب البُنيّ اللون، وبعد تأكيد عدم وجود أحد بالجوار طرقتُ الباب ستّ مرَّات وسط ترقب من علياء وهي تقرأ الحرف الأخير المنحوت.

نظرَت إليَّ بأعينها الناعستين مُتسائلة عبرهما عن الخطوة التالية؛ فلم أُجِب لعدم المعرفة، و انتظرت بجانبها أترقب الحقيقة.

دقيقة، اثنان، ثلاثة، أربعة...، لم يحدث شيء، نقف أمام الباب فقط وقد أصاب الملل الممتزج بالخوف قلوبنا، اقتربَت علياء من الباب واضعة أذنها الصغيرة عليه، والتي تمنّيتُ أن أمتلك مثلها عوضًا عن تلك التي تستقبل ترددات أصوات النمل حتَّى لكبرها، افترضتُ الخوف فينا، وعلى ما يبدو أنَّه يطلني أنا فقط، رأسها يتحرك بالقرب مني قائلة:

- لا حركة بالداخل، على ما يبدو المنزل مهجور، وما نفعله محض إضاعة للوقت، هيَّا بنا.

- لن أغادر.

جحظَت عيناها للوهلة الأولى نتيجة رد الفعل العجيب، ثمَّ ازدردَت ريقها الجاف هُنيهة لتسير خطواتها الثلاث، ثم تقول:

- سأغادر إذًا.

لم أتحدث ولم ألتَفِت، فقط الترقب والنظر نحو الباب؛ فوحيد لا يتم خداعه، ومُحال أن تكون السطور مُزيفة، إن أرادت علياء الرحيل فلتذهب دوني بكل تأكيد.

رُبَّما انقضَت خمسة دقائق أُخرى، فلا أدري، لم أكن مُحبًا لارتداء الساعات، ولكنه يظل تخمينًا جيدًا، وما زلتُ قابعًا ألتَمِس الحقيقة، حتَّى سمعت صوت صرير الباب؛ فتجمدت العروق، من قام بفتحه؟ وماذا يتوجّب البوح به أثناء مُحادثة صاحب هذا المنزل؟ أأخبره عن الجواب أم أتلو تبريرًا آخر لمجيئي؟!

سكونٌ تام دون ظهور أحدهم، فقط كان الباب مُواربًا يعكس مِن خلفه إنارة منبعثة من أحد المصابيح، لأشعر بهواءٍ خفيف كان عنوانه ريح وشاح علياء الحنون، أراه يُرفرف خلفها وهي تنفُذُ إلى الداخل فجأةً غير مكترثة لأحد، فأتبعها مُسرعًا، وتبدأ الحقيقة في الانكشاف.

- حللتُ لغز الحروف.

كانت تلك الكلمات الخارجة من فِي علياء كافية لتصنّمي المؤقت مُتسائلًا كيف فعلَتها؟! دخلتُ وراءَها فإذا بي أجدها جامدة تُبصِر الباب من الداخل بأعينٍ منبثقة، وعلى شفاهها تكملة جُملتها عن حل لغز الأحرف، والتي كانت تقول:

- الـ"عقيدة".

انتعش عقلي مُتأرجحًا وهو يُرتب الكلمات الخمس "ع، ي، د، ق، ة"، نعم.. دون النظر إلى تُرهات الترتيبات الأُخرى يتراءى لي بأنَّها قد أصابت بحق، ولكن عن أي عقيدة يتحدّثون؟ وبأي مُنطلق بُعِثَ ذلك الخطاب عن طريق شقتي؟! عقلي الشقي يزداد شقاءً، ولكن يبدو أنَّ هنالك من يقف معقود الحاجبين دون أن يرمش قط!

- علياء! ماذا ألمَّ بكِ؟! أهو خشية أن نكون بالمكان الخاطئ!

لا تتحدث، فقط تُشير بسبَابتها نحو رُقعةٍ مُربعة لُصِقَت على الباب من الداخل؛ فاقتربتُ منها لأقرأ ما سُطِّر..

"العهد الأول من البشر، آدم الكريم سقيط الجنان ومُعمِّر البنان، تراه أفواه السامعين أبا البشر، وفي عقيدتنا لا نراه، لا نسمعه، لا نتحدث عنه أيَّها العم جان، سُبل الطُرق مرصدة، وذريته نالت ما ناله الأب، نحن عقيدة العهد الثاني من البشر، عهد الطوفان العظيم..."

كان هذا الشطر الأول من الورقة، وأمَّا الآخر فكانت فاجعته كالإعصار..

"ستتوالى الأجيال، أرواحٌ تائهة وأُخرى ترصد ما لم تقرأه الأعين وتستسيغه الآذان، سيأتي رجلان، وإن صحَّت النبوءة رجل وامرأتان؛ إحداهما قتيلته والأُخرى ستُشاركه الحدث، سيطرقان باب الغُرفة بأعدادٍ تقترب من الستة، ثمَّ يعودان بعد ثلاثةٍ من الأيَّام فيطرقان ويطرقان، سيقرآن هذه العبارات، وحينها فليدخلان البوتقة الصحيحة؛ حيث بدأ كل شيء".

تنظر علياء إليَّ بأنفس تتسارع ووجهٍ مُنتفخ الأوداج، يعلو لسانها:

- كيف عَلِموا بمجيئنا؟! مَن تكون يا وحيد ومن تلك المرأة القتيلة؟! ينبغي أن نُغادر؛ فلا أمان هنا.

- لا أعلم.

خرجَت صيحاتي ممُزِّقَة أحبال الحنجرة، ما هذا الضغط؟ وكيف لي تبيان الأمر؟ هل صار العالم كومة من التنبؤات؟! وما الذي أوقعتُ نفسي به، فصدقًا ما هذه الألغاز وتلك الحقب؟!

اتَّجهت علياء صوب الباب تفتحه، فلم تُفلِح، لتستنجد بي كي أُعينَها، وكانت النتيجة واحدة؛ لأتراجع خطوتين إلى الوراء مُتهجمًا:

- صُمِّمَ بطريقة الإغلاق من الداخل؛ فلن نقدر على زحزحته دون المُفتاح الخاص به.

أسمع صوت دقَّات قلب علياء يهفو خارجها، وكذلك أنا لا أقدر على التماسك أكثر من ذلك؛ فما القرار؟ هنا انتعشَت ذاكرتي تُريد الرجوع إلى الخلف عمَّا حدث مع الجد ذلك اليوم، أحتاج فقط إلى علياء لتفعلها معي، هي الوحيدة القادرة على إلقائي داخل فجوةٍ زمنية حيث بدأ كل شيء..

- هيا بنا ندخل الغرفة التي ذكرتها السطور، لعلَّ المفتاح داخلها.

انتشلتني كلماتها من اضطرابات العقل، وتوجهتُ معها إلى الداخل، وقد تتساءل كيف لنا ألَّا نصيح بمَن في الداخل لمُساعدتنا أو معرفة أين نحن؟! ولكن لا تحكم على عقلٍ مُضطرب وأنت تتناول القهوة بعد أن وضَعت حبَّاتها التسع.

ردهة ضخمة الحجم مزدانة بأحدث الطراز، لم أمتلك الوقت بل وقل العقل الذي يتفحّص، لنعبر من خلالها نحو دهليزٍ مُتَّسع يؤدي بك إلى الغرف المتراصة بجانب بعضها البعض، فأيَّهم نختار؟ وهنا بدأ عقل علياء في الرجوع إلى رشده مُجددًا لتُنادي "مَن في البيت؟" فلم يرد أحد! لم أُشغِل بالي بذلك، فقط أبحث عن ضالتي ولا أُريد الخطأ.

رأينا ثلاثة أبواب بيضاء على أخشابها نُحِتَت دائرة عجيبة الشكل، وكانت الكلمة المُشتركة بين الأبواب الثلاثة هي "الموت"!

- أيعني ذلك أنَّنا إن قمنا باختيار الغرفة الخاطئة فسنَهْلَك؟

كان سؤال علياء واضحًا كوضوح النتيجة، وبينما أُفكر في الأمر انقطع التيَّار الكهربائي وحلَّت الظُلمة، ظُلمةٌ أعلم خيوطها جيدًا؛ فهي لصيقة وأنيسة العشير داخل شقتي، والعجيب عدم هلع علياء، بل وقوفها دون حراك تنتظر مني الأجوبة، فأين أنا من ذاك؟! نظرتُ إلى الأبواب مُجددًا لأُبصِر مشهدًا جعل الدماء تتخثر ولو قليلًا..

الدائرة المنحوتة، ومع عتمة الليل استنارت بلونٍ برونزيّ قاتم، وظهرت خيوطها واضحة إلى العيان، أرقام من الواحد إلى التسعة مُوزّعَة بشكلٍ عشوائي حول إطارها، وخيوط تتصل بمنهجٍ عجيب لأترقبها عن كثب، وأشهد اختلافًا في توزيع الأرقام بين الغرف الثلاث، وهنا تحدثت:

- إذًا الغرفة الصحيحة هي التي تُمثلها الدائرة الأقرب إلى الصواب، ولكن ماذا تكون؟

لم تعرف علياء الإجابة بالطبع، وبدا على وجهها انتظار الفرج من الله عن طريق الروح الهائمة أمامها، فهل أنا قادرٌ على فعلها بحق؟!

دقَّقت النظر مُجددًا مُحاولًا معرفة اللغز، ليشتد الخيط الأسود بزوغًا وعنفوانًا، وحينها سمعتُ أنينًا كما حدث داخل الشقة يجتاح مسامعي؛ فوقعت على الأرض مُستنجدًا بعلياء التي هلعت نحوي غير مُدركة لما يحدث، على ما يبدو هو طنين الماضي وذكرى ستحل جُلَّ الأمر.

- علياء، أشعر بأنَّني سأموت الآن، نبضات قلبي تتسارع بلا توقف.

اقتربَت الفتاة مِنِّي، وبكفها الرقيق أزاحته لتمسّد به على كتفي، والآخر صنعت منه قبضةٍ لتغمده في القلب.

- صغيري، حان وقت الحديث فما الذي يؤرقك؟

***

- اذهبي يا حنان إلى والدتك ولا تخشي شيئًا على وحيد؛ فهو ذاهبٌ إلى عادته.. لعب الكُرة بالشارع.

كلمات الجد المُطمئنة كانت سببًا في تشجيع حنان؛ فهي تعي جيدًا أوامر زوجها الصارمة بعدم ترك ابنه الصغير مع جده، ووجوب مُتابعة الأم لذلك، ولكن مكروهًا أصاب والدتها التي تُعاني مرض السُكري، وتلك المستقبلات التي تأبى سطوة الأنسولين عليها، وتحرّى بها الهرع نحوها بعدما تيقّنَت من كون طفلها سيلجأ إلى الشارع حتَّى ترجع، وكنتُ أنا ذاك الطفل، كانت الخطة هي اصطناع تأفُّفِي من الذهاب إلى بيت جدتي لكُرهٍ مزعوم نحو خالي المفترس، وكون الشارع صديقٌ أمين يأويني حيثما ترجع والدتي من تلك الزيارة، كنتُ ممثلًا بارعًا وظفرت بما أُريد، أو لأكن أكثر دقة ظفرتُ بما يُريد جدي.

رجعتُ إلى المنزل بعد دقائق لم تتجاوز الست؛ ففتح لي جدي مُعافرًا على كُرسيه المُتحرك، لأسير وراءَه بحذر نحو مقبرته التي يقبع بها طيلة الوقت، غُرفته الغامضة، وهناك أمرني بغلق جميع المنافذ التي يخترقها ضوء الشمس مع إشعال أعواد الحطب، ثم جلب بعض الحاجيات إليه؛ ليبدأ وجهه في العبوس مُقربًا إيَّاه من بعض الوُريقات؛ فيبتسم:

- يبدو أنَّني تقدّمتُ في العمر كثيرًا يا وحيد فلا أقدر على رؤية الأرقام بصورةٍ جيدة، نعم أنت القاتل، ولكن لتُساعدني هيا.

صارت كلمات جدي أكثر عنفوانًا وتوغلًا إلى النفس، لا أعِي متى بدت هكذا، فقط حدث الأمر، اقتربتُ منه لأرى أرقامًا لا نهاية لها من الـ"واحد" وإلى ما يتخطى الـ"مليون"، وبينهما مُعادلات ورموز الجمع أو الطرح؛ فقد رأيتُ مثيلاتها داخل جُدران المدرسة، جعلني أُقلّب في الأوراق ريثما ينتهي من بعض الأمور، خرج بكُرسيّه المتحرك من الغرفة تاركًا إيَّاي بجوار المدفأة وتلك الأشياء التي أثقلت الهواء؛ فضاق على الرئتين الصغيرتين

امتصاصه، وهنا حدث ما لم يتوقعه الطفل الصغير حينها، ترك جدي بجانبي كوب قهوةٍ ساخن اعتاد خلال جلساته إجباري على رشف بعض القطرات منه حتَّى أدمنته دون القدرة على البوح له، انتهزتُ فرصة انسيابه خارجًا وأخذتُ أرتشف بفم طفلٍ صغير لا يقدر بعد على إنهاء فنجانٍ كاملٍ مُزدان بتلك المادة السوداء، ومع تلك الأجواء ثقل الهواء أكثر فأكثر، حتَّى حدث الأمر وفقدتُ وعيي دون أن أُدرِك السبب، آخر ما رأيته فقط كان الرقم تسعة.

***

طقس اليوم؟ مثلج!

المكان؟يبدو مريبًا بعض الشيء!

الأجواء؟ تميل إلى الضبابية!

خطوات متعاقبة نحو ركنٍ تغتصب نور شمعةٍ هزيلة ظلمته.. كينونته الغامضة، لتُكمِل تلك الروح ذلك الفعل المُشين، يدٌ ممتدة إلى الأمام ودائرة سوداء تدور، وبمجرد التقائها مع أُخرى تُخرِج من بين طيَّاتها صوت يقول:

(جبَّاااااار، جبَّاار، برقته جبَّاار......)

يتنهد الرجل ليجلس على أريكة موازية لتلك الأداة مستمعًا لما تصدره آلته المُفضلة "الجرامافون"، وما ينبثق منها من كلمات تُذيب فؤاده، وربَّما تعبث بعقله وهو مُغمض العينين فاتر النفس، تظن لوهلتك الأولى عند رؤيته بأنَّه قطعة بالية بلا روح مُلقاة لتستكين ريثما يُدركها الموت، تمر ثوانٍ يتبعها دقائق، حتى يسمع الرجل صوت آلته تقول:

(لو هصادف قلب مخلص مش هآمنله وأصونه، وإن ضحك في عنيا هضحك وأخدعه ويمكن أخونه.....).

متى كنت سعيدًا فوقع كلمات اللحن سيصل إلى عقلك يمتزج به؛ فيستأنس له، ولكن إن كنتَ حزينًا فلقلبك السطوة له من جسدك ما شاء؛ فتارةً يشلّ حركته وأُخرى يقبض على أعصابه حتى تخور، فما بالك إن كان المستمع يائسًا من رحمة الله!

يُغادر الرجل عند تلك اللحظة الرُكن بخطى هزيلة، فلا تسمع لحذائه همسًا حتى يصل إلى المكان المظلم، وهناك يخلع عويناته وهو يقول:

- هل تقرأ؟

صوتٌ آخر مزمجرًا مرتابًا يخرج ليقول:

"عام 1943 م، يقولون "فيلاديلفيا" ونقول "قوس قزح"، بارجة حربية عظيمة الشأن لها من الملاحين مسمون، على مرساها أمل وبحوزة أشرعها الطريق، ها هي تقف جامدة على الأمواج كأنَّما تتأهَّب لحدثٍ عظيم كما الثائرون خلف الزعماء من المشرق إلى المغرب، يهتفون ولا يعلمون... "

هنا يتوقف الصوت فجأة لرؤية ما يؤرقه، ولا يدري أيوحي ذاك بخيرٍ كان أو شر، يزدرد ريقه الجاف واعيًا لخطرٍ قد اقترب، ليسمع صوت الرجل يقول:

- هل تقرأ؟

"الناس يصيحون، يحيا يحيا، سنغيب عن أنظار العيون، وفي اليوم الموعود ستأتي أجيالٌ تعلم بشأن أسلافهم الكِرام، يحيا يحيا العلم والعُلماء، وفي أيديهم تُرفرف الأعلام، نعم جميلة هي الحُرية يا من تُطالبون بها وإليكم الأمر.. ها أنا أستمع إلى طلقات مدفع قديم، دويُّ صوت طلقاته يُشبِع الأذهان الملتهبة للبدء، ومعه أرى القوس، تلك الألوان التي ولطالما خشيتُ أن يُحوّلها الإنسان عبر سنوات إلى آفة تعكس الشرور، وسط ترقب وخيفة انطلق شعاع المدفع مسرعًا...".

يتنهد القائل متصببًا العرق من جبهته فهل يكون السبب ما يتلوه أم لما يحدث داخل المكان المظلم؟!

للمرة الثالثة والأخيرة يقول الرجل:

- هل تقرأ؟

"عيون ترقب وعقول تلوم، لماذا؟ وكيف تحول الصخب إلى صمت والأمل إلى سراب؟! أصاب الشعاع البارجة بمن عليها وما حدث يندى له الجبين، صرخات لا حصر لها، اختفاء مؤقت ثم ظهور دام للأبد، ما هذا ما الذي...؟! تلك الأجساد تعود لمن؟! أيمكن أن يمتزج الجماد بالروح، القلب النابض بالتِّرس، نعم يحدث الآن أمام الشواهد والأعيان؛ فقد الْتصَقَت الأجساد بالبارجة حتى ظهر منها الأجزاء، تارةً ترى رأسًا مسوَدّة وأخرى تشهد أرجل أو صدر ينبثق دون بقاياه إلى الأمام في مشهدٍ مُروّع، فما الذي حدث ومن يكون وراء ما حدث؟! الجميع قد لقي حتفه!"

ارتمَت الصحيفة المُهترأة بين جنبات الرجل العجوز، وقد قام باختطافها من القائل الصغير، نعم كنتُ أنا القائل وقد ارتعد عقلي من مشهدٍ لا أنساه إلى اليوم، جدِّي يمشي على قدميه، يذهب هنا وهُناك فلا اهتزاز لكُرسيه المُتحرك ولا أنين! وما هذه الأداة الموضوعة على الطاولة و أين نحن؟! صرتُ أُدقّق النظر لأجد نفسي على كُرسي مهترأ، وعلى بُعد خطوات من الساعة وعقاربها المُميزة، المدفأة الخارجية والطاولة التي تحوي فوق عظامها أداة يقول عنها جدي "الجرامافون"، إنَّنا في الردهة، ولكن لمَ هي مُظلمة إلى ذلك الحد؟!

- أعلم بأنَّك أمين لا تفشي السر ولو على رقبتك، وإن فعلتَ فأنت أيضًا لك سر عندي، وقد أُفشِي كونك قاتلًا.

اهتزَّت أرجلي رهبةً وخيفة، "لن أُخبِر أحدًا بأنَّ جدي يسير مثلنا؛ فقد أكون قاتلًا وهو يحميني"، كانت تلك الجُملة هي أكثر ما تردّد عبر عقلي، حتَّى أردف جدي قائلًا:

- ما قرأت يعجز عقلك عن فهمه الآن، لكن سن التاسعة ليس بصغير، إنَّما هو العُمر الأنسب لبدء رحلتك نحو الخلاص؛ ففي مثل هذا السن كانت رحلتي أيضًا، عن طريق رجل هو الأثمن بتلك الحقبة وداخل هذه البلد.

جحظَت عيناي وهي تُراقب جدي الذي استعاد شبابه، وصار يستزيد في كلماته دون أن يقهقه أو يتملكه السُعال المصحوب بتلك المادة الخضراء اللزجة، الأجواء حقًا تدفعني إلى الجنون، ها أنا أراه يُحضِر قلمًا ويبدأ في رسم شيءٍ ما وهو يقول:

- تلك التجربة وهذه الكلمات الحكيمة تعود إلى عالمٍ هو الأميَز من بين نظائره، تعدَّى أينشتاين ولم يحظَ بمثل صيته، كما ذكرتُ لك سابقًا هو الأب "تسلا".

سمعتُ عن هذا الـ"أينشتاين" سابقًا، وعن تلك الـ"نسبية" الخاصة به، فلم أجلس لأرى أفلام الكارتون مُطوّلًا مثل أصدقائي، بل أجبرني أبي على رؤية عالم الحيوان وقنوات العلم، وحينها تكرر اسمه كثيرًا، أمَّا عن "تسلا" فهو عنوان الجلسة السابقة بيني وبين جدي، ولم أعلم عنه قط!

- الآن يا وحيد ستعلم السر الذي جعل من "تسلا" الأب الروحي لنا، ستعي كونه المُتحرر الأكبر، ولمَ ينبغي الخضوع إلى أروقته وبنات أفكاره، ما بين يدي الآن كنزٌ سيجعل منك مطمَعًا بين جماعتين؛ فهل ستتملّص من تلك الحقيقة يومًا؟!

أسبلَت عينان الجد ليزدرد ريقه، ثمَّ يُكمِل عازمًا:

- هذه هي "مصفوفة الكون"، بل قل "دائرة الطاقة العُليا".

انبثقَت عيناي من موضعهما وأنا أُبصِر دائرة على حوافها نُحتَت أرقامٌ من الـ

"واحد" إلى الـ"تسعة" تصل بينهم جميعًا خطوطٌ سوداء مُتصلة، فيما عدا اثنين تشكّلَا بنقاطٍ متفرقة، لتُكون جميعها في الأخير مشهدًا مُرعبًا على النفس لا تقدر على الرّنْو ببصرك بعيدًا عنه أو انتزاع رهبته من بين ثناياك وأنت ترقب تلك الدائرة اللعينة، ما زلتُ أحفظ رسمة جدي إلى الآن؛ فقد كفَتْني نظرةٌ واحدة مُطولة تخزين تفاصيلها داخل العقل، وما أخرجني ممَّا أنا فيه هو صوته الغليظ يقول:

- صغيري، أنت القاتل الحقيقي، وبرؤيتك الدائرة صِرْتَ قادرًا على إنهاء الأمر، غدًا ستقتُل...

صيحاتٌ متصلة واندفاع إلى الخلف مع المزيد والمزيد من السائل الملحيّ الذي يُدعى "العرق"، كانت تلك حالتي التي ابتعدتُ بها عن قبضة علياء الماسدة على قلبي وهي ترتجف بجانبي، وأُقسِم كونها تتمنى لو لم تكن هنا اليوم، رأيتُ عينَيها الناعستين وقد انقلبَت إلى أُخرى شديدة الاتَّساع، ويديها الأملستين وقد هاجمهما شُعيرات سوداء تتصلّب من الخوف؛ لأقف مستزيدًا في أنفاسي جابرًا إيَّاها على إدخال ضِعْف كمية الأوكسجين.

عرفتُ الآن أي الأبواب هو الصحيح، تلك الدائرة ترجع إلى ذكرى حالكة لا أعلم هل أشكرها على مساعدتنا اليوم أم أبغضها خشية أن تكون حقيقتها مُظلمة، سرتُ ببطءٍ لأقف أمام الباب الذي في المنتصف وقد حوى على أخشابه الدائرة بتسلسل الأرقام الصحيح النابع من ذكرى الماضي، لأدفعه برفق وخلفي علياء تقول:

- من أنت يا وحيد؟!

***

في نهاية كل يوم تقترب الساعات أكثر؛ فهو ليس بتنجيمٍ أو طبول يتم قرعها ذاعنَة بقرب اليوم العظيم، هذا بلاءٌ مُبين يُفرّق فيه بين الحقيقة

والسراب عبر بضع سنين، حيث العقول توشك أن تصدع بما كسبت أيدي الناس، وحيث المؤمنون يفرحون بالنصر العظيم، وإن ماتَت القلوب فكيف للأذهان أن تعِي المرسول؛ فهل لك أن تحدّ عن العهد القديم أيَّها العم جان صاحب المعزوف اللعين؟!

***.

كانت كلمات علياء حانقة نعم، خائفة بالتأكيد، ورُبَّما أمسَت ترتعد وإن لم يطل مظهرها الثابت؛ فقد طال شفتَيها البيضاء، لم ألتفِت إليها، إنَّما صرتُ أرنو بنظراتٍ ثاقبة نحو ثنايا الغرفة، وكانت مُضيئة بفعل النيران التي تزدان بها عبر أعوادٍ من الخشب مُعلقة بالأعلى لأتيقّن من أنَّ هذه الشقة ليست مهجورة، إنَّما يقطنها أحدهم، وعلمتُ بوجوب الإسراع في معرفة الحقيقة قبل أن تظهر تلك الروح الساكنة؛ فالخطر قادمٌ لا محالة، الْتصَقَت علياء بكاهلي وهي تترقَّب فعلي القادم، وقد بدا جليًا حرصي المُستمر على إخفاء آثار فاجعة ما أرى الآن.

لوحات كبيرة الحجم تراصّ بجانب بعضها البعض ويبدو عليها القِدَم، غرفة خالية من الأثاث، فقط تلك المرآة القابعة على الأرض وبشكلٍ طولي وقد نُحِتَ على جنباتها كلمات ليست بالعربية، ولم أقدر على ترجمتها بجانب منضدة متوسطة الطول بُعثرت عليها أوراق متباينة، كان هذا الوصف هو الأدق لما أراه أو ما اعتقدتُه حينها، لأُقرر الاقتراب من اللوحات، وتتركني علياء مُتجهة نحو المنضدة، وقد كان عدد اللوحات ستة تلوّنَت إطاراتها بألوانٍ تُشبه إلى حدٍ كبير تلك التي في قوس قزح!

على الميمنة كانت اللوحة الأولى، وبدت الكتابات عليها بارزة بعنوانٍ في المنتصف يقول:

"العهد الأول من البشر"

صرتُ أُمرّر عيني بين السطور، وما لفت غرائزي كلماتٌ معينة: "شيث"، "لا دخل لنا بذاك العهد المندثر"، "سُلطة حواء على آدم عبرة لا تراث"، "ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرا"، "الظهور الأول لإبليس"، "الطوفان".

كانت تلك الكلمات هي أبرز ما جاء في تلك اللوحة، وبقيتها قصص مسرودة عن الكون ونشأته بجوار بداية الخلق وأولاد نبي الله آدم، وكان التساؤل الحاضر بذهني حينها لمَ يقولون "لا دخل لنا بذاك العهد المندثر"؟!

تركتُ اللوحة الأولى مُتجهًا إلى أُخرى بجانبها، حيث تلطّخَت بلونٍ آخر، وبالتأكيد عنوانٍ آخر كان مفاده:

"الأسود والأبيض"

انقشعَت أغبرة طوفان نوح العظيم، وانتظر قوم السفينة لأشهرٍ اندثار الماء ورؤية التُراب؛ فمنه وإليه نعود، أرسلَ الرسول غرابًا أسود؛ فلم يعد، وكان العداء مع البشر مُحدّدًا بلونه، بل وفصيلته بأكملها؛ فأرسل الرسول حمامة بيضاء تسر الناظرين لتأتيه بالبيان، وخير لونها الذي سيستمر لعقودٍ من الزمان، وقد فعلت وروَت له رؤية اليابسة وقرب الميعاد المحتوم.

العهد الثاني من البشر بدأ، وفي معتقداتنا يقولون عهد البشر الحقيقي، ونسل "نوح" هم من سيُسطّرون التاريخ.

انتهيت من قراءة اللوحة الثانية، ولم تكن الكلمات كثيرة مثل سابقتها لوجود أوراق بالأسفل رُسِمَ عليها تضاريس أرضٍ لا أعلمها، وهيئة مُفصّلة لسفينة ضخمة الحجم لم ترَ عيني ما يفوقها وهي تطفو فوق الأمواج العاتية.

اتَّجهتُ نحو لوحةٍ ثالثة وقد نال الإرهاق من عقلي وجسدي الآخذ في الأفول، وبأعينٍ تلمح حقيقة الماضي السحيق بدأتُ في قراءة الثالثة، وكان مفادها..

"البداية"

يتحدثون عن قابيل وهابيل، تراهم يأخذون عناوين الصفحات وقصة القتل الأولى عبر عبق التاريخ، ثمَّ أتَى شيث ومن بعده انسلَّت الأنسال ما بين أنوش وقنان جاء لامك، ولم يعلم حينها بأنَّه الأب الأول لرسولٍ تبدأ من بعدِه حقبة الآبدين، دعهُم ينشغلون بالأمر و اترك لنا التراث، هبط نوح من بعد الطوفان العظيم، وكان لذريته ثلاث: "سام" فصار من نسله العرب مع الفرس والعبريين، ثم "حام" فكان لنسله الأفارقة والحبش، وأخيرًا "يافث" حيث صار قمة شجرة متفرعة الأركان نحو الترك، الروم والقوم الجبَّارين "يأجوج ومأجوج"، نعم فقد انقسم أبناء الرسول ساعِين في الأرض مُستكشفين ذرَّات غبارها بعدما قُضي على أخيهم الكافر "كنعان" في الطوفان، وحُجِبَ عن أعين والده رؤيته والأمواج تلتَقِفه عبر قمم الجبال، لا استغفار له والعذاب مقرونٌ بروحه حتَّى يوم الحساب.

تعاقُب الأنسال كان كافيًا نحو نشأة التاريخ؛ فالجميع يدرس الأنبياء ونظائرهم من الطغاة وعبق القصص عبر طيَّات الزمان، ولكن غفل القوم عن نشأةٍ أُخرى حادَت عن الجانبين، و اتَّخذت من نفسها سبيلًا منفردًا تطول أيديها به صغائر الأمور لإحداث الفوضى وأعظم الأحداث، جماعةٌ نشأت من قلب الحروب لرجلٍ يُدعى "كومر بن سليل الصقلبي"، ولا يفصله عن نوحٍ سوى ستة أجيالٍ فقط، وقد رأى الرجل الحكيم أنَّ الأرض ستمر بأمورٍ عظام لا مفر منها ولا حُماة؛ فأطلق جماعته وأسماها "العقيدة"؛ حيث بدأ كل شيء...

هنا لمحتُ الخيط الأسود وهو ينفجر، لم يُعطِ إشارةً بالبدء كما فعل دومًا، بل خرج جليًّا من جسدي؛ فاشتدَّ وغلظَت أركانه في وقتٍ لم يتجاوز

الثانية، كسَت شرائط الدماء مُقلتي الأعين، وصارت أنفاسي مُتسارعة تأبى الخفوت، لأصطدم بصوت علياء تقول:

- وحيد، تعالَ؛ فهنالك أمرٌعجيب.

توجهتُ صوبها لأرى يديها الناعمتين وهما تلتصقان بحفنَةٍ من الأوراق قد امتلأت بالمُعادلات اللامتناهية، وقد صارت تُزيح الورقة تلو الأُخرى لتكْشِف عمَّا نُحِتَ فوق المنضدة وعلى أخشابها، كانت دائرة عظيمة تبرُز وكأنَّما صار لها لسانٌ بشريّ يصيح بالزئير ووجوب الخوف والتراجع عنه، كانت شبيهة لتلك التي كانت على الأبواب بالخارج، فكما لو كانوا تزييفًا للوحة موناليزا أراها أمامي الآن، الخطوط المُتصلة داخل الدائرة تُشبه إلى حدٍ كبير أجنحة الفراشة، والنقاط التي تصل الأرقام "3،6، 9" يأخذون شكل المُثلث وكأنَّما صار أساس البُنيان، وبجانب الأرقام التي تعتلي حواف الدائرة كانت أُخرى موازية لها ما بين الحروف وترددات الألحان، لأتراجع خطوتين إلى الوراء وعلياء ما زالت قابعة على الأوراق وذهني يعصف بكل شيء.. "ما الذي يحدث هنا؟!".

حالة من الصمت لم أعِ أين نكمُن؟ وهل صرنا داخل فجوةٍ زمنية تتلو على عقولنا التاريخ؟! رجعتُ مرةً أُخرى إلى اللوحات وقد تبقَّت ثلاث تاركًا علياء خلفي متفحّصة المرآة؛ لأتوجه إلى اللوحة الرابعة وكانت تقول..

"الممالك"

كان للأرواح عقودًا مديدة، فعاش الحكيم "كومر بن سليل الصقلبي" لما يتجاوز السبعمائة عام، عاصر خلالها ممالك القوم وبدء نشأة الخلق كما قال وأجاز، قال الحكيم إنَّ الحضارة الأولى لم تكن بدوًا وصحراء، إنَّما إعمارٌ وجاه؛ فلا يعرف الخلق غير حضارات ما بعد الطوفان، فبعد توسّع نسل نوح ظهرت ثلاثة من الممالك جبَّارون لم يقوَ على ردعهم سوى أنفسهم، وكانوا وبالترتيب... "المصريون القدماء، السومريون، المايا".

لم تكن بابل حينها قوى عظمى، بل كانت مملكة صغيرة ما بين النهرين، وتلك البلاد اشتعلت بالحروب، الآشوريون في الشمال ولارسا في الجنوب، حيث يقبع الحاكم "ريم سين" بجانب العيلاميين على حدود إيران، وسيقولون عنهم الفرس عمَّا قريب، وهنا جاء دور العقيدة.. الجماعة التي ستتحكم بمُجريات الأمور.

رأى كومر الحكيم بوجوب سطوع مملكة أُخرى تُنازع المصريين على السيادة، ولتطبيق الأمر وجب وجود الخصوم؛ فتعتلي كل مملكة بارزة ما تملك من عتاد وعبقرية المهندسين، وظهر إلى التاريخ ملكٌ عظيم يُدعى "حامورابي" كان سببًا مُباشرًا في توحيد الممالك وبلاد ما بين النهرين تحت وطأة بابل، وفي الخفاء عَمِلَت عقيدة كومر على نُصحِه و إبراز الطرق الصحيحة لإكمال الطريق؛ فأخضع الآشوريين تحت حُكمِهِ دون نقطة دمٍ واحدة، وحاصر مملكة لارسا من الخارج كالبوتقة حتى أسلمَت له، والتاريخ سيُعيد نفسه بنفس الطرق؛ ستنقضي الأمم وتُحطَّم أُخريات مُلهبة الحناجر وراء الزعيم دون أن يُدرِك أحدهم بأنَّ العقيدة وراء كل شيء، كان مبدأ كومر حينها "نحن لا نُريد المُلك، فقط نرصدُ توازن القوى حتَّى قيام الساعة".

بدأ كومر بترسيخ أفكاره سرًا إلى حفنة من الرجال لم تتعدَّ أعدادهم الخمسة، وكان يعمل بمنطق الكيف لا الكم، رجلٌ واحدٌ ذو منصبٍ نافذ أبرك من عشرات المواطنين، وكانت البداية الحقيقية للعقيدة "حرب كركيمش"، وداخلها تلاحمَت القوى الثلاث ما بين بابل، المصريون القدماء والآشوريين، لم يشغَل بالُ الجماعة من يظفر منهم بالفوز، إنَّما حدوث المعركة بحد ذاتها وتحقّق توازن القوى؛ فكانت تلك أعظم الانتصارات الملموسة بذلك الوقت".

انتهَت اللوحة الرابعة، وما أقرأه لا يبدو لي سوى إذعان بكون هذا العالم مقبوضًا عليه بين أذرعٍ شتَّى، ولكن ما شأن أبي بذلك؟ ولمَ وجدتُ الجواب داخل شقتي؟ ومن السبب في جلبي إلى هنا الآن؟! هل أقرأ بقية اللوحات أم أكتفي بتلك السطور؟ فالخيط الأسود اشتدَّ عزمه وبات يتشكّل على طرفه ظِلُّ الرجل الذي دخل غرفة أبويّ والتَهمَتْه الزواحف!

تصبَّغ الجانب السفلي من العين بالأسود القاتم، وصوتٌ يهمس مُخاطبًا العصب السمعي.. "هل تقرأ؟".

تشنج جسدي لتلك الجُملة، "لا أُريد العودة مُجددًا، ومن يتحدث الآن؟!" خرجَت تلك الكلمات صاخبة؛ فأثارت انتباه علياء التي تقف بجوار المرآة تسعى لإخراج لغزها، وضعتُ يدي على فمي بغية إجبار النفس على الصمت، وما بين لحظةٍ وأُخرى رأيتُ نفسي واقفًا أمام اللوحة الخامسة متصنّم الكاهل بارز العينين، أقرأ بعقلٍ كاد أن يُجن..

"الأرقام"

قُبيل موت كومر الحكيم بحث مُطولًا عبر العصور عمَّا يُعينه بغية استمرارية العقيدة؛ فقد أدرك جيدًا بأنَّه يحتاج إلى العلوم بجانب القوى، المكر والدهاء، ولن تُفلِح جماعة بات أساسها هشًّا؛ لذا أخذ يبحث في أمِّ القُرى وهو يرى آيات العذاب وسائر الحضارات؛ فمنها من بات سالمًا وأُخرى اندثرت كما حضارة النمرود، حتَّى وجد ضالته..

في يوم الخسوف حيث القمر تطويه كرة الأرض؛ فتحجب بكرويتها المائلة إلى البيضاوية أشعة الشمس من النفاذ، قَدِمَ إلى كومر رجلٌ مُلثّمٌ على جبهته آثار جُرحٍ بارزٍ وعميق يُدعى "أسموديوس بن أعور"، أخبرَه بأنَّه قد سَمِعَ بشأن العقيدة ويُريد الانضمام؛ فأوجس كومر في نفسه خيفة، خشيةً أن يكون من أتباع أحد الملوك، ولم يُدرِك حينها بأنَّه السبيل نحو ما يطمح؛ فبعد اختبارات الحكيم نجح المُلثّم في كسب ثقة الزعيم، وأخبره بكون العلم يكمنُ في الأرقام بعيدًا عن الفيزياء والفلك، و اندهش كومر لقوله؛ فكان له ما أراد..

أهرامات مصر القديمة، أهرامات السومريين وبرج بابل العظيم، جميعها تم بناؤها على أساس كونها مركزًا للطاقة ،ناهيك عن كونها قبورًا في المظهر ولغير العاقلين، وكونها مراكز طاقة تمَّ على أساس الأرقام؛ فقد اكتشف القُدماء السر في الترتيب، وعثروا على دائرة الكون، حيث تتحكم ثلاثة أرقامٍ فقط في طاقة الحياة وكانت (3، 6، 9) لم يعِ المُلثّم حينها كيفية عملها، وترك جُلَّ الأمر إلى كومر يُقلّبه كيفما شاء، وكانت سنون الحكيم الباقية كافية لحل اللغز ومعرفة بأنَّ تلك الأرقام مُفتاح كل شيء، فإن تمَّ بناء الأهرامات بقواعد تتألف من ال (3، 6) وقمة رأس تعكس ال (9) ستصير مركزًا هائلًا لضخّ طاقة الكون، وبها سيتفشى العلم وتبزخ الحياة.

كانت تلك الأُحجية دائمة التجدد، كيفما كانت العقيدة عبر تاريخ كرة الأرض من الطوفان مرورًا بالممالك، وحتَّى بعث الأنبياء انتهاءً بخاتمهم "مُحمد بن عبد الله".

أمسكتُ برأسي مُترنحًا لا أدري ما الفعل المُناسب لأردّ به على تلك السطور؟ ففي أي فجوةٍ زمنية دخلتُ وعلى أي بُساطٍ أقف الآن؟! امتزاجُ الواقع الذي يتلوه كاتب تلك السطور مع المُسمّيات يوحي بأنَّها لوحاتٌ تعكس الحقيقة، ليسَت كمثائلها من الروايات والكُتب، فمن أين استنبط الكاتب جُلَّ الأمر؟ بل وأذعَن في صدقه بالإثبات والأسماء! هنا سمعتُ صوت علياء ترتجف خوفًا وهي تتراجع خطوات إلى الوراء، يهجم صوتها قائلًا:

- وحيد، يجب أن تنظر إلى ما أراه.

توجهتُ إليها بعقلٍ قارَبَ على الهذيان، ومع وقوفي بجانبها أشارت بسبَابتها نحو المرآة دون أن تُحرّك شفاهها؛ فرنوت ببصري حيث أشارت، وصُعقت لرؤية انعكاسًا لكلمات كُتِبَت بملءِ الغرفة مفادها:

"العقيدة"

كيف لم نلحظ الخطوط على الحائط والأرض؟! ولكن ما هذا؟! من بين اللوحات كانت الثالثة مُضيئة على المرآة يظهر عليها انعكاسٌ باهتٌ يلزم عيون صقرٍ لمُلاحظته، ولربما لم تُبصِره علياء، وتحتَّم عليّ تركها وإكمال اللوحة الأخيرة لإنهاء حقبة التاريخ تلك، توجهتُ نحو اللوحة السادسة، وكان عنوانها عجيبًا...

"وطن العقيدة"

أُدرِك جيدًا أيَّها القارئ للأذهان كونك غافلًا مُرتابًا، ليس لك من الأمر شيء، تُريد فقط أن تنتهِي السطور لترحل بعيدًا، ولكن دعني أتلو على قلبك البيان، وبه ستعلم بأنَّك داخل لُبِّ الوطن الحقيقي..

لقراءتِكَ الكلمات باللغة العربية فهذا يعني كونك فردًا من الشرق الأوسط، بلاد الرافدين، مصر أو الشام، وعلى أغلب الظن ستكون عربيًا دون أن أعلم ديانتك؛ فلستُ بمُنجمٍ إلى ذلك الحد، فلتعلم إذًا بأنَّ تلك اللوحات الستّ يقبَعْن في جميع البلدان التي وقع عليها الاختيار، وبالطبع تتواجد داخل الأمريكتين وأوروبا، وقد اجتمعَت اللوحات الخمس السابقة على ترادف السطور، فقط اختلاف اللغة، ومن هنا سيأتي التباين والسطوع؛ فأنت أيَّها العربي سأروِي عليك أحداثًا أنت فقط من تعلَمها دون التدخل في الثورات القاطنة بأربابكم؛ فأنت وبالتأكيد تعلم الحقيقة دون أن أُملِيها عليك، هنا فقط سأتحدث عن العقيدة..

الحرائق التي اندلَعَت في بلادكم ومن بينها حريق القاهرة، كانت تجربة رائعة معاونة المُدبّرِين على إتمامها باستخدام مواد الأسيتيلين، ورؤيته يرتبط بالأوكسجين، والوصول إلى درجات حرارة تتعدى الثلاثة آلاف، كم كانت الأبواب الخرسانية هيّنة الاختراق، وكم كانت صيحات القوم كمثل

حنجرة أم كلثوم على الغافلين في المسارح، ثمَّ تحجِيم الهوية العربية وإبدالِها بلُغة المستعمر في بلاد الشمال؛ فلا ترى رجلًا يذكُر جملًا عربية إلَّا وكانت اللغات الدخيلة وسطًا بين حديثه، فلا يدري المرء أين يقبع وإلى من يتحدث، ما يشغلهم فقط هو نسَبهم أكان أمازيغيًا أم عربيًا؟ مُتناسيين ما ألمَّ بهم ووجوب اتّحَادهم، ثمَّ هؤلاء منَ يجلسون جوار يهود بيت المقدس، ولا يشغل بالَ العقيدة قضية الهيكل والهدم؛ فأنت أيضًا تعلم حقيقتها، نحن فقط نُوازن القوى كما ذكرتُ لك؛ فلا ينبغي للمقاومة أن تعيش وحيدة دون إخوانهم من الداخل والخارج، يكونون عليهم خير عدوٍ وآثام؛ فلن ينصفهم السادة، وستظل الشعوب مُندّدة بلا حول لها ولا قوة، وكما فسدَت الأديان بالخارج لتفسد ببلاد الشرق؛ فنحن لا علاقة لنا بمن يُشككون في الأحاديث وبيان قرآنكم أو الإنجيل وتحريفه، نعلم كونهم يخرجون عليكُم ليل نهار بغية إفشاء الفكر، ونحن لسنا ممَّن يُروّجون لعقيدة أخرى غير ما اعتاد عليها المسيحيون في البلاد، العقيدة ليسَت بتلك المُباشرة ولا يهمها الأمر، بل تبحث عن توازن القوى حتَّى يوم البعث، كيف تُختَرق الأمم؟ سؤالٌ حكيم إجابته في الوطن؛ فلتقُم بالبحث عن كل منشأة وستجد لنا بابًا؛ ففي فئة المُعلم سنغزو طريقين.. عالم الأطفال الصغار وآخر حيث الجامعة لترسيخ الأفكار داخل الوجدان، الفئة الطبيّة أيضًا غايتنا؛ فأهلها يُخاطِبون القوم كل نهار، وحيث يكثر الحديث يكثر التصديق ممَّن يظن الناس فيهم الحكمة وارتقاء العقل، وأخيرًا فئة الأديان؛ فقد يعبثون هؤلاء بإعلامكم، ولا شأن لنا به، نحن لا نعمل سوى بالأسفل؛ حيث تقطن موازين القوى، فلا نُدرك شيخًا ورعًا أو قسيسًا جليلًا، بل نقصد صغارهم؛ فهم المقربون من الأرواح بالفتوى والحديث.

نعم يا قارئ اللوحات، العقيدة بدأت عبر رجلٍ في القِدَم وباتت قابعة أبد الأبدين؛ فهي تخترق دون أن يلتفت إليها أحد، وتغزو دون طلقة مدفعٍ

واحد؛ فالعقيدة لا تُريد رأس الهرم بل قاعدته، وبالقاعدة قد توغّلَت في كل شيء دون أن يُدرِك أطراف القوى عنفوانها؛ فلا تجذع إن أخبرتك بكونهم مذعورين لا يفهمون أيضًا ما بات في الأرض، ولكن أيدوم الجهل؟!

قبل تركك فلتعلَم بأنَّ العقيدة تنسِفُ الهوية وتُبدّل الأعراف، ونتيجة لها يجب أن تولد ما يوازيها من مؤسسات لكبح تقدمها، وبرغم فشلهم برزت واحدة فقط ناطحت وباتت قريبة من النجاح؛ فهم جماعةٌ يقولون على أنفسهم "التنوير"، لا نعلم عنهم الكثير، ولكن احذر! فلربَّما طالوا منك شيئًا لجعل القوى تتوازن مرةً أُخرى.

أُريد أن أصرخ، أهتِكُ عذرية الغرفة وأُشتّت أمرها، لا يقدر عقلي على الإلمام بكافة تلك الأمور، فهل صارت تلك العقيدة أشد وطأةً من الماسونية التي نعلمها جميعًا؟ ومن هم أهل التنوير هؤلاء؟! ماذا يُريدون وفي أي عصرٍ برزت مخالبهم لتقلب الموازين؟! نحن لا نعيش وسط جماعة من الحمقى إذًا والسعي وراء الموازنة خلَّف لنا السوءة والفناء، جميعنا سواء، لا مصر أم الدنيا ولا الغرب أبو العقول؛ فقد اتفقنا على الخديعة وبلاهَة الشأن، ولربما كانت حروبهم العالمية قد اندلعَت بفعل تلك الجماعة، وأمام أنظارنا "هتلر" اللعين وقوَّات الحُلفاء!

لأول مرة ومنذ سنوات أُريد أن أبكي الآن، أن استنشق رائحة الهواء وقد لوّثَه المُخاط المنزلق عبر حاجز الأنف، النجدة يا علياء! وأي نجدةٍ تلك؟! فأنتِ حاسرة الرأس معقوصة الجبين.

علياء، آآه يا علياء! فدومًا ما كانت الظل الذي يُجلِي عن كاهلي حرقة الشمس وسلخها، متى وقعتُ بين طيَّات النفس كانت هي الملجأ والملاذ، فها قد اقتربت وأخذت تمسّد على كتفي قائلة:

- أعلم جيدًا بأنَّك تجهل الأمر كما الحال بي، لا ألومَنَّك يا وحيد ولن أقسُو عليك، لنبحث سويًا عن الحقيقة؛ فأنا أُقيلك من عثرة الذنب.

رنوتُ ببصري تجاهها؛ فرأيتها جميلة المطلع بهية الهيئة، عيناها تلمعان وشفتاها تتوردان بالمسك، أُريد أن.. أُريد أن أُقبّلَها! أن أحتضنها بين ذراعَيّ الكبيرتين هاتين، الدين فقط من يمنعُني عنكِ، من يخلق في قلبي الرهبة والذُعر، وهنا تراءى إلى مسامعي صوت أحد الشعراء وهو يتغزل بحبيبته وقد منعه الدين مثل حالي، لكنه فجرواستزاد بقوله:

"فإن كان التقبيل مُحرمًا في دين مُحمدٍ=فعذرًا يا رسول الله أنا على دين ابن مريم"

أليس مُحمدٌ وعيسى أنبياء الله؟ أليسوا أصحاب رسالاتٍ مُتشابهة؟! فكيف أباح أحدهم ومنع الآخر؟ لماذا التضاد والوجهة واحدة؟ أم أنَّها أيضًا كانت خدعة العقيدة؟!

طردتُ عن ذهني ما سوّلَت به النفس، واندفعتُ جانبًا وقد توارَت يد علياء عني، حتى اقتربت مرةً أُخرى من المرآة وأنا أقول:

- أرى انعكاسًا آخر للضوء على تلك البقعة من الزجاج، لا شأن لكلمة العقيدة به، ألا ترينه يا علياء؟!

دقّقَت النظر، وإذ بها تصرخ قائلة:

- كيف لاحظتَ هذا الضوء البارز على تلك اللوحة؟ أهو بصرٌ تعدَّى الأرانب أم شيئًا آخر؟!

ابتسمتُ ورددتُ:

- لم أُحِبّ الجزريومًا.

توجّهتُ نحو لوحة "البداية" حيث يبرز على المرآة انعكاسًا مُميزًا للضوء، وأخذتُ أتحسّس جوانبها، حتى غرزت يدي بإحدى القطع المُزخرفة، وحينها انقطع التيّار الكهربائي مرةً واحدة؛ ففزعتُ مُتصلبًا

برهةً من الوقت لأتراجع بعدها خطوتين إلى الوراء؛ فأصطدم بجسدٍ صلب.

- علياء، عذرًا لم أقصد.

أتاني صوتها بعيدًا تقول مرتعدة:

- عذرًا على ماذا يا وحيد؟! أين أنت؟ أخشى الظُلمة.

تجمدتُ مكاني لحظات بلسان حال "من الذي لامستُ جسده إذًا؟"، لألتف برويّة وخيفة؛ فأرى ظلًّا يسير ببطء، تلعثمَت شفتاي وقد أرادت أن تلفظ بالصيحات لأسأل عن كُنية المتجول، ولكن لم تقدِر، وهنا تذكرتُ أقوال الشيوخ وأهل الدين عن رهبةِ وثقل نطق الشهادة وقت فراق الروح، وكيف لمعلومةٍ مؤصلةٍ في النفس أن يعجز القلب عن إخراجها وإن أدركها العقل!

انقشع الظلّ من أمامي، لأسمع بعدها صرخات علياء:

- أحدهم يعبث بي، أهو الجان؟!

"الجان"! لا عاقل يؤمن بوجودهم ولا جائرة تذهب إلى من يذكرُهم؛ فهم إلى أصحاب البصيرة سرابٌ لا أصل له، ولكن ما هي الأصول التي تتعدَّى كتب السماء وكلمات الإله؟!

اندفعتُ نحو علياء مُتظاهرًا بالشجاعة وقلبي يخفق من الرجفة، انقشعَت الظُلمة للحظات؛ فرأيت نفسي و اقفًا أمام المرآة، وخلفي رجلٌ أصلع ذو أنفٍ مُدبّبة ووجهٍ دائري يقف بجواري هامسًا:

- اتبعاني.

لتعمّ الظُلمة وتطغى على الأجواء، وقد نفر شريان جبهتي مانحًا إيَّاي القُدرة على كبح الصرخات والظهور بمشهد الصلب أمام فتاتي الرقيقة.

لاح نورٌ خافتٌ برز من كشَّافٍ صغير حمَلَهُ العجوز ليسير ونحن خلفه، تُريد علياء ضَمّ كفها بذاتي، ويرفض القلب المُمتلئ بالدين في تلك الآونة لنسير خلفه دون أن ينطق أحدنا ببنت شفة، وهنا رأيت العجوز يسير داخل دهليزٍ مُتّسِعٍ ليس كمثيله داخل شقتي؛ فهنا أستنشق الهواء كلَّه، ولا صوت لأنينٍ أو اهتزاز، دخل الرجل غرفةً أُخرى، وبصَرتُه يجلس على كُرسي، وما هي إلَّا لحظات حتى رجعَت الأنوار مرةً أُخرى، وهنا انكشف وجهه كاملًا إليَّ، ولم يختلف كثيرًا عن وصف المرآة، فلربما استزادَ في كعبرة صلعته وضيق عينيه وتلك الخطوط الماثلة على جبينه، والتي تنم عن عمره الذي قد تجاوز السبعين بالتأكيد.

- قلَّما اكتشف الزائرون أمر اللوحة، فهل أنت من المُبصرين بحق؟

نظرتُ إليه نظرةً بلهاء لا أعلم عمَّا يتحدث، وبجانبي علياء ترنو ببصرها تُريد الحقيقة، وقد فعل، وجَّه حديثه إليها قائلًا:

- ألا تعلمين كون رفيقكِ الماثل بجوارك الآن؟ رجلٌ له شأن عظيم؛ فهو يمتلك الأسرار والمعرفة الكونية الخالصة؛ فهو أحد المُبصرين.

انتابت علياء حالة من الصمت وداخلها بركان أعلَمُه جيدًا بلسان حال "انطِق يا وحيد، فما الذي يتحدث عنه ذلك العجوز؟!"

أنا مُبصِر ولكن كيف؟! وما هي المعرفة الكونية التي يُهذِي بها هذا الرجل؟! رأسي تُغتصَب من قِبَل صُداعٍ يجتاحها، وقلبي يأبى ضخ الدماء، الخيط الأسود يتشكّل مرةً أُخرى وعلى حافته يتغلَّظ مُعلنًا عن شخصيته، فهل هو صاحب القبّعة؟! أزحتُ أنظاري بعيدًا عنه واصطنعتُ نظرةً بلهاء رآها العجوز وعَلِمَ كوني غير مُدرك لما يتلفظ به؛ فابتسم ومسّد على صلعته:

- لا تعبث معي يا وحيد، انظُر إلى فتاتك المُرتجفة، فهل تخشى عليها من الحقيقة؟

وجّهتُ رأسي نحو علياء؛ فرأيت هالةً من الظُلمة، قد تظن بأنَّني خاطفها، ولربما قاتلها القادم؛ فأردفتُ قائلًا بصوتٍ يشوبه التردد:

- أقسم لك لا أعي كلماتك ولا أطيق صبر الانتظار، فلتُعلمنا الحقيقة.

تحرّكَ العجوز بكُرسيّه صوبي مُتجاوزًا الفراش الرثّ الذي يُجاوره.

- وحيد، لا تظن كونك حذقًا، أستطيع قتلَكُما والآن.

هنا جلستُ القرفصاء وقد ارتجَّ قلبي كقربة ماء يكاد يتدلّى بين أخامص القدم، لألمح الظل المُتشكّل، ولم يكن صاحب القُبعة، إنَّما.. إنَّما.. أُريد الصراخ والبوح بكوني ضعيفًا ذليلًا أمام تلك المُتغيرات، فكيف حضر هذا الشخص إلى هنا؟ ولا أطيق النظر نحوه وهو يرمقني بهيأته السوداء تلك، صرختُ منفعلًا:

- أقسم بأنَّني عاجزٌ عن فهم الأمر، ومثلي مثل علياء؛ جئنا هنا سويًا لجوابٍ تحصّلتُ عليه داخل شقتي القديمة دون علمٍ بما سينتج عنه، فقط مُغامرة ظنًّا بكَوْنِ صاحبها يمتلك ثروةً ما فيُعينني، لا هذه المخاطر!

جحظَت عينا العجوز، لا يُدرِك كونه على خطأ ووجب عليه البيان، فلا أقدر على الصمود بعد الآن أمام تلك الأحاجي، فمن أكون؟! وعلياء كيف ستراني؟! بالتأكيد إن كُتِبَ لنا الخروج من هنا ستهرب بعيدًا؛ فلا يصل إليها بشرٌ كان أم جان.

دار العجوز بكُرسيّه المُتحرك رواحًا وجيئة بين ثنايا غرفته، وما زلتُ قابعًا على الأرض طريحًا لا أُريد النظر إلى الخيط والتشكّل على آخره، واستمرار الأحاجي سيزيد من عنفوانه، ولربما أطاح بالجميع هنا، تكلم أيَّها العجوز الزنديق، اتلُو على مسامعنا جُلَّ الأمر قبل أن نهلك، وأثناء صمتي المزعوم بصرتُ جملةً مكتوبةً على الحائط بخطٍّ دقيق مُميز لم أرَ مثله قط، فحواه..

"من الغرفة إلى البوتقة"

ترنّحتُ قليلًا لأنهض مُتثاقلًا؛ فأرى الظل وهو ينقشع تاركًا كلماته تلك.

توقف كُرسيّ العجوز، ثم ضمَّ يديه على بعضها؛ فاستند بذَقنِه عليها ليقول:

- أنتم هنا داخل أحد معاقل العقيدة، مُنظّمة نشأت منذ قديم الدهر على يد الحكيم "كومر"، واللوحات كانت كفيلة بالشرح، مرَّ الزمن كما يمر كل شيء، وتكاثر أفراد المُنظمة كما البشر؛ فامتدَّ عنفوانهم من بلاد ما بين النهرين وحتَّى الشام ومصر، شبه الجزيرة، الغرب والروم، والأميركتين؛ فكان لأحد أفرادها السبق في مُعادلة الموازين قُبيل حرب التحرير وسيادة السُكَّان الأصليين بتلك البلاد، وعُرف العقيدة الثاني "لا نقتُل نفسًا واحدة ولا يحمل أفرادنا الأسلحة، العقل فقط المُباح لك".

هنا تحدّثَت علياء أخيرًا:

- هل أنتم شقٌّ من الماسونية الكُبرى؟ خطة البقرة الحمراء والهيكل، فكما لديهم المُسيطرون على الاقتصاد، السياسات والحروب، قد تكونون أنتم العقول الخاصة بهم.

يا لفصاحة علياء وحُسن إدراكها للأمر، فتاةٌ غيرُها لصرخَت الآن.

امتقَعَ وجه العجوز وهو يُخبرنا كونهم لا ينتمون إليهم من قريبٍ أو بعيد، الماسونية لا تعي وجودهم من الأصل، الهيكل لا شأن لهم به، الأرثوذكس والكاثوليك لا يُدركون حقيقتهم، والمسلمون غافلون عمَّا يفعلون، كلماتٌ عرفتُ من خلالها كون هؤلاء مَحْضَ سراب لا وجود لهم سوى داخل العقول؛ فلا يشغلهم منصبًا أو تحركًا سياسيًا مزعومًا بالحديد والنار.

هنا وقف العجوز وهو يُشير بسبابتِه إلى شاشةٍ تعرضُ وجهًا أسود لا ترى من ظُلمته ملامح بشر، وصوته الغليظ يتحدث:

"نحن العقيدة، أرواحنا ترهف عبر مُقلتيك التي تُبصِرنا على الورق والحبر، الأفلام والكارتون، نحن المتوازِنَات ومن نمحو الخَلَل والسطوع، نحن عقيدة الشعب؛ حيث نحل متى ارتحل وقبع، نحن الفتاة التي ستسْخَر من علو الأسعار وهي نفسها بعد شُهرتها ستغدو جشعَة تُحثّ الغافلات على الابتياع، نحن الشيوخ الذين يُصَبّرون القلوب، ويتحدثون مع العامة باللين واليُسر؛ فلا دين إلَّا وكان يسيرًا فقط، ونحن الفوضى والنظام؛ فيظن المُتحكمون بالأعلى بأنَّهم خلف ما يحدث اليوم، وهم حمقى يُديرون السياسات؛ فعلى الأرضِ رجالٌ يقولون على القاتل ضحية والضحية قاتلة، يشِيعون حب الدين وحشمة الأفواه، ومُقابلهم من يُبرر شريدًا سُبل الُعري أكان رياضةٌ أو نهجُ الأنسال، نحن لسنا ضد الإله، ونعي بوجود يوم الحساب وتلك الساعة، حيث تتوقّف العقارب عن البزوخ، وتسكن أصوات أنينها مُعلنة نهاية الحقبة الثانية للبشر؛ فلا عهد قديم يُعين ولا جديد يظل، "العقيدة" تحفظ المتوازنات، ولا تُريد لفئة أن تغلب الأُخ،رى فمن قال بأنَّ السياسة هي سيد الحُكَّام، فيا لها من أوهام؛ فمن امتلك الأرواح حفظ المتوازنات جُلَّها".

الخيطُ الأسود قد اندثَر حقًا، ومن تشكَّل على آخره يخبو الآن كما الشاشة التي انطفأت فور انتهاء صاحب تلك الكلمات، علياء بجانبي تتراجع خطوات إلى الوراء وقد تعرَّق جبينها، وبجوارها رجلٌ يُريد أن تزدان أرجاء الغرفة بنبرات ضحكاته وتردّداتها، فمنذ النشأ وأنا أؤمن بتلك الأشياء، فكيف نتغيّر نحن بتلك الشاكلة؟ ومن الذي يعبث بفحوى "الترِيند" كما يشيعون؟! وكثيرًا ما سمعتُ كلماتهم عن الماسونية وتوجهاتها، وكثيرًا أيضًا ما أدْركَ عقلي حقيقة الأمر؛ فتلك المُنظمة ومهما عظمت خيوطها شاغلها الأول هو النهاية والسطوة، إخراج هيكلهم وبزوغ

العهد، حيث كان رسولهم يقف وحيث كانوا خير قوم الأرض مُفضلين من الإله قبل أفاعيلهم، كانوا رمزًا لي في التحكم بالمؤسسات، وتساءَلتُ من يتحكّم بنا إذًا؟! مَن الطرف الذي يتحرك في الخفاء والمُتسبّب في تسارع الأمور؟! وها قد علمت.

رجع العجوز قعيدًا، ليتجه إلى الخلف وهو يقول:

- هل صارت الأرض كرويةً أم مُسطحةً يا وحيد؟

وقفتُ أمامه مُتجمدًا، أشعر بتكرار مشهدٍ لا أقوى عليه.

- في الأصل كروية، وفي الباطن قد يُكفّرون مَن يقول غير أنَّها مُسطحة.

- وهل صار الزمن قليل الأثر على السفر والترحال؟

- يبدو أنَّك لم تُغادر ذلك المكان منذ أبد الدهر، يجوب المرء ويرتحل المسافات الشاهقة في غضُون ساعات، ولربَّما صارت دقائق بعد سنوات.

صمتَ العجوز قليلًا وهزَّ رأسه مُوافقًا فكرة القبوع داخل هذا المبنى لسنواتٍ عجاف، ليردف قائلًا:

- وما شأن الأنهار؟

- في حالةٍ من تخبّط و اندثار والجميع يصرخ بالمعاناة.

نظر العجوز للأعلى حينها وقد فتح ذراعيه عن آخرهما.

- الجميع يسير نحو الوجهة، الجميع قد اتّفق على جملةٍ واحدة.. "الخلاص".

ساد الصمتُ لحظات انتَهكَ حُرمته صوتُ العجوز قائلًا:

- نحن لا نقدر على التلاعب بالزمن يا وحيد، إنَّما نضمن استمراريته؛ فنتلاعب بأفراده كما البيادق، وما ينقصنا هو ما تملكه أنت من عتاد؛ لذا وجب عليك الحديث.

اقتربَت علياء وهي تنظر نحوي تُريد الحقيقة ومقصد ذلك الرجل، وبداخلها تساؤلات مَن الذي يعبث بالآخر؟!

اشتعِلِي أيتها الومضات اللعينة، فليعمل عقلي بازغًا الصورة الكاملة، ماذا يندثر داخل عبق الماضي يطمحون إليه جميعهم؟ وهل أنا الرجل المسخ داخل رواية أحدِهم؟!

كان ذلك حديث النفس وقد تسلقت أمارات الإرهاق على وجهي، فما الحل؟ أيقصد مُحاولات جدي للانصياع نحو أوامره أم ماذا؟!

- سبق وأخبرتك الحقيقة؛ فلا تنتظر أكثر ممَّا قلت، فإن أدركتُ مفادك لأخبرتك، فما يضر رجلًا عاش دون هوية ولا يهمه أمر مُنظمّتكم تلك.

- أرى داخل عينيك اليأس والهوان، فعلى ما يبدو أنَّك تَعِس الحظ؛ فعادةً ما يكونُ المبصرون أكثر أهل الأرض علمًا بالنفس والحقائق.

- هل ستدعنا نذهب إذًا؟

تعالت ضحكات العجوز وهو يلف كُرسيه صوب الحائط قائلًا:

- ألم أُخبِرك عُرف العقيدة بأنَّنا لا نقتل ولا نحمل سلاحًا! لكم الحُرية في الذهاب، وستجدون الباب مفتوحًا على مصرعيه.

هدأت نبضات قلبي الذي أراد الهروب عاجلًا من هنا بعدما نجح العجوز في إثارة الخوف المزعوم بتهديده السابق، وقُبيل ضخ الدماء إلى القدمين فيحثهما على التحرك سمعت صوت علياء جامدًا يقول:

- وكيف تأمن بأنَّنا لن نُخبِر أحدًا بذلك المكان؟ ولربما الشرطة فتقبض عليك وينكشف أمركم!

ما الذي؟! ماذا فعلتِ يا حمقاء؟! كانت تلك الأصوات المُسيطرة على عقلي الذي رفض تقبّل جُرم علياء، أتُريد منه قتلنا؟! هل سيُخرِجِ مُسدسًا فيجعل من رصاصاته مسكنًا داخل أجسادنا أم سيأمر الرجال بالقتل؟

تحرَّك العجوز بكُرسيه وما زال ظهرُه جُلَّ ما نراه منه، ليقترب من مكتبٍ يزدان بحفنةٍ من الأوراق وهو يُفتِّش عن إحداها قائلًا:

- تعاقَبَ على هذا المكان عقودٌ من الأحداث وأجيالٌ من الأرواح، جلسوا محلِّي ورأوا العالم عبر نافذته الصغيرة، أهوالٌ عديدة عاصرَها أسلافي ولم يقدر أحد على زعزعة الكيان، ستتعجَّبِين إن أخبرتكِ بكوني لا أعلم قرنائي في العقيدة، بل تأتيني الأوامر عبر هاتفٍ أسود قديم قد يتعدَّى عُمري بسنوات، وسيطرتي تمتد إلى مئات البيادق داخل عشرات المِهَن، الغرفة السابقة التي جلستُم بها تحوِي أربعةً من القنابل الصغيرة، واللوحات تزدان بمادةٍ سريعة الاشتعال، ألم تسألي نفسك يا فتاة لمَ وجب على صديقك قرع الباب ستة ثم التكرار بعد ثلاثة أيَّام؟

رأيتُ الرجفة على جسد علياء الصغير، ولا أُنكِر أنَّها طالتني أيضًا؛ فكلام العجوز تشرئبُّ له الأعناق؛ فهم كالسرطان لا تقوى سوى على كبحه مؤقتًا قبل أن يعصف بالكاهل كاملًا، وهنا وجب الهرب وترك الأمر، سأُغادر هذا المكان المقيت، أشرتُ إلى علياء؛ ففهِمَت وسرنا سويًا نحو طريق باب الخروج، وبينما أُحرِّك أولى الخطوات استشعرتُ جمادًا يُلقَى نحوي؛ فالتفَتُّ مُسرعًا متفاديًا إيَّاه لأراه مخطوطةً صغيرة تلتفّ على بعضها بشريطٍ لاصق، لأُمسِكها، وصوت العجوز يتبعها قائلًا:

- الدرس الأخير في العقيدة يا فتى.. سأنتظرُك.

***

- كيف وصلت إلى هنا يا صغيري؟!

كانت تلك العبارة صكَّ أمان نحو طفلٍ صغير انخرَط في مظاهراتٍ لا تُلائم عمره، ولسوء حظِّه نشب "حريق القاهرة"؛ فكان ضحيّته مئات الأرواح، وهُدِّمت آلاف المبان والطُرقات حرقًا وإثمًا على يد جماعة السوء.

بأعين ناعسة وجسدٍ آخذ في الأفول يُبصِر الـ"غضنفر" القَومَ وهم يتدافعون بغية النجاة، وهو مُحمولٌ بين كفَّي صاحب الطربوش المُنمَّق يجري به بينهم مُحاولًا النجاة، لا زالت صرخات النساء تكبَحُ مسامعه، ولون بُرتقالية النيران يبعث على مُقلتيه السواد، وعقله يُفكر "هل سينجو حقًا؟!"، ليغيب عن الوعي لافظًا بآخر آيات الأمل.

- استيقظ يا فتى.

صحا الـ"غضنفر" على تلك الجُملة مُتثاقلًا، ليُبصر ولدًا في مثل عمره يهزّ كتفه بعنف؛ فيفزع مُتراجعًا إلى الوراء وهو يقول:

- أين أنا؟!

يرى في وجه من يُحدثه الجهل والقلق؛ فيرنو ببصره مُستكشفًا المكان؛ فيُصعَق لرؤية جمعٍ من الأطفال الصغار قد يسبقونه بعامين أو يسبقهم، قابعين داخل غرفة متوسطة الحجم لا أثاث بها ولا حياة، فقط قربة ماء وأرواح تزمّ فكَّيْها عن البوح والبُكاء، يتضوّرون جوعًا ولا يأبه أحدٌ بهم، بالطبع حلُّ الأطفال دائمًا هو الصرخات وتلك القطرات الملحية الساقطة على الوجنتين، ولكن حال الـ"غضنفر مُختلف؛ فهو رجلٌ ثوريّ تربَّى على أيدِي أحد المُناضلين العظام والده ومأمنه "إسماعيل".

استجمَعَ قواه وهو يُطمئِن البقية، وأخذ أولًا يحصر عددهم بقلبٍ ثابت وعقل طفل ما زال في التاسعة من عمره! كانوا خمسة أطفال لا تشابه بينهم؛ فلا نقول كونهم أصحاب بشرةٍ مُميزة أو لكنةٍ لا يبلغها غيرهم، وهو أمرٌ تعجَّب له؛ فلم يهتم واتَّجه صوب الباب المُغلق حاثًّا

الصغار على تتبعه بروحِ قائدٍ مقدام؛ فهل بُعِثَت روح "أحمد عرابي" من جديد؟

صار يطرق الباب ويهزّ الأرض رواحًا وجيئة، ومن خلفه البقية يحوذون حذوه حتَّى بلغت الحناجر مسعاها، وحدث ما توقعه طفل التاسعة، سمعوا جميعهم صوت أقدامٍ تقترب؛ فتراجعوا إلى الخلف وعقل الـ"غضنفر" يُخبره بنجاح خطته؛ فمُحالٌ أن يترك الخاطفون أنفسهم عُرضةً لحناجر أطفالٍ صغار وسيهرعون إليهم على الفور.

انفتح الباب على مصرعيه؛ فانكشف أمام الصغار وجهٌ أوروبيٌّ قد التهمَت التجاعيد بعض تقاسيمه، اقترب منهم فوضحَت الرؤية أكثر فأكثر، وجهُه كان جميلًا بحق لا يبْعَث في النفس الرهبة أو الحذر؛ فظنَّ الطفل الصغير كونه ليس بخاطفٍ، إنَّما رجلٌ أنقذَهم من غبشة الموت، اقترب الرجل منهم وبصوته الدافئ الحسن مع ابتسامةٍ مُصطنعة للتهدئة قال:

- مَن صاحب فكرة الطرق؟!

أدار الأطفال جميعهم رؤوسهم نحو الـ"غضنفر" بلسان حال "هو المُذنب يا سيدي"، ولم يجد الطفلُ بديلًا عن شجاعته المعهود بها؛ فهبَّ مُتقدمًا نحوه يقول:

- نعم، أنا من فعلت.

اقترب الرجل منه، ثمَّ أمسد على كتفه وقال:

- حسنًا ما صنعت، ما اسمك يا فتى؟

بصوتٍ ثابت ورباطة جأش:

- الغضنفر.

ابتسم الرجل مرةً أُخرى وهو يرى في الفتى شجاعةً و إقدامًا، ليتركه سائلًا بقية الصغار عن كُنيتهم، وقد تناوبوا بين "محمد، عبد الجليل، لطفي"، وغيرهم، وبعد مُجادلات أتى السؤال المشهود من أحدهم:

- أين نحن ولماذا نقبع هنا؟!

كرَّر الرجل ابتسامته التي لا تُفارقه على ما يبدو، ليردف قائلًا:

- جميعكم تمَّ إنقاذكم من موتٍ محتوم على أيدِي نيران الثورة الضارمة بالخارج؛ فالقاهرة يا أحبَّائي اشتعلَت عن بكرة أبيها، ولولا حماية الله لكم لكنتم جُثثًا مُفحَّمة بين الطُرقات يقولون عنكم شُهداء الحرب والاستعمار، والآن ستجلسون هنا حفنة من الوقت ريثما نعثرعلى ذويكم فنُعيدكم إليهم سالمين.

رأى الغضنفر، وهو أقل الأطفال طولًا وربَّما عمرًا، الرهبة في أعين من يُجاورونه، وتعجَّب من قوة كلمات الرجل؛ فهل يُخاطب أطفالًا بحق أم جيشًا من المماليك فرَّقبل قِدَم الحملة الفرنسية إلى مصر؟!

ابتعد الرجل صاحب الطربوش عنهم قليلًا تاركًا إيَّاهم في حالة من الصمت وهمسات مفادها...

"القاهرة تشتعل! أنا خائف، ماذا سيحدث لنا؟ والحمد لله".

أخذ صغيرهم يُقلِّب بصره عبر أنحاء الغرفة مرةً أُخرى مُحاولًا العثور على إجابات، ولا تندهش؛ فبرغم صِغَر سنِّه إلَّا أن والده "إسماعيل" أنشأه منذ لحظاته الأولى على الثورة والجد، ونقش على عقله أمثلة البطولات وماضيه المُزدان بالكفاح، ومن شابه أباه ما ظلم، العجيب هو مُلاحظته بابًا آخر على الناحية الأُخرى من الغرفة، وبينما يُعمِل عقله مُفكرًا سمع صوت اصطكاك أطباق تقترب، حتَّى ظهر الرجل مُجددًا أمامه وهو يُمسِك بحفنةٍ منهم ورائحة عذبة تفوح في الأفق.

- هيَّا يا صغاري فلتأكلوا الطعام.

سقط لقب الغضنفر أمام تلك الرائحة العذبة، ومعدته التي تحثه على الاندفاع لإمدادها بما يُعين قوته بعد العناء، وقد فعل، فكما يقولون "الطعام بعد الشقاء هو الألذ على الإطلاق".

انتهى الجمع وفرغت الصحون تاركة حفنة من البطون المُمتلئة والعقول الفارغة جرَّاء سحب الدماء إلى الأسفل، وكان هذا الوقت هو الأنسب للكلمات القادمة..

- والآن أيَّها الصغار وحتَّى ميعاد عودتكم سنلعب لعبة صغيرة سويًا، سيتم تقسيمكم إلى مجموعتين، تتكون الواحدة من ثلاثة أفراد تقبع منفردة داخل غرفة خاصة بها، إحداها ستكون تلك، والأُخرى ستكون بجوارها عبر هذا المنفذ.

أشار الرجل بسبابته إلى الباب الذي لاحظه الغضنفر منذ قليل، وأردف قائلًا:

- سأجلب الفراش هنا وهناك، ولتودعوا بعضكم بعضًا، فلن تسمع مجموعة عن الأُخرى شيئًا لتكون اللعبة مُحتدمة، والفائز سأهبُ له ألعابًا قادمة من دولة بريطانيا الأم.

تحمَّس الصغار وأرادوا البدء في الحال، وكان تفكير قائدهم مُتجهًا إلى فكرةٍ واحدة "هل كان الطعام الشهي مفتاحًا ثمينًا من أجل تنفيذ خطة مشؤومة؟!".

"لطفي، الغضنفر، ونجيب"، كانوا الأفراد التي شكلَّت المجموعة الثانية والتي ستذهب إلى الغرفة المُجاورة، بينما قبع البقية محلَّهم، وتوجَّب على الثلاثة الارتحال وبجوارهم الرجل وهو يفتح الباب بمفتاحٍ خاص، ومنه عبروا إلى ملاذهم الجديد، ولم تختلف كثيرًا عن الغرفة

الأُخرى سوى بوجود ثلاثة أفرشة مُرتبة بشكلٍ متوازٍ أدخل الريبة في قلب الصغير بلسان حال... "أعداد الأسِرَّة ثلاث مثل عددنا، فهل تم إعداد الأمر من قبل مجيئنا؟!".

تُرِكَ الأطفال في المجموعتين يومًا كاملًا بلا طعام سوى بقية ما أكلوه سابقًا، وهو ما أولج الفزع والتبرم داخل القلوب، ليظهر الرجل أخيرًا إلى المجموعتين دون أن تدرِي إحداها عن الأُخرى شيئًا، ويراه الغضنفر مُجددًا بهيئة غير التي ظهر بها سابقًا، يحمل لثلاثتهم الطعام ولكن بمقدارٍ ضئيل لا يُشبِع جوفهم، وبعد الانتهاء من وضع الصحون أمامهم يُخرِج ورقة مطوية ليقول:

- هذه مُعادلة رياضية، إن أصبتم في حلِّها فلكم المزيد من الطعام والألعاب، أمامكم ثلاثة ساعات لتتبيّنوا الناتج الرقمي.

أعطى الورقة إلى كبيرهم وكان "نجيب" معتنق المسيحية وأهدأهم طباعًا، تاركهم متلهفين إلى الطعام ينقضُّون عليه كما الجراد متى رأت الزرع، فلم يُخلِّفوا ورائهم شيئًا، وبالطبع أرادوا المزيد؛ فكان لا بد من توجيه الأبصار نحو الورقة المطوية لعلَّهم ينجحون...

$9 = ?\times 999 + 6 - 30 – 666 + 33 + 36$

كانت تلك المُعادلة ما رأوه وقد اعتصرت عقولهم حتَّى سال الزبد من بين الشدقين ولا جدوى، فكيف لهم الإتيان بحل هذه المُعادلة وتلك الأرقام الكبيرة نسبيًا على القيام بها فُرادَى، ولم يكن الغضنفر أوفر حظًّا، بل ثار وغضب ولم يسترعِ انتباهه سوى هدوء نجيب وقلة حيلته لينفد الوقت؛ فيأتي الرجل بعد انقضاء الساعات فيرى الورقة كما هي لا إجابة داخلها، انتزعها من بين أيديهم كما طربوشه ليكشف عن شعره المجدول، ظنَّ الثلاثة بأنَّه سيرأف بحالهم، ولكن ما حدث قلب الأمور رأسًا على عقب.

عقد الرجل جبينه قائلًا:

- نجحت المجموعة الاولى في الوصول إلى الحل، أنتم الثلاثة أغبياء؛ إذًا لا شأن لكم ولا قيمة، الغبي ينبغي عليه الخضوع وعدم المُطالبة بأي شيء.

ترك تلك الكلمات الغائرة في النفس ورحل عنهم، ولم يدرِ أحدهم حينها بأنَّها البداية لكل ما هو أليم!

داخل الغُرفة لا تعلم الوقت أو طبيعة الحياة بالخارج؛ أهو نهارٌ يسعى الناس فيه أم ليلٌ تستأنس الأرواح إلى سكناته، ولم يجد الأطفال ومع تضورهم جوعًا سوى بديل الحديث مع بعضهم البعض حول كينونتهم ومن أي أرضٍ جاءوا؛ فكان نجيب هو الأكبر من الصعيد، حيث امتهن والده وظيفة حكومية لساعات يعقبها العمل في الغيط والكفاح أسفل أشعة الشمس الحارقة، اهتمَّ والده بتعليمه؛ فأراده أن يُمثِّل البلاد بالخارج، نعم كان أمل فلَّاح داخل دولة الملوك، أمَّا لطفي فكان الأوسط بأعوام تعدَّت العاشرة، وكان بُنيان جسده قويًا بحق، تُوفِّي والده جرَّاء الشغب مع الإنجليز، وأرادت والدته أن يغدُو مُحاربًا يقتصّ من الجميع، والجميع هنا عادت على المصري والمستعمر؛ ففي أعين المرأة الفاقدة لزوجها الجميع فاسدون!

وكان ل "غضنفر" نصيبٌ من الحديث حول بطولات والده وثورته، و أنَّه وبالتأكيد سيصل إليه عمَّا قريب يُخلصه من الشَّرَك الذي أوقعهم داخله هذا الرجل.

مرَّت الساعات وجاء يومٌ آخر، فلم يعلم الأطفال ذلك سوى بقدوم الرجل إليهم؛ فلم تحوي الغرفة نافذة أو معبرًا للضوء سوى مجموعة من الحطب التي تشتعل بالنيران ويُجددها الرجل كُلَّما أتى بالطعام، ومع

قدومه يتكرر الأمر، معونةٌ قليلة وورقة مطوية أُخرى تحوي لغزًا جديدًا، وكانت الثانية تقول:

"مكث الاحتلال سبعين من الأعوام، لم يرَ أفرادهم سوى الطاعة ولم، تُزهَق روحًا واحدة من ذويهم؛ فمن كان سببًا في هوان الشعب وكسرة الأهل؟".

لغزٌ جديد وفخَّار يحوي قليلًا من الطعام، مَن كان السبب في الانكسار؟! هل ستُعين الروح الثورية الغضنفر على الإتيان بالحل؟!

مضت ثلاث ساعات أُخرى وجاء الرجل، فكانت الورقة خاوية كما السابق؛ فقال:

- أغبياء، لم يقدر أحدكم على الإجابة ولو كتابة اسمٍ ممَّن حكموا البلاد! المجموعة الثانية توصّلَت إلى الحل أيضًا.

تركهم الرجل في حالة من الوهن والضيق، وبدأ شبح الفطنة يتملص من عقل الغضنفر رويدًا رويدًا وهو لا يدري كيف استطاع البقيّة التوصل إلى الحل؟ فهل أوقعه حظَّه العاثر مع حفنةٍ من الأغبياء؟!

أحاديثٌ أُخرى نشأت بين الثُلاثيّ عن الحياة السياسية بالبلاد، وكيف وصل بهم الحال إلى المُظاهرات؛ فكان نجيب ذا حظٍ تعِس لكونه لم يقصد الوجود من الأصل بين المحتشدين، إنَّما مارًّا فقط يقضي أحد الأمور، ثم سيعود إلى منزلِه، أمَّا لطفي فبالطبع لماضِيه وتحفّزه ضد الإنجليز وجد تلك الفُرصة مواتية لإدخال شرف الجهاد في روح والدته، وكان الغضنفر هنا بسبب شجاعته ظاهر الأمر، وباطنه وطأة أخواته عليه.

صوتُ اصطكاك الأطباق يُذعِن بمجيء صاحب الوجه الحَسن يُنبئهم بقدوم يومٍ جديد، وكان الثالث لهم بين أحضان تلك الغرفة المقيتة التي

لم يُغادروها قط؛ فحتَّى دورة المياه كانت في ركنٍ صغير مندثر بستارةٍ تُخفي عورتهم، ولم يختلف الأمر إلَّا في كون الورقة المطوية صارت أكبر حجمًا، والطعام تكاد العينُ تراه!

- إن حللتُم تلك الأُحجية فسأنْسَى إخفاق السابقات، وستغدون في نعيم.

تركهم الرجل وذهب.

قليلٌ من الطعام يُعين الصغار على إكمال دورتهم في الحياة، ثمَّ تحفز لمعرفة اللغز الجديد وكان..

رسمٌ هندسي يعود إلى دائرة مكتملة يتخلّلُها خيوطٌ تغتَصِبُ حدودها، وعلى أطرافها أرقام تتابع بشاكلةٍ غير مسبوقة ينقصها ثلاثة من الأرقام، ومكانها تتواجد علامات استفهام، يُريد وبالتأكيد صاحبها أن يعلم الأرقام، الثلاثة فماذا تكون يا تُرى؟

هنا نفد صبر لطفي، وأخذ يصيح:

- ما هذا الهُراء؟ كيف لنا أن نعلم بشأن تلك الأمور؟! أُريد المنزل، لا أطيق المكوث هنا يومًا آخر.

ترك المجلس وهمَّ قافزًا مُتجهًا إلى باب الغرفة يطرقُها بكل ما أوتي من قوى، ويصرخ "النجدة" حتَّى خارت قواه ووهن عزمه؛ فاقترب نجيب منه مترنحًا بجسدٍ ضعيف ليمسّد على كتفه قائلًا:

- يبدو بأنَّ خلاصنا هو إيجاد الحل؛ فلا جدوى ممَّا تفعل.

شاهد الغضنفر مشهد الصديقين، ليرنو ببصره نحو الورقة مُجددًا وهو يُفكر "لا ضرر في حديث لطفي؛ فهو يقول الواقع ويسرد الأمر بشاكلة الحُر الذي يأبى السجن، وأمَّا نجيب فهو يرى الأمر بالعقل والسِّلم، ليس

له من الكفاح سبيل، فمن أكون أنا بينهما؟! وكيف أعلم طريقة معرفة الأرقام الناقصة؟"، لتلمع في عقله فكرةٌ ما؛ فيقول:

- رُبَّما يتحتم علينا كتابة الأرقام وإن لم نُصب فهل تتذكرون كيف غضب الرجل عندما تركنا السؤال السابق فارغًا.

لم يرَ الصغير في أعين رفيقيه الحماسة لما قال؛ فبدأ هو بكتابة الأرقام الثلاثة عشوائيًا ومضى الوقت.

فتح الرجل الباب ليجدهم جالسين كالسيدات حاسرات الرأس لاطمات الوجوه، فاقترب ينتزع الورقة ليرى ملء الأرقام، وبعد ترقبها قال:

- من الذي كتب ذلك التسلسل؟

كمثل سابقته تحوّلوا بوجوههم نحو الغضنفر؛ فعقد الرجل جبينه ليُردِف قائلًا:

- أنتم الاثنان أغبياء، أمَّا أنت يا صغير فأكثرهم غباءً وصِغَر عقل، فكيف تُحاول و أنت لا تعلم؟ المجموعة الأُخرى أيضًا أتت بالحل وهي تمكث في نعيم.

تركهم الرجل في حالةٍ من الصاعقة والجمود، لا يقدر أحدهم على مُخاطبة الآخر؛ ففي داخلهم لوم للغير ولأنفسهم، ومنذ ذلك اليوم كانت البداية الحقيقية لمرحلة ستمكث معهم أبد الدهر.

ستّة أيام أُخر كانت الأحَاجّ تتراصّ والطعام يقِلّ، جميعهم اتفقوا على الجهل، وجميعهم في صوتٍ واحد "لا نعلم"؛ فكانت النتيجة المزيد والمزيد من كُنية الأغبياء، بل وتفاقَمَت حتَّى طالت النفس وإسقاط العجز على عقولهم التي نضِبَت يومًا بعد يوم، وها هي تسعة أيامٍ قد مرَّت وحدَث أول اختلاف...

دخل الرجل في ذلك اليوم ومعه صحنَان فقط من الطعام دون غيرهما، ولم تزد المؤونة داخل الصحن الواحد، بل كانت نفسها، ولم يكن هنالك أوراق مطويّة أُخرى، بل وضع الطعام وغادر دون حديث.

نظر الأطفال الثلاثة إلى بعضهم بأعين بائسة، وعَلِمَ الغضنفر بأنَّ القادم لن يكون خيرًا؛ ففرَّ لطفي نحو صحن الطعام يلتهمُه سريعًا دون اعتبار لمن رافقوه، ومنع هدوء نجيب الجذب معه، بينما ظلَّ الأخير صامتًا يُراقب الحدث، حتَّى تشارك نجيب والغضنفر الطبق الآخر؛ فانتصفت معدتهم وهي بالأصل خاوية.

تكرَّر الأمر ثلاثة أيَّامٍ أُخر، والرجل يُغادر دون أن يتحدث ببنت شفة، وفي اليوم الثالث حدث ما لم يُحمَد عقباه؛ انفجر الطفل الهادئ الرزين بعد صمتٍ دام لاثنَي عشر يومًا، فرَّ لطفي نحو صَحن الطعام؛ فاندفع نحوه نجيب يُعنّفه بكونهم معه ويجب القسمة على ثلاث؛ فلم يقبل لُطفي الأمر، ورأى أنَّ حقه الصحن كاملًا، والعدل صار جورًا الآن؛ ليغضب الحليم ويلكمه على وجهه بأقصى ما أوتي من قوة وسط جحوظ عيني لطفي وترقّب الغضنفر، احتدم القتال فوهنَت الأجساد، وصارت الأنفاس تتضارب، ودون قصد انسكب الطعام على الأرض؛ فصار ملوثًا، وكانت تلك مصيبةٌ أُخرى ألمّت بالصغار الثلاثة، تحوّل الأمر من نزاعٍ مع غريب ينتَهِكُ حقوقهم إلى شجارٍ بينهم عن العدل!

يومٌ جديد جاء فيه الرجل؛ فرأى المشهد وآثار العنف بيّنة على الوجوه، فكان قوله مختلفًا في ذلك اليوم وإذعان لتسعة أيَّامٍ أُخرى من الشقاء.

- أنتم مرضى نفسيّون، مجانين صغار.

أصابت الكلمات العقول، وتوغلت في النفوس الواهنة حتى أخامص القدمين، وها هي الرجفة تعتلي أبدنتهم، وفي اليوم الجديد عادت

الصحون إلى ثلاثة مُجددًا مع زيادةٍ في المقدار أيضًا، ولكن لم يرعَ ذلك اهتمام الثلاثة؛ فقد كانوا كما الأصنام يجلسون دون حراك.

- هذا طعامكم الجديد وقد استزدت فيه لكم؛ فأنتم مرضى نفسيّون، مجانين صغار.

تعاقبَت الأيَّام على تلك الحال، والغضنفر يحفظ ما بقي من عقله ويتقوى بالطعام الذي يأتي إليه، وهو يلحظ التغيرات على صديقيه؛ فأحدهما صار واجمًا لا يرمش ولا يتحدث أبدًا، والآخر يركض بين طيَّات الغرفة فيضرب رأسه بالحائط ويحفر في ذراعه خطوطًا بالملعقة الحديديّة، وكان اليوم الحاضر هو النهاية بقدوم الرجل بوجهٍ مُبتسم يقول:

- هذا طعامكم الأخير؛ فقد توصَّلنا أخيرًا إلى ذويكم، وسترحلون عن هنا غدًا، فلتأكلوا جيدًا أيَّها المرضي النفسيّون، مجانين صغار.

لم ترتسم الضحكات على أوجه الثلاثة، بل اقتربوا من الطعام يأكلون فقط وهم يُرددون "مرضى نفسيّون، مجانين صغار" كما الآلات، ظلَّت أعين الغضنفر ترنو في كل البقاع بغية تحليل الأمور، واستحداث شرارات الماضي السحيق داخل عقله، يحفظ بين تجاعيده ولو القليل من الفطنة؛ لينام تلك الليلة وقد حسَمَ أمره بعد واحدٍ وعشرين يومًا قضاهم داخل تلك الغُرفة.

صباح يومٌ جديد خرج فيه الثلاثة من الغرفة الضيقة أخيرًا بعد مُعاناة من الجوع والصمت؛ فوجدوا منزلًا كبيرًا بردهةٍ مزدانة بالأثاث الفخم؛ فكانت أعينهم مُقفلة تأبى ولوج الضوء إليها، وأبدانهم بدت ناضبة لم تُروى بماء الوَدْق، وكان بجوارهم أطفال الغرفة المُجاورة وقد رأوا في أعينهم بريقًا ونضارة وجه، وهو أمر تعجَّب منه الغضنفر؛ فانتهز فرصة الهرج وانشغال الرجل الغريب بتوجيههم إلى المكان الذي

سيجدون فيه عائلاتهم بعد إخبارهم عنهم، ففتح باب الغرفة المُجاورة ليرى مشهدًا ظلّ ساكنًا له لحظات، الغرفة في غاية الجمال والتنظيم، بها أثاث وألعاب شتَّى وطعامٌ شهي يرى بقيته على الصحون؛ فعجز عقله عن استيعاب الأمر، وراح يُغلِق الباب ويتجه صوب أحد سُكَّان تلك الغرفة ليسأله:

- عمَّ كانت الأسئلة داخل الورقة المطوية في الأيَّام التسع الأولى؟

ردَّ أحدهم:

- حسب ما أتذكّر كان سؤال اليوم الأول 1+1 كم يُساوي؟ وبالطبع أجبناه؛ فكان الرجل يُثني علينا بالذكاء والفطنة كل يوم.

ليرد آخر:

- أتذكر سؤال اليوم الثالث؛ فأنا من حللته سريعًا، كانت دائرة عليها أرقام من الواحد إلى العشرة وطُلِبَ منَّا فقط ملء الفراغات.

تراجع الغضنفر إلى الوراء وقد شتَّ عقله أكثر ممَّا هو عليه، لا يعلم لمَ فعل بهم ذلك الرجل الغامض تلك الأفاعيل؟! ليراه يعود مُجددًا بعدما غادرهم ومعه من يصطحبهم نحو وجهتهم؛ فغادر الجميع، ورأى أطفال الغرفة المُجاورة وهم يُحيّون بعضهم بالوداع والتهليل، على عكس رفيقيه الصامتين والذي بدا السواد على وجهيهما جليًّا، والصمت حال ألسنتهم كما الجُذام؛ فهل ذهبت عقولهم؟! وكان الغضنفر هو الأخير بينهم، ليُحدثه الرجل قائلًا:

- هيَّا يا فتى، فقد حان ميعاد خروجك.

- لا.

تعجَّب الرجل مستفسرًا عن الأمر، ليرد الطفل قائلًا:

- لماذا فعلتَ ذلك بنا؟!

ازدرد الرجل ريقه ليرد قائلًا:

- ميعاد رحيلك قد حان، فلتذهب.

سار الطفل بضعة خطوات ليقف أمامه مباشرة ناظرًا إلى عينيه بثبات:

- ما هو اسمك؟ أم ستخشى إخبار طفلٍ صغيرٍ؟

اندهش الرجل وردَّ قائلًا:

- وما يدفعني لإخبارك؟

لم يُصدق الفتى لسانه وهو ينطق بكونه سيصير تلميذًا نجيبًا للمدة التي يُحددها الغريب، وعلى غرار الجميع كان تأثره النفسي دافعًا جليًا للّحاق بركب ذلك الغريب مهما كلَّفه الأمر.

ضَحِكَ الرجل وقد استثاره الصغير، ليقول بعد تفكير:

- حسنًا لقد قبلتُ عرضك، اسمي هو "حمد".

***

"The Queen vs Dudley And Stephens"

منتصفُ عام 1884م، أبحَرَ أربعة من البحَّارة الإنجليز داخل سفينة شامخة تُدعى "ميجنونيت" قاصدين قارة استراليا حينها من المملكة الأم، وأثناء طريقهم الوعرة عبر الأمواج الزرقاء ضربَتْهم عاصفة جامحة أطاحت بأشرعة السفينة؛ فتركتها بحالٍ يُرثَى لها لتغرق تاركة البحَّارة الأربعة على متن قاربٍ مُتهتّك، وكانوا يُدعَون "بروك، ستيفنز، دودلي، وريتشارد باركر"، وهذا الأخير صبيّ قليل الخبرة ذو سبعة عشر عامًا، ولم يكن معهم سوى بضع قتات من الطعام والشراب رُبَّما انتهوا في أول

يومين، وكان قاربهم يبعد عن اليابسة مسافة أميالٍ لا تُعَدّ؛ فبدأ البحَّارة في مُحاولة الاصطياد بحثًا عن النجاة، وحرص الجسد على روحه لدرجة شُرب بولهم بغية العيش ولو دقيقة أُخرى، ولكن حدث أمرٌ جلل أطاح بالعقول، البحَّار الصغير "باركر" ولقلّة خبرته شرب من ماء البحر؛ فأصابه الدوار الذي تطور إلى غيبوبةٍ مُصاحبة إلى مرضٍ يظن صاحبه للوهلة الأولى بكونه فتَّاكًا، وعلى رغم تيقن البقية من عدم موته أخذ "ستيفنز ودودلي" قرارًا يندى له الجبين، وقد فَهِمَ بروك الأمر؛ فأزاح وجهه عنهم، ليقوم الرجلان بقتل "باركر" والأكل من لحمه وشُرب دمائه طيلة أيام، إلى أن حدثت المُعجزة ووصلوا جميعًا إلى اليابسة بعدما تمَّ إنقاذهم، وهنا عَلِمَ البريطانيون بالأمر ونُصِبَت المُحاكمة؛ فتحوّل "بروك" إلى شاهد، وأُصدِر الأمر بالإعدام على الرجلين؛ فتدخّلَت الملكة حينها بتخفيف الحُكم إلى السجن فقط، وكانت تلك أشهر القضايا في ذلك العصر، ويبقى السؤال: "هل تُبيح الضرورات محظوراتنا؟!"

إليك المُترادفات الثلاث من التسعة المُخلدين وهم: "التاريخ، الطاعة، المتوازنات".

ارتجف جسدي بأكمله جرَّاء قراءة ذلك الخطاب الذي قذفه العجوز نحوي قُبيل خروجنا، وتبقَّى السؤال خالدًا "هل تُبيح الضرورات محظوراتنا؟!"، لا أعلم لماذا، لكنه أصابني في مقتل وجعل من أمري التشتّت والخيفة من إصدار الأحكام، أكانت الملكة على حق أم أنَّهم ارتكبوا جريمةً شنعاء يُحاسِب الدين عليها قبل الدنيا؟! فالرجل لم يمُت بعد وأزهقوا روحه، فلرُبَّما نجا معهم، و أيضًا لربَّما هلكوا جميعًا، ثمَّ ما شأن تلك المُترادفات التسعة التي كانت عنوانًا في الخطاب الذي وجدته بمنزلي؟ وها أنا أعلم ثلاثة منهم؛ فالتاريخ مُزوَّر يخدم البعض ويمحق آخرين، الطاعة نتائج مُترتبة على مَن امتلك التاريخ والحقائق، وأخيرًا المتوازنات التي نتجَت عن كل هذا الشأن، وهو مبدأ العقيدة منذ الأزل،

صرتُ أتعرّق بشدة، وما أخرجني من الأمر هو صوت الموسيقى الصاخب، ورؤيتي علياء وهي تتراقص مع صديقاتها على مسرح بالأعلى، أعلم أنَّك مُندهشٌ الآن، ولكن دعني أذكر لك التبرير...

بعد مُغادرتنا العجوز وشقّتَه كنتُ متيقنًا بأنَّ علياء ستَفِرّ هاربة لا محالة؛ فتختفي أبد الأبدين؛ ففي نظرها سأغدو وحشًا ماسونيًا، أو المسيح إن تعقَّد عقلها، ولكن ما حدث كان مُغايرًا؛ فعلياء وبطبيعتها التي تُحدِث الفعل المُغاير لتوقّعِي، سمعت صوتها حينها يُخبرني بكونها ستمكثُ معي طيلة الليل، ولوطأة ما حدث على أنفسنا أجبرَتْني على الذهاب معها إلى زفاف صديقتها في أحد الأماكن الراقية بالقاهرة، لتُريني صورتها على هاتفها حاثة إيَّاي على المجيء، وهي بذلك قادرة على إرجاعي إلى الدُنيا مرةً أُخرى، وبرغم استحالة الأمر ها أنا ذا قابعٌ على كُرسيّ أبيض اللون أمامي منضدة بها من الطعام الكثير، أُبصِر علياء وهي تتراقص بجوار صديقاتها في غنَجٍ وعنفوان، يا لها من فاتنة بحق! فكيف تستطيع أن تفْصِل بين أمرين؟! أن تجلس جوار عجوزٍ خَرِف يتحكم بالجميع، ثمَّ تتراقص الآن أمام الجميع! كيف للعقل والجسد أن يجْتَمِعا في روحٍ واحدة؟ فمن تكون تلك الـ"علياء"؟ وكيف كان القدر رحيمًا بأمري للحصول عليها؟!

ما أجمل البشر حين يتناسُون همومهم فيرقصون ضاحكين على إحدى تلك الأغاني الشعبية، وها هي العروس تتوسّطهم بشَعرِها الأسود الطويل وبياض جسدها المرئي لنا، ولكن لحظة! ألم تكن تلك من رأيتُ صورتها وهي مُحجبة بجانب علياء، أيُعقَل أن تكون تلك عادة نتَجَت عن متوازنات العقيدة؟ وقد يكون الفرح هو مكانٌ مُمثّلًا الحُرية بعنوان مفاده.. "الساعات التي ينام بها الرب!".

ازدردتُ ريقِي متوجسًا مرتعدًا، ماذا إن هلكنا جميعنا الآن فبُعثنا على ما نرقد عليه، تبًّا لكَ أيَّها العقل! أرجوك توقَّف عن الخفق والعمل، سأنظر فقط متناسيًا كل شيء.

- ما رأيُكَ في الطعام يا وحيد؟

- شهيّ ومُعبرعن رُقِيّ المكان، علياء، كُنتِ مُتألقة اليوم.

تعالت ضحكاتها؛ فأذابت القلب لوعةً وشوقًا.

- إذًا أعجبك رقصي، فهل أعجبك أيضًا رقْصَهنّ؟

أيُعقَل أن تكون تلك الغيرة التي يتحدّثون عنها؟ فها أنا أرى على وجهها العُبُوس، ووجب الرد سريعًا..

- لا لم تلتقط مُقلتاي سوى الأميرة الفاتنة، وما دونها هباءً منثورًا.

- وتُلقِي الشعر أيضًا، يا لك من غريب الأطوار! غريب نعم بنكهةٍ مُميّزة لم أرَها رجلًا من قبل، وحتَّى هشام.

تجمدتُ حين لفظَت باسم هذا الشاب، وسألتها:

- من يكون؟!

ارتشفَت بعض العصير، ثمَّ تناولَت قطعة من الدجاج لتقول:

- سأحكي لك جُلَّ أمره بينما تبدأ رقصة العروسين.

انتهى العُرس ومعه انقضَّت قصة علياء وهشام؛ فحكت لي ما حدث بينهما إلى أن تركته متفتّت الكبد كمدًا بعدما أذاقها من المرار الويلات، ولم أتعجّب؛ فهذه علياء من يقسو عليها سيلقَى الجحيم لا مفر، وإن كنت أشك بصحة النتيجة التي ذاقها ذلك الشاب، وسأصل إليه لا محالة، ركبتُ سيَّارتها وبدأَت هي في القيادة مارَّة بالكورنيش مُتّخذة الطريق إلى المنزل، و انتبهتُ لكونها تُبطئ من سُرعتها أمام النيل العظيم، لا أدري أهي ملامح رومانسية تستزيد منها أم حكمة تجذبها من أعماق النهر؟ لنصل إلى البيت أخيرًا بعد يومٍ شاق.

- ها نحن على مشارف المنزل، سأترجل هنا وشاكرٌلكِ ما فعَلْت.

- أرى أنَّك استبْكرْتَ الأمر قليلًا.

تعجبتُ، ورددت مُتسائلًا:

- ماذا تقصدين؟!

- سأصحبُكَ إلى منزلك يا وحيد؛ فأنا أُريد المكوث معك قدر المُستطاع.

خفق قلبي سريعًا؛ فصككته عن البوح بما يُريد، لأصمت عاجزًا عن الحديث، اكتفيتُ فقط بابتسامة عفويّة ومشاعر جوفاء تُروَى بغسَقِ صوتها، نعم ما يحدث حرام شرعًا لا جدال فيه، فكيف أكبح جماحه؟!

مررنا بالشارع الضيق ولم أخشَ مكوث العجوز؛ فقد تيقّنَت نفسي بأنَّ كلماتها تلك كانت الأخيرة، اتَّخذنا الدّرَج ووقفتُ أمام الباب متوجسًا، لا خشية أن أرتكب الفاحشة معها؛ فأنا عزيز النفس ونفسي تأبى الوقوع في الشّرَك، إنَّما رهبة الشقة وأصواتها، وتلك الرُّدهة التي حوَت المزيد من الصعاب والأسى لتدفعني علياء وقد ضجِرَت من الانتظار؛ فأقوم بفتح الباب وإضاءة المصابيح لنَلِجَ سويًّا.

تركتُ علياء في الردهة و اتخذّت الدهليز عابرًا إلى دورة المياه كي أغسل وجهي مُزيحًا أمارات إرهاق ذلك اليوم عنه، لأعود إليها بنفسٍ طيّبة؛ فأجد المصابيح مُطفأة والمدفأة يشتعل حطبها بالنيران؛ فأقف جامدًا أسمع همساتها تقول:

- أرى بأنَّ تلك الطقوس هي الحياة الحقيقية هنا يا وحيد.

قد تبدو تلك الفتاة في ظاهرها مثل الأُخريات ممَّن يتودّد إليهنَّ الشباب بغية الصداقة والارتباط، أمَّا باطنها فهي جبلٌ مرصَّع بالأحاجي والأحجار الثمينة، متى اعتقَدتَ في نفسك قُرب الوصول علا الجبل وامتنع عن إبراز محاسنه؛ فتزداد له جذبًا ويشتعل قلبك إن أُزِحت عنه، من أين ظهرت تلك الـ"علياء"؟ وكيف لها أن تغدُو بمثل تلك الخصال؟!

ابتسمتُ متقربًا منها، لأتَّخذ أحد الكُرسين المتهتكين ملاذًا لي.

- أرى كونك شديدة الارتباط بذاك المقعد الهزَّار، فوالله لا أتركه إلَّا لك.

مطَّت شفتيها قائلة:

- إجبارٌ عليك لا رأفةً منك.

أُريد أن ألتهمَها.. أن أظفر بها، فما قُدرَة فتاة على مُجاراتي بتلك الشاكلة؟ بل والعصيان على نفَس وحيد، لا فتاة تستطيع، والماضي يشهد بما فعلت، فهل ستكون تلك مكافأتي بحق؟!

حالة من السكون اكتفيتُ بها وأنا اترقَّب تحركاتها على الكُرسي، وأصابعها البيضاء المزدانة بتلك الأظافر المُلونة، لتتحدث مرةً أُخرى:

- هل فرغتَ ممَّا أقرضتك؟

تلعثمت الكلمات داخل الجوف، فرددت:

- انتهيتُ من جزأين كاملين، وأدهشني تعلّق بطلِها بتلك الفتاة التي هجرته، لمَ الهوان على من رحل؟!

نظرت علياء إلى الأعلى، ولمحتُ على مُقلتيها بريقًا حزينًا.

- نعَم الأمان أعظم قيمة من الحب، ولكن التعلق بالأرواح هو الأكثر عنفوانًا.

يبدو أنَّ هشام ما زال نقطة سوداء يقبع بظلمته على عقل علياء، فما كان منِّي سوى تغيير الحديث.

- العُرس كان جميلًا بحق، ويبدو أنَّه إشارةٌ لك بالتسليم والظفر بأحدهم.

- وحيد، أنا من يُظفَر بي ولا أظفر بأحد، و أقسم لكَ لم يُعجبني رجل إلَّا وحادثني دون تدخل، ولكن تأبى نفسي هؤلاء.

تعالت ضحكاتي:

- يُعجبني غرورُكِ.

كانت تلك أجمل دقائق مرَّت منذ سنوات، وللوهلة الأولى لم أخشَ الشقة باهتزاز كُرسيها وعقارب ساعتها، ذاك الدهليز وتلك الغرفة، كأنَّما انحسَرَت الدنيا بأكملها على شفتين ورديتين وتلك النبرة المُلهبة، تمَّنيتُ لو أنَّني مِعْطفًا أدثّر تلك الصغيرة؛ فلا ترى غيري ولا أعيش سوى لها فقط، ودام الصمت دقائق طوال أمام نيران الحطب وسكون الشتاء.

- هل ستُكمِل رحلة الجواب يا وحيد أم ستكتفي بالقدر الذي علِمْت؟

جاء صوتها ثابتًا ولم أحسب السؤال، فما هو الرد المُناسب؟ أظن بأنَّني سأُكمِل الرحلة؛ فبعد ما حدث اليوم شعرتُ بمسؤولية مجهولة المصدر، وكان صمتي خير دليل، وإجابة تلقتها علياء لمعرفة قراري.

رأيتُ على وجهها فاجعة، "العقيدة" وحقيقة كونهم بشرًا بحق يعيشون بيننا، نعم، هم يتوغلون في كل شيء، قد يكونون الباعة، وقد يمسُّون أصحاب الفكر والعقول، يتحكمون في كل شيء؛ فهم امتداد متوازٍ مع تاريخ الشعوب، أثناء انشغالها بالرقص كنتُ أقرأ الورقة التي أعطاها العجوز لي، وعلمتُ حينها كونهم الأصل الحقيقي الذي نبحث عنه؛ فنحن نختصر الأزمات في السياسة والحروب غافلين عن مُحرّكِي الشعوب، ودومًا ما تساءلتُ مَن المسؤول عن ظهور حادثة يُتابعها الملايين دون غيرها؟ ثم الإتيان بأُخريات ونحن نجري وراءَهم هنا وهناك، معتقدين في أنفسنا العقل ونحن أكثر الغافلين.

كان الصمت خير هدنة، لتلفظ علياء سؤالها الأثمن:

- وما شأن تلك المتوازنات التي تحدَّث العجوزعنها؟

- إن صارت غلبة الدين ناشئة تحرّكوا لإخراج قوى العقل، وإن غلب الشقاء على الوجوه أصدروا الدعم النفسي إلى القلوب، إن بُعثرت صفحات التاريخ وزوّرَها المُنتصر سرَّبوا إلى البعض الحقائق في سطور، وإن نشأ جيلٌ يخشى الله ردَّوا بآخرين يُشِيعون الهرج والمرج، حفظُ المتوازنات يُطيل في أمر الدُنيا، لا يبغي فئة على أُخرى؛ فلا نصير قريةً ظالم أهلها، بل مدينة بها الطالح والصالح، هم ليسوا بقومٍ ينحازون إلى ثوابت؛ فلا يبغون هيكلًا بذبح بقرةٍ حمراء أو مهدًا مُنتظرًا على أرض الحجاز، إنَّهم الخفاء الذي يُبقِي المتوازنات، ونحن علينا الاختيار إلى أي فئةٍ سنغدو.

لمحتُ رعشةً خفيّة على أصابع علياء الهشَّة، لتُردف قائلة:

- ومن يكون المُبصِرون؟ وما شأنك أنت؟

هنا اتّجَهت صوب الحطب أمرّر عصا خشبية عليه؛ فتستزيد النيران اشتعالًا، صوّبتُ عيني نحو أبخرتها لعلها تُجيبني، لا أعلم الحقيقة بعد، فقط اليقين داخلي يُخبرني بأنَّ التاريخ لا يترك سلطة جماعة دون أن يُظهِر لها اتّجَاهًا مُعاكسًا، ولعل المُبصرين أحدهم.

حلَّ الصمتُ مُجددًا، وكان لفنجان القهوة نصيبٌ من الجلسة؛ فبعد التسعة حبَّات من السُكر تبدو الحياة مُختلفة، والرشف يؤدي مُباشرةً إلى العقل عوضًا عن المعدة، وددتُ لو كانت الحياة بأكملها ليلًا وشتاءً، حيث جليس الروح بجانبك؛ فلا يطرقُ الموت بابك أبدًا، لنمكث هكذا مليًّا دون مفاجآتٍ أُخرى، فأتَت الصاعقة كما تشتهي الأمواج بسؤالٍ واحد كان كافيًا لإغراق "تايتنك":

- ألم يحن الوقت لتُكمِل بقية القصة مع الجد يا صغيري.

تسارعَت دقَّات القلب مُجددًا، أهو الكافيين يغزوه أم تأثير علياء قد نضب، أسمع العقارب تدقّ، أرى زُجاجة الخمر وهي تتدحرج على الطاولة والغُرفة المُقابلة تتهافت الأصواتُ من بين جنباتها، ضيق نفس يُثقِل الكاهل كأنَّما الدهليز يُرسِل تحيّته، والغرفة تصل حشرجة زواحفها إلى مسامعي؛ فتتصلب ذراعي وأرتمي على الأرض، اقترب جسد علياء وتساءل عقلي.. هل سنعود مُجددًا؟!

- الآن يا وحيد ستعلم السر الذي جعل من "تسلا" الأب الروحي لنا، ستعي كونه المُتحرر الأكبر، ولمَ ينبغي الخضوع إلى أروقته وبنات أفكاره، ما بين يدي الآن كنزٌ سيجعل منك مطمعًا بين جماعتين؛ فهل ستتملص من تلك الحقيقة يومًا؟

أسبَلَت عينا الجَدّ ليزدرد ريقه، ثمَّ يُكمِل عازمًا:

- هذه هي "مصفوفة الكون"، بل قل "دائرة الطاقة العُليا".

انبثقت عيناي من موضعهما و أنا أُبصِر دائرة على حو افها نُحِتَت أرقامٌ من الـ"واحد" إلى الـ"تسعة"، تصل بينهم جميعًا خطوطٌ سوداء مُتصلة، فيما عدا اثنين تشكّلَا بنقاطٍ متفرقة؛ لتكوّن جميعها في الأخير مشهدًا مُرعبًا على النفس، لا تقدر على الرنو ببصرك بعيدًا أو انتزاع الرهبة من بين ثناياك، و أنت ترقب تلك الدائرة اللعينة، ما زلتُ أحفظ رسمة جدي إلى الآن؛ فقد كفتني نظرةٌ واحدة مُطولة تخزين تفاصيلها داخل العقل، وما أخرجني ممَّا أنا فيه هو صوته الغليظ يقول:

- صغيري، أنت القاتل الحقيقي، وبرؤيتك الدائرة صرت قادرًا على إنهاء الأمر، غدًا ستقتل...

انقطع صوته بمجيء والدتي؛ ليُشير بأصبعه الغليظ نحو المُغادرة على أن آتي إليه في مساء اليوم، وإن لم أفعل فسيخْرُج للعلن يُخبر الجميع بكوني قاتلًا.

اتَّخذتُ الدهليز سيرًا بقدمين حافيتين مُسرعًا لأتجنب توبيخ والدتي المُتَّصل؛ فسيتسخ الفراش جرَّاء فعلتي المُشينة تلك، ولم آبه؛ ففي قلبي نغزٌ يوحي بكون هذه الساعات هي الأخيرة لي لأعيشها طفلًا سويًا كما الجميع، والقادم سيكون وبلا شك بداية نهاية لم أتبيَّنها بعد!

ما زلتُ أتذكّر همسات الوسادة التي قبعَت عليها رأسي، كانت دافئة مُطمئنة للنفس، لم أُرِد في ذلك الوقت أن أتركها وإن كانت الزلازل قائمة.

مرَّ الوقت بطيئًا حتَّى انتصف الليل، وفي عُرف جدي الانتصاف يعني البداية، وها قد نام والداي بالغرفة المُجاورة، ووجب عليَّ الذهاب إلى غرفة الجد، وبحذر طفلٍ في التاسعة سرتُ كأنَّما كنتُ والسكون سواء؛ فلم يشعر بي أحد، لأقف أمام الباب مُتذكرًا تعليمات الجد لي بالطرق ستة مرَّات مُتتابعة، ثمَّ الانتظار، وتكرار الأمر والانتظار، وتكرار الطرق للمرة الأخيرة بنفس الشاكلة، وفعلت، لم أفهم، لكنني فعلتُ لأرى الباب ينفتح على مصراعيه وجدي و اقفًا دون كُرسيه! يدفعني إلى الدخول ثمَّ يقفل الباب مُسرعًا، وهنا كانت الغرفة مُشتعلة بالشموع في كل صوبٍ وحدب، حتَّى فراشه لم يسلَم من الأمر، لتأتي نبر اته جافية تقول:

- والآن يوم الإبصار لك يا وحيد، غدوتَ قاتلًا ووجب عليك الإكمال.

انتفض جسدي لكلماته، وبلسانٍ مرتعد:

- ماذا تقصد يا جدي؟!

- شاهد تلك النيران واجعل لنفسك من سطوتها نصيب، استنْشِق الهواء الثقيل والفَظْهُ خارجًا؛ لتكتشف أين ينبغي أن تُوجِّه نظرك الآن.

فعلتُ ما أمر دون أن أُفكِّر، ولم تكن تلك عادتي؛ فماذا حدث لي؟ وكيف يسير العجوز على قدميه؟! الهواء ثقيلٌ بالفعل، والنيران تأبى أن تترك بصري سوى بقطعةٍ حمراء تراها الأعين كُلَّما أغمضتها، وها أنا

أُكمِل خطوات الزفير ليتشنّج عقلي وتُزاح رأسي إلى الخلف؛ فأفتح عينَيّ لأُبصِر السقف ومعها أرى الحقيقة، أرى كل شيء...

دائرة الكون في المنتصف، ظلُّها يرتسم بإحكام، وبجوارها كلماتٌ ثِقال، أولَّها "وحيد قاتل"، ويتبعها قولٌ كدتُ أن أصرخ بسببه لولا كف جدي السميك منع حنجرتي من نفاذ صوتها ودويّه، كانت الجُملة بازخة تقول: "وحيد قتَل أباه وأمه"!

هل فعلتها بحق؟! أقتلتُ أبوَيّ بدمٍ باردٍ، ولكن لماذا وكيف؟ لا أقدر على الوقوف لأسقط على الأرض بلا حول أو قوة، وصوت الجد يُهاجمني قائلًا:

- هذه هي الحقيقة يا وحيد، وما تراه الآن هو محض خيالاتٍ لهما، ألا تتذكر ما فعلت؟ وكيف أنَّ زُجاجة الخمر ما زالت مُمتلئة إلى الآن؟ فأين والدك منها؟!

انتفضتُ حينها وارتجَجتُ رجًّا كما قربة الماء، اغرورقَت عيناي بالدمع وبدأت ذاكرتي في الاشتعال مُجددًا؛ فظلَلتُ أهرف بكلامٍ لا معنى له، وبين فينةٍ وأُخرى أسمع صوت جدي سابقًا يُخبرني بكوني قاتلًا، ثمَّ أبي يُجهِز عليَّ بالضرب والإهانة، وفي تلك الليلة حدث الأمر...

الوسادة ساخنة تسلخُ جلد وجهي دون رحمة، و آثار الطعنات ما زالت قابعة على جسدي، أنت قاتل، أنت قاتل، أنت قاتل؛ فكانت تلك الأقاويل ما يتملَّك مسامعي وتبرير الجد حينها بأنَّ الزواحف ما زالت ترصد أبويك، فإن لم ترحمهما سيفتكون بهما، نعم أسمع صوت حشرجة الأفاعي لأول مرة، وتلتقط أذني تحركات أذرع العقرب كما لو كانت بجانبي، جدِّي سيحميني ولن يُخبر أحدًا بحقيقتي؛ لأقم مُتملصًا من الفراش مُغادرًا الغرفة في سكون، أسمع أصوات المطر صاخبة بالخارج، والرعد يفتك الآذان بعنفوانه، لأتَّخذ الدهليز عابرًا نحو الردهة؛ فأرى زُجاجة الخمر ما

زالت تحوي الكثير من السائل المُنكِر، فلربَّما ابتاعها أبي حديثًا، انتزعتُ غطاءها بصعوبةٍ بالغة وأخذتُ أرتشف منها بضع قطرات، فكما قال جدي: "الخمْرُ سيُعينك على عدم رؤية الزواحف".

شربتُ حتَّى ارتويتُ، وهنا شعرتُ بعقلي مختلف التوجه كثير الاستشعار، أسمع عقارب الساعة وطنينها، ذاك الكُرسي المهتزّ بلسان حال "أنا أراك يا وحيد"، والنيران المشتعلة من داخل المدفأة كأنَّها تقول "مأواك داخلي"، تحرّكتُ مُضطربًا نحو الدهليز للانتهاء من الأمر؛ فبصرتُ باب الغُرفة يتحرك وذرَّات الغُبار المُتراكمة أمامه وهي تتطاير نحو أنفي، لألفظها فيشتدّ السُّعال، ومعه أُبصِر وجه جدي يظهر من خلف الباب منفرج الفم، تبرز من خلفه أسنانه الصفراء المُتهتكة.

"أنت القاتل يا وحيد"، باتت جليّة، الآن سأفعلها وأهرع إليه ليحميني من الناس والزواحف التي ستحزن على فريستها، دخلتُ الدهليز، فكان ولأول مرة ضيِّق الاتِّساع، لا أكاد أتنفّس حتى أختنق، فكيف سُحِبَ هواءه ومن فعلها؟! صرتُ أزحف لأُكمِله وقد تخدّرَت عضلات جسدي الصغير، و أنا ألحظ الظلال وهي تسير بجانبي، أُقسِم برؤيتها، ووجب إكمال المسير حتَّى انتهيت منه، فوقفتُ أمام الغُرفة التي على اليمين حيث يقبع أبواي على فراشهما مُنتظرَين فَتْكَ الزواحف بهما، لأُخرِج السكين الذي أعطاه لي جدي صبيحة ذلك اليوم، و أقوم بفتح باب الغُرفة بهدوءٍ كما لو كنتُ مُعتادًا على التجسّس، وبدأ الأمر.

كان فراشهما كبيرًا بحق، والأثاث بالداخل كما عهدته مُنمقًا، والدولاب بُنيّ اللون راسخ القواعد، وقد شعرتُ بتحركات داخله؛ فعلمتُ كونها الزواحف تتجهّز للانقضاض عليهما؛ فأسرعت لأتسلّق الفراش بهدوء، حتَّى بدوتُ أعلى جسديهما أسمع أنفاسهما تتلاقى سويًا؛ فهما زوجان على كُل حال، وحيد هذا قدرك، والثو اني كانت كافية للقبض على

السكين، ومعها تدافعت دقَّات القلب تستزيد وتتسابق؛ فكاد ينبثق من جوفه ليُلفَظَ كما الأنفاس، رأيتُ وجه أبي الناعس وتذكّرتُ قول جدي عن كفّ الألم عنهما بغرز أداة القتل في القلب، ووصف لي مكانه، أُريد أن أصرخ وأن تصل صيحاتي عنان السماء، لكن لا أقدر؛ فحينها سينكشف أمري، وكانت القاضية.

ضممتُ القبضة إلى الأُخرى لأدفع السكين بقوةٍ وسرعة، و أنزلته على قلب أبي؛ فاخترقه نافذًا إلى الفراش؛ فكان مشهدًا مهيبًا، حيث ولأول مرة أرى السائل الأحمر يتشكّل بهذا العنفوان، الطاقة وهي تنفدُ وتوضَع على أُخرى، وشممتُ رائحة لم أعهدها يومًا، رأيتُ فقط حينها أسنان أبي الناصعة وهي تجتزّ بعضها بعضًا دون أن يصرخ، وشعرتُ بهواءٍ ثقيل وظلال تحوم من خلفي ومن أمامي، ثُمَّ لامسَتني روحٌ ما ومسّدَت على كف يدي الصغير؛ ففزعتُ مُخرجًا السكين وهو يُمزق الأحشاء، وقد كانت الأصوات غليظة على مسامعي والدموع قد تهاطلت، "أنت قاتلٌ يا وحيد"، غلبت كلمات جدي جُلَّ مشاعري، وكان ميعاد والدتي، والعجيب أنَّها لم تتحرك؛ فهل كنتُ قاتلًا من قبل أقتَنِص ضحاياي دون شعورهم؛ فأدرت وجهي وقد تلطَّخ بدماء أبي، وأمسكت السكين لأنزل به على قلبها، هنا كانت فاجعتي لرؤيتي عينيها وهما تنظران إليَّ مغرورقتان بالدمع، تراجعتُ خطوتين إلى الخلف وقد تعرَّقَت جبهتي وأصابني التنميل بكاهل الجسد؛ فكادت السكين أن تسقط.

"أنت قاتلٌ يا وحيد".

تحركتُ طاعةً لذاك الصوت ودفعتُ السكين داخل قلب والدتي التي لم تتحرك ولو أُنملة، ولم أسمع سوى صوت أنينٍ خافت ذهبَت بعدها روحها إلى السماء.

بِرْكَةٌ من الدماء أسفلي ويداي صارتا حمراوين، ليقع السكين من يدي وقد تشنجت أوصالي؛ فهرعتُ تاركًا الفراش أقول بصوتٍ مبحوح:

- جدي، جدي..

وأنا أترك الغرفة سمعتُ صوت الدولاب يهتزّ عن طريق طرقات من الخلف، وكان قلبي يحثني للإجهاز على الزواحف وإن ذهبَت روحي فداءً لها، فتحتُ الدولاب متحفّزًا لأرى قطةً كبيرة أوَتْها أمي مؤخرًا تئنّ في خوف، ونظراتها قتلتني مرتين، "أين الزواحف؟! أين الثعابين والعقارب؟!"، كان عقلي مُضطربًا لألحظ بطنها الكبير وكونها حامل في قططٍ أُخريات، وهنا لم أقدر على المزيد لأفقد وعي على الفور.

اندفعتُ بجسدي إلى الأمام وجدي بجانبي يضمني إلى صدره، الشموع ما زالت قابعة والظلال على السقف بالأعلى كما هي، نعم تذكّرتُ كل شيء.. لقد قتلتُ أبوَيّ قبل بضعة أيَّام، وعندما صحوت لم أتذكّر سوى جدي وبعض رجال البوليس يحققون في جريمةٍ ما وقد عجزوا عن معرفة المُتسبب في الأمر، أصابتني الهلاوس مُنذ ذلك اليوم، ولم يغِب عن عقلي ذكرى جسديهما وعيناي التي ترقبهما كل يوم.

- جدي، لقد قُمتَ بحمايتي بحق.

- نعم يا صغيري، ألم أُخبرك بكون ملاذك معي؟ أنا مأمنك ومن سيُطلعك على حقائق يقشعِرّ لها الجبين، أنت الآن من المُبصرين، ووجب أن تُكمِل رحلة جدَّك الغضنفر التي بدأها في سن التاسعة!

***

- آآآآآآه.

كانت صيحاتي مضطربة، قطعَت أحبال الحناجر وقد كست الدماء مُقلتي العين، وعلياء بجانبي منبثقة البصر مرتجفة الأوصال، أُجزِمُ بأنَّها تزمّ فكيها عن البوح والبُكاء، لأجلس القُرفصاء مرتعشًا لا أقدر حتَّى على

التكلم ببنت شفّة، ولم أسمع سوى صوت الباب يُقفَل مُعلنًا بذلك مغادرة علياء.

صرت ألكمني حتَّى خارت قواي، "ماذا اقترفتَ يا وحيد؟! علياء لا تتركيني أرجوكِ".

***

- روبابيكيـــا بيكيــــا.

أتى صوته بعيدًا عن مسامعي قريبًا من القلب يحثّه على العمل للاستيقاظ بأعينٍ ناعسة وجسدٍ مُرهق، لتصطدم رأسي بالمنضدة؛ فتتدحرج زُجاجة الخمر إلى أن تسقط أمامي، ومعها انتعشت ومضات الذكرى؛ فانتفضت مُرتعدًا:

- ما الذي فعلت؟!

إذًا أنا قاتل، ظفرتُ بدماء والدَيّ، وكنتُ أنا الزواحف التي أجهزَت على أرواحهما، هذه هي الذكرى التي كافحْتُ مرارًا من أجل نسيانها؛ فأتت علياء لتُحيي كل شيء، علياء! فأين هي الآن؟ بالطبع قد هربَت بعيدًا حيث يحرم التلاقي، تحولتُ بوجهي ناحية غُرفة الردهة أترقبها؛ فداخلها مكث الجد، ونعم سأمحيها عن بكرة أبيها، رأسي يشتَعِل فما زالت وجوههم تُطاردني كل يوم، وعينا أمِّي التي التَمسَت بهما الرحمة فلم أعتق رقبتها، نعم أستحق اللعن والموت كل يوم، بل كل ثانية.

نهضتُ مُتثاقلًا شريدًا أجُرّ القدم تلو الأُخرى نحو الغرفة التي حوت جريمتي الشنعاء، لأعبر الدهليز بلا أنفاس وقد اشرأَبّ عنقي حنقًا على ما فعلت، وقفتُ أمام الباب برهةً من الوقت غيرُ قادرٍ على إزاحته، وأخيرًا فعلتها لتنكشف معالمها وتنتعش ومضات الماضي مرةً أُخرى، هنا حيث مشيتُ دون أن يشعر بي أحد، وعلى ذلك الفراش فعلتها، اقتربتُ منه

مُتخيلًا مشهد أبوَيّ وهما نائمان لا يحسبان السوءة القادمة، أردتُ البكاء والنحيب، فلم أقدر أجَفَّت الدموع أم صرتُ وحشًا غير مروِّض؟!

رميتُ جسدي على الفراش أتحسّسُه بأطراف أصابعي هنا، حيث انتشلتُ القمل من رأسي، وهنا أيضًا داعبتني حتَّى البُكاء، لأصرخ بأعلى نبرات الصوت:

- أمي لا تتركوني، أرجوكِ.

طرقاتٌ مُتتابعة كانت كافية لإخراجي من غفوتي التي دامت رُبَّما بضع ساعات، لأُصعَق و أنا أرى نفسي ماكثًا بتلك الغرفة؛ فقفزتُ مُسرِعًا ضائق النفس لأُغلِق الباب خلفي، و أتَّجه صوب الطارق وعقلي يرفض فكرة أنَّها علياء، لأفتح الباب؛ فأرى أمامي صديقًا نسيته بحق، وصوت يقول:

- وحيد، لقد اعتقدتُ بأنَّه قد أصابك مكروه!

- يحيى!

جلسنا سويًا داخل الردهة نرتشف فنجانين من القهوة ذات التسعة حبَّات؛ فقد كان وقتها مُلائمًا لتلك الصعاب، ويحيى بجانبي ينظر إلى جبهتي مُدققًا بصره.

- لا تقرأها يا صديقي؛ فلن تجد سوى الظُلمة.

امتنع يحيى عن الحديث، ولطالما قدّرتُ فطنته للأمور؛ فهو يعلم جيدًا متى يتحدث ومتى يصمت بغية إراحة مَن بجانبه، وساد الصمت، وكُلَّما فرغت من فنجان قهوة ذهبتُ لأُعد غيرها، حتى وصلتُ إلى رقمٍ قياسي مكون من ستة فناجين دفعةً واحدة، وهو ما استرعى انتباه صديقي وأجبره على التحدث أخيرًا:

- وحيد، بتلك الشاكلة ستموت بلا شك، إن كانت علياء السبب فدعك منها، لم أحبها يومًا وخشيت عليك مرَّات؛ فلم تستمع إليَّ أبدًا.

دقَّ قلبي مُضطربًا؛ فلم أقدر على إخباره بما حدث البارحة، واكتفيت بالصمت، ليُردِف يحيى قوله:

- في العمل الجميع يسأل عنك، وقد كلَّفني المُدير بزيارتك لمعرفة الحقيقة ولمَ طال غيابك، الجميع يُحبُّك يا وحيد وإن لم تكن اجتماعيًا بينهم؛ فيكفيهم منك حُسن سلوكك وجدُّك في العمل.

ما زلتُ بتلك الحال أرفض الرد متجاريًا مع عقلي الذي وقف عند صنيعة الأمس وما اقترفت يداي، لأشعر بلكمةٍ قاسية تُطيح بجانبي الأيمن؛ فأقع على الأرض، وفوق رأسي صيحات يحيى:

- أفق يا وحيد، ماذا حلَّ بك؟! إن لم تُرِد التحدث فلا بأس، ولكن الحياة تصير من حاضرها فقط، ما ستفعله الآن في تلك اللحظات هو حياتك أنت وعِز النفس في وحدتها، لا بالعيش على الآخرين.

"عزُّ النفس في وحدتها، لا بالعيش على الآخرين".

رُبَّما تبدو إليك تلك الجُملة عابرة، لكن ما فعلته بي كان عجيبًا بحق! العقل مثل التِّرْس يدور متى أردت أنت منه ذلك؟ وبتوجيهه إلى مُرادفات حديث يحيى أدَرتُه مُمسكًا الدفَّة نحو اتجاهٍ آخر غير علياء وسطوتها، اتجاهٌ به سأُكمِل رحلتي وأعرف الحقيقة، لأقف على الفورو أقول:

- يحيى، لن أعود إلى العمل قريبًا، أتُمانع إن ذهبْتَ معي إلى وجهةٍ ما وإن كانت المخاطر بها.

ابتسم يحيى ليُضفي شعورًا من الأمان الخالص:

- معك يا صديقي وإن ذهبنا إلى الجحيم.

- إذًا فميعادنا بعد ثلاثة أيَّام.

***

داخل شقَّة لطالما مكث وحيد داخلها سنينًا مديدة من عمره، يجلس زوج عمته "سمير" على الفراش، يتحسّسُه مُفكرًا وهو يُقلِّب صفحات الماضي التي طواها الزمان، وعن تلك الأحداث التي مرَّت به وهو ثابتٌ يظفر بالمزيد، وقد كان فَرِحًا أيضًا بإنجاز الحاضر؛ فقد ترك الرجل الذي تجاوز عمره الخمسين عمله بالتأمينات لخدمةٍ امتدَّت اثنين وثلاثين عامًا بعدما استطاع الظفر بما يُدعى "المعاش المُبكر"، وذلك ليس جلبًا للراحة أو وفرةً في المال، إنَّما لتحصّله على عملٍ آخر قد يبدو غريبًا بعض الشيء، لكنه وبالفعل صار الأقيم له، ألا وهو "بلوجر!"

نعم قد تندهش من هذا المُصطلح إن كنت حديث العهد بالتكنولوجيا، ولكنَّه دارج بين الأوساط الشبابية؛ فكثيرٌ من ودَّوا امتهان هذا العمل؛ فالعم "سمير" وذات يوم كان يُقلِّب في المُتصفحات؛ فرأى من يقوم بتصوير بيته يعرض أمام العامة حياته بشكلٍ مُفصّل؛ أكان مع زوجته أو أولاده، وقد يتطرق الأمر للأصدقاء، ورأى أيضًا الفتيات اللاتي يُمسِكن بمُنتجات يَدفَع لهنَّ أصحابها نقودًا ليروجوا لها؛ فتارةً يسمع "زيت بذر التمساح"، وأُخرى تقول بصوتها الرنَّان "عصَّار جفن الحوت" للتجاعيد والبشرة الناصعة، والعجوز سمير لا يعلم للتمساح بذورًا، ولم يشهد يومًا للحيتان جفونًا، لكنَّه تعجَّب، ثمَّ تتبَّع الخُطى، ثمَّ ابتاع لزوجته ممَّا شَهِدَ بأم عينه وإن لم ترَ.

عَلِمَ الرجل المسكين كونه غير قادر على إثارة قلوب الشابات؛ فهو ليس وسيمًا مفتول العضلات، أو سيدة جميلة بحِسٍّ كوميدي ساحر! فقرَّر تجربة حظه في عرض حياة بيته و إيصال الرسائل من خلالها عن طريق صفع زوجته، ولأكن أكثر دقة صفعه هو، وبذلك قد ينجح، وما هي

إلَّا شهور حتَّى ظفر "سمير" بمسعاه؛ فصار "تريند" يتطاير الناس خلفه أينما حلَّ وارتحل بالمدح والذم، ونعم الذم هنا نجاح!

لم ترضَ سُعاد بتلك الخاطرة في بادئ الأمر، ولكن ومع كثرة المُشاهدات تحمّسَت، بل وأعدَّت هي الحلقات بعنوان "حواديت العم سمير وزوجته".

النقود تكثر في البطون؛ فتزداد الأرواح افتراسًا وجوعًا، وها هو صوت سُعاد يأتي من الردهة قائلًا:

- سمير، تعالَ فقد صار كل شيء جاهزًا للبدء.

نهض سمير بعزمٍ وحماس، وقد قرَّر أن يسير خارجًا يشم الهواء النقي بعد أن يفرغ من مسرحية اليوم.

- الآن ستقوم بالتجربة أمام الكاميرا، وأنا سأُقرِّب العدسة منك وأُبعِدها، وبالطبع تعرف مُفتاح الكلمات يا زوجي العزيز.

ابتسم سمير ليجلس أمام منضدة عليها شريحة كبيرة من البرجر مُغلفة بطبقتين من العيش الكيزر والصُّوص بجانب أصابع من البطاطس المُقرمشة، والحلقة فحواها إخبار سمير المُشاهدين بكونه استبدل طعام الخارج بأكل زوجته، ويُقرر بنفسه أكان جيدًا بحق أم لا؟ وإن حدث ووجده مُميزًا فسيقوم بغسل المواعين طيلة أسبوعٍ كامل.

أعلم يا صديقي.. أعلم بكونك تتذمر الآن ممَّا تقرأ، لكنَّه السوشيال!

- أكشن.

نظر سمير إلى الكاميرا وهو يشرح التحدي، ثمَّ يُمسِك الساندوتش بعد فحص مُكوناته؛ فيلتهم قطعةً كبيرةً منه مرةً واحدة ويقول.. "الصوص غير لزج، البرجر "جوسي"، العيش مُسخن بإحكام، والسلطات تنغمس مع الخلطة المُميزة داخل قطعة اللحم، تجربة عظيمة أُعطِيها عشرة من

عشرة، وبالفعل طعام البيت "Underrated"، سأغسل المواعين أسبوعًا كاملًا؛ فلا تتحدوا زوجاتكم يا رفاق، لو كان البُخاري معنا لترك ضَعف سند الأحاديث و انشغل بأكل برجر سُعاد"!

تصفيقات حادة من الزوجة التي لم تفهم يومًا لمَ يُقحِم زوجها كلمات لا شأن لها بما يُقدمه؟! فما الدافع من إقحام البُخاري في أكل البرجر؟! اكتفت بالصمت وهي لا تدري عن قولون سمير الذي يفتِكُ به لبشاعة ما تذوق، وها قد اكتملَت الصورة والفيديو جاهز للعرض، وهنا استطاع سمير الانفراد بنفسه والحصول على إذن الخروج من الشقة من زوجته؛ فقد ضاق صدره قليلًا.

قصد سمير أحد الباعة ليجلب منه زُجاجة من المياه الغازية تروي عطشه وهو يسير على كورنيش المنصورة الفريد، مُتذكّرًا حقيقته، وما هو قادرٌ على فعله، نعم رأى سمير في نفسه المزيد.

قاطع تركيزه صوتُ فتاة حنون تقول:

- أيّها العم أتُعينني على إنزال بعض الحاجيات الثقال؟

اندهش لجُرأة الفتاة، ولاختيارها له دونًا عن غيره؛ فرد ضاحكًا:

- ومن بين الجميع لم تجدِي سواي؟!

تأسفت الفتاة مُنكسرة، لتدور بوجهها وهي تقول:

- فقط خشيتُ أن ألتمس المُساعدة من شاب فيتحرَّش بي، و أنت تعي أنَّنا نتعرض لذلك كثيرًا تلك الأيَّام.

- لا عليكِ يا صغيرة، سأُساعدك بالطبع، فأين هم؟

تُشير الفتاة إلى السيَّارة، فيدلف الرجل إلى الداخل لكي يحمل حاجياتها وهو يفعل ذلك يشم رائحة عجيبة ناتجة عن رذاذٍ ما تلحظه عيناه؛ فيغطّ في نومٍ عميق.

يصحو سمير على ماءٍ باردٍ يصطدم برأسه مندفعًا؛ فتخرج صيحاته قَلِقة وهو يسعى للإبصار جيدًا بغية معرفة أين يقبع الآن؛ ليُصعَق وهو يرى أمامه الفتاة الشابة ويداه وهما مُكبلتان بالحبال، ليُحدثها بهدوء ليس محلَّه تلك المواقف:

- من تكونين؟ ولمَ شابة بمثل عُمرك تفعل أفاعيل الشياطين تلك؟!

تعالت ضحكات الشابة:

- شياطين! انظروا من يتحدث وهو إبليس بحد ذاته.

حاول سمير معرفة اسمها دون جدوى، ليبتسم قائلًا:

- حسنًا حسنًا، لنتعدَّى مرحلة الاسم ويكون سؤالي القادم هو ماذا تُريدين؟ فديةٌ من المال؟ فقد خاب ظنَّك، زوجتي لن تدفع جُنيهًا واحدًا في سبيل تلك البطن المُمددة وتلك الصلعة عاكسة الضوء.

تُزيح الفتاة نعالها رواحًا وجيئة مُندهشة من أمر سمير، لتقول:

- أنت بالفعل الشخص الأكثر هدوءًا على الإطلاق، ولا ينبغي الاستماع إليك.

أراد سمير التحدث؛ فصرخت الفتاة تحثه على الصمت، فلم يُبالِ لها؛ لتندفع نحوه واضعة شريطًا لاصقًا على فمه، لتعود إلى مكانها وهي تقول:

- كان مُحقًا لتحذيري منك، والآن حان ميعاد القصاص.

انبثقَت عينا سمير إلى الخارج وقد تعرَّقت جبهته كأنَّه يعلم الجُمل القادمة؛ فلا تدري السبب الحقيقة وراء هذا التحول، وهنا أتى صوت الفتاة قائلًا:

- أنت المُتسبب في مقتل جَدّ وحيد، أنت من قُمتَ بتتبّعِه ثمَّ الإجهاز عليه داخل شقة القاهرة التي مكث بها وإشعالها وهو داخلها حيٌّ ما زال يتنفس، فعلتَ الأمر دون أن تُدين نفسك أو يلحظك أحدهم، ثمَّ انصرفت وعدتُ إلى بيتك بنفس الهدوء ورزانة أمرك المُعتاد، يا لك من ثعلب يا سمير!

اهتزَّ الرجل بكُرسِيّه بعد أن فقد صوابه، يُزمجر كما الكلاب؛ فلا يقدر على النباح، ليرى الفتاة وهي تقترب منه مُمسكة بقطعة حادة تُشبه السيف، وكُلَّما اقتربت بحذائها خطوة ارتجَّ قلب سمير في مكانه، حتَّى كاد يسقط بين ساقيه، لتصرخ الفتاة قائلة:

- القصاص.

دفعت السيف ناحية رقبته فاقتلعتها من جسده مُتدحرجة على الأرض مُنهية بذلك حياته، لتنكفئ على رُكبتيها قائلة:

- والآن انتهى الأمر!

***

ها أنا الآن على مشارف منطقة "المهابيل" وشوارعها الضيقة بعدما انقضَت من الليالي ثلاث، وبُصحبتي صديقي الذي أرى من خلاله رفق الدهر وبعض مُعجزات الأنبياء، "يحيى" يسير بجانبي حائرًا لا يعلم سوى القليل عن الخطاب والرحلة التي سنعرف بها اليوم جانبها الثاني من الحدث، والعجيب أنَّه لم يشكُ أو يُلقِي التهم عليَّ جُزافًا، بل شدَّ من أزري وأعاد كلماته السابقة "معك يا صديقي وإن ذهبنا إلى الجحيم".

ها نحن نسير الساعة الرابعة عصرًا داخل تلك المنطقة العشوائية المزدانة بالأهل الكِرام والدكاكين المُتراصة بجانب بعضها البعض، وأنا أبحث عن الدرَّاجة التي وجدتها في زيارتي الأولى محفورًا عليها الأحرف الأربعة، ولا تندهش يا عزيزي؛ فطُرقات تلك المنطقة ضيقة بحق ولا تحتمل وجود سيَّارة واحدة بها، وبعد أن قضيتُ ساعاتٍ مُحاولًا كشف الأمر تفحّصْتُ عجلاتٍ مُتباينة من الدرَّاجات حتى وجدتها، وها هي قابعة كما الزيارة السابقة منفردة أمام منزلٍ قديم مُهترأ تخشى أن يسقط عليك وأنت على درَجِه، ونعم قد فعلتُها وطرقت الباب ستَّة مرات، وحان الآن ميعاد الطرقات الثانية ثم الدخول، وبينما أتيقّن من البيت والدرَّاجة سمعتُ صوتًا أجشًا يقول:

- أمسكوا الغريب.

غمزَني يحيى خائفًا، لألتف ناحية مصدر الصوت؛ فأرى جمعًا من الرجال تعدادهم ثلاثة يقفون مُسلّحِين بالعصا ينظرون إلينا مُنتفخين الأوداج، وهنا رأيتُ في عيونهم المكيدة؛ لأقول مُسرعًا:

- نحن لسنا بدُخلاء، إنَّما نبحث عن بيتٍ نقصد صاحبه فقط.

لم يرُدّ أحد، بل أحكَموا قبضتهم على العصيان الخشبية وهم يتوجّهون نحونا؛ فسمعتُ صوت يحيى يرتجف قائلًا:

- سأموت ولم أتزوّج بعد، لعنكم الله ولعنَكَ أيضًا يا وحيد.

لا أعلم ماذا رأى يحيى في ذلك الوقت! أهو يلعنني بحق لجلبِه إلى هنا أم يلعن الوقت والظروف؟! وقد يتعدى ذلك إلى بضعة أشخاص كانوا سببًا في جعله غير قادر على الظفر بفتاة أحبَّها فؤاده لعدم قدرة مالية وقد تعدَّى الثلاثين عام، أيلعن الموت! وضَعْفه على الشهوات؟ أم يلعن الأرواح التي يخشى أن تُزهقه أنفاسُه دون أن يعلم السبب؟!

ابتسمتُ له، ونادرًا ما فعلت، لأقف أمامه مُواجهًا لهم و أنا أقول:

- لا تقلق يا صديقي؛ لن يمسَّك أحدٌ اليوم.

لم أنطق بكلمةٍ أُخرى واكتفيتُ فقط بالسعي نحو تلقِّي أولى الضربات ولتكن مُوجعة، وهي كفيلة بإنقاذنا بكل تأكيد، وتمَّ الأمر..

باغتني الرجل الذي على الميمنة بضربةٍ مُفاجئة على الكَتِف لأقع أرضًا مُتألمًا، ليتبعه الذي على الجهة اليُسرى بضربةٍ أُخرى على العمود الفقري، ويحيى خلفي يصرخ مُستنجدًا و أنا طريح أُهمهم فقط:

- أين أنت؟! لمَ لا تخرج؟!

وهنا كانت الضربة القاضية؛ فلا أعلم كيف تعدَّت كُرة القدم لتنفذ إلى الو اقع بعصا تصطدم بمُقدمة رأسي فتسيل الدماء منها كنهرٍ ضُرِبَ أحد سدوده بالصواريخ؛ فانفجرت مياهه سعيًا نحو الأمام، نعم لا يُرى من وجهي سوى شُعيرات الذقن السوداء وسط بِرْكَة من ذاك السائل الأحمر، وهنا حدث ما أردت، اندفعَ الخيط الأسود من جسدي بأقصى طاقته لأراه مُتشكلًا؛ فتدافعت نبضات القلب تؤازر بعضها بعضًا، تُجبر العقل على استحداث ومضاتٍ أُخرى من الماضي؛ لأقفز وقد خرج لساني من جوفه و أقول بصوتٍ يشوبه الفحيح:

- سأقتلكم، سأُبيدُكُم عن بكرة أبيكم.

نعم رأيتُ الذعر في الوجوه، ولطالما أحببت ذلك الأمر، وجهُ والدتي قُبيل وفاتها يتداخل مع ما يحدث اليوم، أمسكتُ رأسي بكلتَي يدَيّ صارخًا؛ لأنقَضّ على الأوسط أولًا فألكمه لكمةً أطاحت به أمتارًا إلى الخلف مُتدحرجًا؛ فلم يقم بعدها مُجدّدًا، وهنا دارت عينا الآخرين ما بين صديقهما القابع دون حراك وبين هالتي السوداء التي ستَفتِكُ بهما لا

محالة، لأقترب منهما؛ فتراجعا إلى الخلف خطوات مُمسكين بالعصا غير قادرين على توجيهها.

"أنت قاتل يا وحيد"

حاصرتني كلمات جدي وصرتُ أنظر نحو الهالة السوداء المُتشكّلة على نهاية الخيط؛ فتشتعل رأسي وتسوَدّ عيناي، أين أنا؟! ومن هؤلاء؟! لا أتذكر شيئًا، أرجوكم فلينقذني أحدكم، لحظات لأقفز على الأيمن فتتلقاني عصاه على صدري؛ فلا أشعر، بل أردها عليه مرَّات بعدما انتزعتها منه، و أقُسم رؤيتي دموعه تجري كما أمواج سفينة نوح؛ فلا جبل أنقذ الكافرين حينها ولا مأوى سيفعل المثل لك.

ضرباتٌ متتابعة هرب جرَّائها الثالث مذعورًا، وأوقفها صوت يحيى صارخًا:

- كفى يا وحيد.

أدرتُ رأسي تجاهه؛ فبصرتُ نورًا يسير نحوي، يضع يديه على رأسي وهو يتلو البسملة؛ فتقف الدماء المُتدافعة؛ فهل صار البشري إلهًا؟!

وسط ذعر الأهالي القابعين داخل دكاكينهم زحف الرجُلُ الأيمن ليهرب بعيدًا تاركًا إيَّاي مع صديقي "يحيى" لنُكمِل رحلتنا نحو الدّرجَات حيث تقبع الشقة المقصودة، ولم يُفارقني الخيط الأسود أبدًا حاثًّا جسدي على إكمال مسيرته وإن أُنهِك و أفَل.

نقف أمام الباب بعدما صعدنا الدرج، وأعلم جيدًا خوف يحيى المُسيطر عليه الآن، لا يفهم لمَ حدثت تلك الأمور؟ ولا يقدر على البوح بما يجول في فؤاده؛ فهو صديق، وهنا ولا أعلم كيف ارتسمَت على وجهي ابتسامة ساخرة من تأليهِ بشريّ فقط لكونه "يحيى"؟ وقمتُ بالطرق ستَّة مرَّات أُخريات.

كما السابق جوار علياء انفتحَ الباب دون أن تنكشف الروح التي فعلَت، لأسير نحو الداخل وبجانبي صديقي مُرتابٌ، حتَّى دخلنا سويًا وأُغلِق الباب، وحان ميعاد كشف السطور القادمة.

على عكس الزيارة السابقة كانت تلك الشقة ضيقة مُتزاحمة الأثاث، تعلو أرضيتها العديد من الطنافس المُلوّنة، الردهة تحوي التلفاز، الطاولة، وحفنة من الأوراق تتراصّ على جنبات الطريق، وأيضًا كان الشعور مُعاكسًا؛ فلم أخف! إنَّما تطلّعتُ لمعرفة أين تكمن الحقيقة، وبينما يقف يحيى جامدًا لا يدري ماذا يصنع وتغلبُ على ملامحه حب المُساعدة، ابتسمت له قائلًا:

- هيَّا بنا نتوجه إلى الغرف.

اندهشَ مُتراجعًا خطوتين إلى الوراء:

- وما يُدريك؟! قد يسكن أحدهم تلك الغرف يا وحيد.

لم تُشغلنِي تحذيراته، وانطلقتُ نحو الممر القصير لأرى في نهايته غرفتين، وكما الشقَّة السابقة نُقِشَ على أبوابهما الدائرة باختلاف ترتيب أرقامها، ولم تنقضِ سوى ثوانٍ معدودة لأعرف الغرفة الصحيحة وألِجُ إليها مُناديًا على يحيى؛ فلحق بي، وما بين انتهاء نبرات الصوت وتحويل رأسي لأبصر الغرفة كانت الصاعقة، رائحة كريهة تتلقّاها أنفي أصابتني بالدوار، وطاولة دائرية بُعثِرَت أعلاها حفنة من الوريقات، وعلى عكس الغرفة السابقة لم تكن لوحات كبيرة مُرقّمة، إنَّما مجموعة من المُلصقات تتراص على الحائط بشكلٍ عشوائي يغلب عليها الصور ورموز تعود إلى حيوانات مثل "بقرة حمراء، جدي، قطة سوداء، ديك أحمر، حمار مُتّسخ وذئب وُضِعَ داخل قفص وأمامه حدوة غير مُغلقة"، ليأتي صوت يحيى من خلفي مذعورًا:

- أين نحن؟!

توجّهتُ صوب الحائط وأخذتُ أمرر المُلصقات تباعًا، و أنا أقول:

- يبدو بأنَّنا الآن داخل منزل ساحر..

توقفت عن الحديث؛ ممَّا أثار ريبة يحيى وهو يدفعني نحو المُضي في التفسير؛ فلم أقدر لرؤية وجهٍ أظنه مألوفًا، وكتابات أعلاه على الحائط بعنوان "عبد الفتاح الطوخي".

تجاهلتُ بقية المُلصقات؛ فبالتأكيد تحوي السطور التي قرأتها سابقًا بمنزل العجوز، وصببتُ جُلَّ بصري أسفل الصورة التي حوَت وجه عبد الفتاح؛ لأشهد سطورًا صغيرة الحجم مُتلاصقة، كان ولا بُدّ أن أفك شيفرتها لأعلم الحقيقة..

"كما كانت العقيدة سابقًا سبيلَ تحضير النفس بالأفراد تحتَّم عليها حفظ الموازين داخل عالم الجان أيضًا؛ ففي السابق لم يأبه (كومر) الرأس بمُمارسي السحر وطقوسهم؛ فالمتوازنات لا تنخرط داخل ما لا يُدركه العقل، ولكن بدأ الأمر على يد أحد شباب العقيدة الأوفياء، وكان يُدعى "لاوِي بن ساتور"، حضر يوم الزينة ورأى بمُقلتيه أثر السحر على العباد وما فعله موسى النبي بفرعون و انشقاق البحر؛ فإن كانت مُعجزة إلهية فقد رآها البعض سحرًا أخطر ممَّا امتلكه الكهنة أجمعين؛ فأدرك الشاب حينها بأنَّ السحر قد يحفظ متوازنات أُخرى لم تكن ذات شأن داخل حقبة أسلافه و أقرانه من العقيدة، والْتحَقَ "لاوي" بالمعبد الكبير؛ حيث بدأ عصرٌ جديد بأجيالٍ توازت في عملها مع هؤلاء الذين يقصدون نفوس البشر، وكان شأن السحر داخل المُنظمة ينصّ على جملةٍ واحدة.. "مثلما كانت المعجزات عون الدين سنستخدم الدين لخلق المُعجزات".

لم تأبه العقيدة لأصول السحر والطلاسم، بل أدارت الدفَّة ناحية زعزعة توغل الدين من أجل خلق روح المنافسة وربطه بما يُدعى

"الكُفر"، وكان للجيل المنقضِي نصيب الأسد؛ فأرغم أسلاف العقيدة بعض أبنائهم على قصد كيان مُبجَّل عند المسلمين "الأزهر الشريف"، ومن بعده سيسهل عليهم تنفيذ المُخطط؛ فالجُهلاء هم من ينسبون الخطأ نحو المُنظمة لا الأشخاص، وما أكثرهم! لذا شرع أفراد العقيدة في ذلك الأمر، وكان من بينهم كبيرنا ومُعلمنا "عبد الفتاح الطوخي"؛ فولج إلى الأزهر ليأخذ العلوم، ثمَّ بادر بإنشاء معهده الفلكي المزعوم، وباطنه علوم الروحانيات، وكثرت التلاميذ أسفله؛ فتفاقمَت الأمورو انتشر خلط أسماء الله الحُسنى برؤية الملائكة أو الجان، وكانت الأعداد الرقمية هي السبيل بمُضاعفات الأعداد، وصل الطوخي إلى مُراد العقيدة؛ فانتشرت كالنارفي الهشيم حتَّى وقتنا هذا".

اقشعر جسدي جرَّاء تلك الكلمات، وبدأ عقلي يُترجم الحقائق تِباعًا؛ فلم تكن غاية العقيدة تحضير الجان، بل خلط السحر بآيات الدين و إبراز المتوازنات؛ فلا تغلب فئة الأُخرى، وترى بعض الشيوخ يُندّدُون بالأحاديث وآخرون يعيثون فسادًا تحت نفس الطاولة، هذا الكيان بحق أخطر من الماسونية وزعمائها؛ فهم لا يملكون القوم الأعلون، لكنهم يظفرون بأرواح الشعوب.

أفقتُ من غفلتي لأرى يحيى وهو يُقلب الوريقات على الطاولة يصيح فزعًا:

- أهذه النجمة الخُماسية؟!

اقتربتُ منه لأرى دو ائر بأشكالٍ تبدو للوهلة الأولى مُتماثلة، وصُعقت لرؤيتي دائرة الكون بأرقامها شبيهة نجمة الطلاسم الخُماسية بامتداد خيوطها، فما الذي يحدث هنا؟! ألذلك أطلق جدي عليها دائرة الكون؟! فهي تشمل أركان العقيدة بأكملها؛ فما كان مني سوى قول:

- أنت مجنون يا يحيى، بالطبع لا.

نعم أردتُ أن أُزيح عبء ما نرصده عنه، فهل أخطأت مُجددًا بجلبي إيَّاه إلى هنا كما حدث مع علياء؟

نظر يحيى إلى رأسي، وأردف قائلًا:

- جبهتك تُخبرني بالحقيقة يا صديقي.

أزحت بصري عنه:

- أنت مجنونٌ بحق.

أخذتُ أُكمِل البحث لعلي أكتشف المزيد، لأسمع صوت اهتزاز الباب ومن خلفه أشهد رجلًا عجوزًا قعيدًا على كُرسي متحرك ما زال يحتفظ بشعره الذي يصبغه بالأسود، ولولا تجاعيد الوجه ما علمت سنَّه الحقيقي، مُتّسعُ المقلتين ذو بشرةٍ مصفرة تشعر كونها ليست من عالمنا، وأنفٌ دقيق، ولكن ما أصابني بالرعشة هو وجود فتاة جميلة المظهر مجدولة الشعر وسمراء البشرة تُحرك كُرسيه من الخلف، وبالطبع تسمَّر يحيى عاجزًا عن النُطق خشية أن يُصيبه مكروه؛ فوجه العجوز بالفعل مُرعب، لأتدخّل مُسرعًا بهمسات يسمعها صديقي فقط مُبتسمًا:

- يحيى، أنت مجنون.

ساد الصمت لحظات، ليتحدث العجوز:

- إذًا أنت وحيد.

بدأ عقلي يُحلل الأمور ويكشف الاختلافات ما بين هذا الرجل وقرينه بالشقة السابقة، جاء إلينا مُباشرةً دون إطفاء أنوار، ثمَّ ناداني باسمي ليخلق طقسًا من الريبة عكس سابقه الذي دعاني بال"مُبصِر"، ولكن يظل السؤال قائمًا كيف عَلِمَ بذلك؟!

- نعم أنا، ومن تكون أنت؟

- وما غاية الأسماء إن كان شأن صاحبها مجهولًا؟ الفتاة التي تجرّني اسمها "كليوباترا"، جميلة أليس كذلك؟ وذات أصل مقدوني مثل حاكمة المصريين القُدماء؛ فلا تنزعج؛ نحن المصريين نعتز بالأصول دون معرفة التاريخ الحقيقي للأسلاف.

- صادق.

نظرتُ إلى يحيى فوجدته يُركز بصره على جبهة العجوز الذي ابتسم وهو يُحدق بوجهي، لأقف واجمًا أنتظر بقية الحديث.

- كما ذكرتُ هذه مُساعدتي "كليوباترا " ملكة التخفي والتعقب؛ فهي من راقبتك مُطولًا وجمعت الأوراق حولك، كليوباترا أيضًا تتميز بصلابتها وقدرتها على الإطاحة بأرواح الرجال، أكان قتلًا أم بالعذاب كما فعلت قرينتها بالرومان.

- صادق يا وحيد.

كانت كلمات يحيى تُؤكد زعم العجوز، وتُريح عقلي من خيفة الكذب والضلال، وجاء وقت الهجوم..

- إذًا أنت أحد كِبار العقيدة، واختصاصك هو السِحر.

انزعج العجوز، ليرد بصوتٍ أجش:

- أكمل العنوان حتَّى لا تأثم، السِحر الروحاني حيث متى انكفأ الشخص عليه انقطعَت به السبل عن الحياة؛ فظلَّ له عبدًا وفيًا.

- وكيف علمتَ من أكون؟

- جميعنا نعلم بأنَّ المُبصِر يتحتّم عليه زيارة كِبار رؤوس العقيدة داخل كل بلد، وفي مصر يسهل معرفتكم؛ فمن ذا الذي سيبحث عن عجلات محفورًا عليها الكلمات، ونعم منذ أن فعلتَ علمتُ عنك ما

يهمني، وفي ميعاد زيارتك اليوم بعد ثلاثة أيام جلبتُ لك برقِيّة من الحلوى عبر ثلاثة من الرجال أشهد عن طريقهم قوتك.

إذًا كان هو المُتسبب في تلك المُشاحنة بالأسفل، لينتعش وميض العقل؛ فأرد عليه قائلًا:

- ألا يُذكَر في بند عقيدتكم بعدم استعمال القوى؟

مسّد العجوز على كَتِف الفتاة وهو يقول:

- لكل قاعدة شواذ يا وحيد.

- ولكن ماذا إن كُنتُ شخصًا عاديًا لستُ بمُبصرٍ، أو كما تدَّعون، أفلا تخشى أن أفضَح أمركم وأذيع بكيانكم عبر الأذهان؟!

تعالت ضحكات العجوز قائلًا:

- لم تحدث في عصر الحُكماء، فهل سيُصدقك أُناس داخل عصرٍ إن رأوا المسيح الدجَّال أمامهم لقالوا "لعله أقرب إلى الله منك"؟!

أجواء من الظُلمة يضفي بها العجوز على أكهالنا، وأُجزِم بأنَّ يحيى يكاد يجن، نعم صديقي عاقلٌ سيحسب الأمور جيدًا، ويرى الصدق مُستنيرًا على الجباه، ولكن إلى متى سيظل صامدًا؟ وإلى متى سأغدو بلا هوية لا أدري من أكون وكيف وصلت تلك الرسائل إلى جدي وكنتُ أنا الوريث؟! فهل وجب الرحيل الآن؟

- نعم وجب الرحيل.

نظرتُ بأعينٍ مُنبثقة إلى العجوز الذي ابتسم؛ فبرزت التجاعيد أكثر فأكثر، لم أقدر على النُطق وعلمتُ كونه قرأ أفكار عقلي الآن؛ فهو ساحرٌ على كُل حال، ولم يكن مني سوى الخضوع للأمر، أزحْتُ الرَّجل تلو الأُخرى حاثًّا يحيى على التقدم أمامي هربًا من ذلك المكان؛ فقد اتَّضَحت

الصورة أكثر، وباتت الحقيقة قريبة، رأيتُ في أعين الفتاة التي خلفه حقدًا وغضبًا، فهل كانت تُراقبني طيلة حياتي؟!

تجاوز يحيى العجوز في سلام، وبينما أعبر بجانبه أمسك يدي بقوة فشُلَّ ذراعي واشرأبت الأعناق، لأشعر به يضع ورقة مطوية بين راحة كف يدي، ليتركني بعدما كان سببًا في تصلب الدماء داخل الأوردة، لأسمعه يقول هامسًا:

- هل تعلم لما سُميت تلك المنطقة بال"مهابيل"؟ لكون المُترددين عليها أفرطوا في شرب ال"بوظة" إلى عهودٍ قديمة ترجع إلى الملك؛ فأفقدتهم العقول وصاروا مهابيل، و أنت يا وحيد بتلك الزيارة الأولى لك قد شَرِبْت تلك البوظة اليوم وإن لم تمكث طويلًا، سأتركك تُغادر وكُلي ثقة بعودتِك عمَّا قريب.

انكفأت على رُكبتي إثر عنفوان كلماته، وصار قلبي يرتج كقربة ماء؛ لأُكمِل المسير هاربًا من قبضته.

على مقاعد المُواصلات أجلس جوار النافذة أُفكر فيما سمعته من ذلك العجوز، وقد علمتُ أمرًا هامًا بكون العقيدة قد طالت أياديها السحر وفجوره، وهو أمر لم أحسبه واقعًا، وأيضًا كِبارهم لا يعلمون بشأن بعضهم البعض؛ فلا تواصل بينهم، إنَّما يتلقون أوامرهم من رجلٍ واحد؛ فيُحركون من أسفلهم كما العرائس، وأُجزم بأنَّ ذلك الرجل ذو شأنٍ رفيع؛ فقد يُسمِّي نفسه "صاحب الكرامات"، أو قد يتفاقم الأمر ليتخذه الناس سبيلًا نحو الوصول إلى إلههم بالدُعاء كما الأضرحة، وهذا يحفظ المتوازنات؛ فكما يحج المؤمنون إلى ربهم وبيته هنالك من يقصد هؤلاء ظنًّا بأنَّهم وَرِعون؛ لذا قد اختار تلك المنطقة ليقطن بها.

وصلنا إلى المعادي حيث اعتدتُ مع صديقي السير مُطولًا ليلًا في أحيائها الهادئة دون أن يشعر بنا أحد، وما زال يحيى يُحافظ على رباطة

جأشه حتَّى وقفنا بمنطقة هادئة، وحدث ما توقعته.. سقط على الأرض مُنفجرًا يصرخ كما الطفل الرضيع، ولربما لمحتُ تساقطًا لبعض الدموع من عينيه، لم أقترب منه؛ فوجب عليه أن يُفرِغ شحنات ما تلقَّته أُذناه ورأته عيناه، وما إن فرغ اقتربت منه لأمسّد على كتفه قائلًا:

- نحن لا نعيش بمفردنا في هذا الكون يا صديقي، هيَّا بنا لنأكل الآيس كريم وننسى كل شيء.

***

"أعلى الطريق أسماء وبين طيَّاتها أرقام، إن اجتمعت حُسِرَ الدين فصار بدعةً وضلالة، وكان لهم نصيب الأسد من الغنيمة؛ فما أكثر الفقراء وما أحوجهم إلى المُعيــن، أتلو عليك الأسماء يا صاحب البركات؛ فهل تسمع وتُبصِر؟!

المُهيمن: إن قرأته بعد الغُسل 81 مرة أخذتَ بحقك ممَّن ظلمك بهتانًا.

البارئ: إن تلوْتَه يوم الجُمعة مرَّاتٍ أعدادها 135 كنت مصونًا من الجان والسُلطان.

العزيز: إن فعلتَ وقرأتَ ثمَّ أوجبت بالخضوع فكانت المرَّات 54 كانت للمرأة العقيمة البنون والبنات.

المُصوّر: إن ذكَرْتَه خمسة وأربعين مرة في خمسةٍ وأربعين يومًا كان لك فيض الغِنى، ولا حاجة لك في روحٍ أو مخلوق.

أسماءٌ كثر أذكر عليك فقط بعضها وتفاصيل الذِكر الحميد؛ فإن وجبَت عليك الطاعة تلوتها جُلَّها فحُصِرَت الأرض لك وما عليها بأسماء مالك المُلك، وهذه السطور هو دين العقيدة؛ حيث يلهث الكثيرون وراءَه

مُطمئنة جنوبهم بأسماء الإله؛ فيعتقدون في أنفسهم الصلاح، وما هم سوى بيادق تتشكل مع الوقت، وكان هذا هو حجر الأساس لكل ساحرٍ يقول في نفسه التقوى وتُبنى له القرابين، وأنت يا صاحب البصيرة ألم تلحظ تعداد الأرقام؟ فهل تُشابه ما امتلكت من معرفة؟!

في قديم الزمان حدثت ملحمة كُبرى تُدعى "ملحمة جلجامش"، كانت حجر أساس حضارات عظام كما الإغريق؛ فاقتبسوا منها آلهتهم مثل "زوس" العظيم، الاسكندنافية وكان لهم من "أودين" ملكًا وإلهًا، وأيضًا حضارة مصرية قديمة رأت في "رع" ملك الملوك، وأنت أيَّها المُبصر أسَتَفْعَل المثل فقط لتُنقذ الخلق من شِرك العقيدة، أم ستكتفي بحرق عِجْل السامري؟!

***

المُترادفات الثلاث جائزتك وهي:

(الأمل، السحر، الامتلاك)

على الكُرسي الهزَّاز أجلس منتفض الجسد، أسمع أصواتًا قادمة من الغرفة المُجاورة للردهة بعدما فرغت من قراءة ورقة العجوز الساحر المطوية، عقارب الساعة تلتحم مع نيران الحطب، زُجاجة الخمر لم تتدحْرَج مُجددًا، أهو الحزن على مقتل صاحبها أم التجهيز لسوءةٍ أُخرى؟ وأخيرًا أنا فقَد صدق الروحاني، برغم قِصَر ما مكثت داخل شقته إلَّا أن أثَرَ شأنها على الروح عظيم، هذا اليوم هو التاسع لي من بعد مُغادرة شقته اللعينة، ولم أقدر أنا أو يحيى على الذهاب إلى العمل مرةً أُخرى، ولتسعة أيَّامٍ عجاف أحدثه ويُحدثني ستَّة مرَّات كل يوم؛ حتَّى صار الجنون دربًا، ونعم ها أنا أرى لعنة دائرة الكون تلك ومُضاعفاتها التي تُستخدم في العلوم الروحانية، أو بالأحرى السيطرة على عقول بشرٍ ضِعاف استمعوا إلى كلمات شيخٍ هو بأصله رجلٌ من رجال العقيدة؛

فصار الشريفُ ساحرًا والمؤمن كافرًا تحت أيدي البدعة، وها أنا الآن أُعاني الأمر الجلل؛ فقد فقدتُ عقلي وبدأ الهذيان يُصاحبني كل يوم، أراهم حولي يلعبون؛ فهل قمتُ بتلاوة الأذكار وأعدادها دون قصد؟! ولكن ألستُ مُبصرًا كما يدّعون؟ ها هم حولي يخرجون من بين ثنايا الحطب أرى ألوانهم الحمراء وجلودهم المسلوخة وتلك الأعين المنبثقة، الفزعة الفزعة وإلى أين المفر؟ الدهليز؟! لا بداخله الزواحف، أأحتمي بالغرفة؟ لالا مُحال بداخلها النهاية ولم يحن أوانها بعد، نعم لقد جُنِنت، العجوز أمسك قبضتي وبالتأكيد تلا تعازيمه.

هل صارت تلك النهاية ووجب فعل الأمر الذي سيوصلني إلى مسعاي الأخير؟! أظن بأنَّه قد حان الوقت، لم أشعر بنفسي سوى خالعًا الثياب أجري في الرّدهة كما المجذوب، لأفتح الباب مُتخذًا الدرج، عقلي لا يحتمل المزيد؛ فقد نضب واستُهْلِك، من أين خرجت تلك العقيدة؟ وما ذنب البشر؟ وهل ينبغي أن أكون بطلًا الآن؟! فأصيح حتَّى تصل صرخاتي أعالي السماء، نزلتُ حافيًا إلى الشارع، الذي ولطالما مقتُّه، وكانت السيدة العجوز المُختفية هي أول من رأيت؛ فبصرتُ دموعها وهي تخضب كفَّها:

- ألم أقل لك ابتعد؟ ألم آمُرك بالرحيل؟! لا طاقة لي بالمكوث؛ فسأندثر مع عقلك الذي هوى.

المزيد من الأحاجي، ألم تستكفوا بعد؟! فما هذه الحياة؟! شابٌ قتل والديه ثمَّ صار مُطالبًا بالكشف عن أخطر المُنظمات على الإطلاق، وكُنية لا يعلم عنها شيئًا، اختلطَت عورتي بأشعة الشمس ولم يسترني سوى سروالٍ قصير، لأصرخ في الخلق:

- العقيدة قادمة بالهلاك، احذروا العقيدة يا من تنتسبون إلى الإله، الخطوات تسير كما أرادوا فلننتَفِض، العقيدة قادمة بالهلاك.

تكالب القوم على شابٍ أعزل بالصيحات والصرخات، لم يرمِ السلام عليَّ أحدهم من قبل، وها هم يُحيطون بي من كل صوبٍ وحدب عند الجنون، كلمات مثل "لا حول ولا قوة إلَّا بالله، الراجل اتجنّن"، وغيره كانت جُلَّ ما تلقته أذني، وأخيرًا أذِنَ لي عقلي باستراحة جسدٍ مُطولة، حيث لا مكان لي بين البشر، بين العُقلاء كما يقولون، لأفقده إلى الأبد، ومرحبًا بعالمٍ من الجنون، وكانت وجهتي القادمة ومأواي الأخير.. "المشفى النفسي"، وهناك كان أول التلاقي بأحد الأطبَّاء العُقلاء يدعونه بـ"مُختار"، وكانت تلك نهاية رحلتي.

***

- لا تخرج يا مُحمد؛ فوالله قد استشعرت هلاك القوم.

سمع طفلٌ صغير صوت سيدة تتحدّث قلقة داخل منزلها المُرصَّع بالأخشاب، مُخاطبة رجلًا أسمر اللون حليق الذقن، ذو شاربٍ كثّ يقف مُشرئبّ العنق، يزيح نعاله رواحًا وجيئة.

- وما فائدة العيش يا زينب مع اللئام؟ هذا المقدوني "مُحمد علي" أطاح بعُصبتنا وكسَرَ شوكتنا، يقولون عنه باشا ودينه السوط، دينه التحصيل ودينه ما يهواه ويُريده، فبحق لا إله إلَّا الله لنثور عليه أبد الأبدين حتَّى تهلك الأرض ومن عليها.

رأى الصبي دموع السيدة ورباطة جأش الرجل وهو مُنبطح على فراشٍ من الصوف، ينظر لهما دون أن يعِي زمان تواجده، وهل يقصدون بكلماتهم محمد علي باشا حاكم مصر والبلاد؟

مُظاهرات جمعت المئات من حشود المصريين ذوي البشرة السمراء لموطنهم وشمسها الحارقة، "إسنا" يهتفون بأعلى صوتهم...

"لا لانحطاط الكِرام واستبداد اللئام"

كانت الجُدران مُزدانة بكلمات "السقوط"، وعام يعود إلى 1862 م، وتلك الصيحات التي تُفيد بالحقيقة، أين أسلحتنا التي واجهنا بها الغزو الفرنسي اللعين؟ فمات منَّا الآلاف فداءً للأرض والعرض، أرضنا لمَ نهجرها ولمَ صار الأجانب علينا حُكَّامًا وجبَّارين؟! فصار الصعلوك في بلادهم أميرًا، هنا تُفتَّح له الأبواب ويدهس على نفس الوطن ومُواطنيه، ألا لعنة الله على من أزهق النفوس وذلَّ الكرامة بأيادي الحكومة والاستعمار!

خرج الطفل الصغير من البيت وقد بدا على جبهته أمارات الأُفُول، ليرى بأعينٍ ناعسة مئات الأرواح في مُواجهة رجل يرتدي عمامة بيضاء كبيرة الحجم، ولن تختلف ذقنه عن ذلك الوصف، أبيض البشرة عيناه مثل الصقور، يلتفّ في عباءة فاخرة مُمسكًا بسَيفه المُغطّى بحاوٍ من الذهب، له هيبة لا تراها في سواه، وبجانبه آلاف الجنود على أهبَّة الاستعداد للامتثال لأوامره.

- التجنيد للجميع والعصا لمن عصا!

كانت تلك الكلمات مثابة مدفعٍ انطلق على إثره الجنود مثل الجراد يُشهرون سيوفهم في مواجهة الفلَّاحين وفؤوسهم؛ فكانت الغلبة لأصحاب السيوف، ولم يكتفوا فقصدوا النساء، الأطفال والكهول ومن بينهم كان بيت "محمد" الفلَّاح البسيط؛ فقد يتشارك نفس الاسم مع الحاكم، لكنه وأبدًا ما كان مثله في الخصال، يتبع الطفل الصغير الجنود في رهبةٍ وجسدٍ مرتعد؛ فيسمع محمد وهو يصيح:

- يا خونة، عليكم من الله ما تستحقون.

برباطة جأش يُدافع عن أهل بيته؛ فيضرب جُندي ويطيح بآخر، ولكن ألم يقولوا يا ولدي "الكثرة تغلب الشجاعة وإن كان الشُجاع عزيزًا"؟

ضربةٌ بالسيف تُطيح بجسد محمد إلى الخلف؛ ليقع فتكون بذلك الفُرصة مواتية للإحكام عليه من قِبل جنود السُلطان، وإن رحم الله نبيه بعدم رؤية غرق ولده "الكافر" بين أمواج الطوفان العظيم؛ فلم يرحم الجنود المُسلمون مُحمدًا ليغصبوه على رؤية زوجته المُوحِّدة وهي تُعاني الجذب والشد مُهلِّلين بالهلاك لمن يعصِي أوامر الباشا الكبير.

- اااه.

صرخة رجلٍ عاجز يرى الدماء تسيل من زوجته زينب وهي تتلو آيات القرآن والشهادة، لم تسبّهم واكتفت بتوكيل الله وهو خير وكيل، الدموع على أعين الرجال عزيزة، ولا تخرج سوى وقت الهوان والقهر؛ فلم يتحرك محمد مرةً أُخرى، صبَّ فقط جُلَّ بصره على ثلاثة من الجنود يُطاردون زوجته حتَّى الممات، ليجروه إلى الخارج؛ فيتبعهم الصغير وقد قاربت قواه على النفاد، ليرى مشهدًا يندى له الجبين، النساء والكهول مُعلَّقِين موتى، وصوت رجل العمامة البيضاء يأتي صاخبًا بلغةٍ غير عربية فهمها الصبي، ومفادها:

- الهلاك رادع لمن يأبى الخضوع، الجميع إلى التجنيد، ولا صوت يفوح بالاعتراض.

في غفلةٍ من الجنود اقترب محمد الفلَّاح من الطفل الصغير وهو مُنبثق الأعين، صوته يظهر كالفحيح ليقول مُمسكًا إيَّاه:

- سيقولون عنه الباشا، حاكم مصر الأعظم والرجل الأول صاحب تاريخ مصر الحديث، رجل العلم والجيش والصناعة، سيتباهون به ويُمجدونه على الأذهان؛ فلا تنسَ ثأرنا، واعلم أنَّه قبَّح الله عمل رجل كان على دماء شعبه وهو انه.

صرخات مدوية كانت سبيل الغضنفر الوحيد للخروج من ويلات حلمه المُزعج، كابوس سيطر على عقله وكاد أن يذوب جسده جرَّاء حبَّات العرق المُتهاطلة، يداه ترتعشان وهو يتذكّر قبضة الرجل وكلماته، عيناه حمراوان جرَّاء ما رأى من سفك الدماء، وقلبه تتسارع نبضاته مُتذكرًا مشهد الباشا صاحب العمامة البيضاء، لتمر نصف ساعة كاملة كانت في نهايتها السيطرة للفتى ذي التسعة سنوات بعدما قضى ستة أشهرٍ رفقة "حمد"، ليقول:

- لا أُصدق كيف توغّلَت كلماته عن حقيقة التاريخ داخل عقلي لأراها بتلك الشاكلة، أُريد أبي، أُريد أبي.

جاء الصباحُ ولم ترَ أعين الغضنفر النوم، ترك فراشه المُهندم ذاهبًا إلى دورة المياه ليستحم كما عوّدَه حمد خلال الأشهر الستة المُنقضية، وبعدها يُسرّح شعره مثل الأُمراء مُتخذًا الدّرَج سبيلًا إلى الطابق السُفلي حيث يجلس حمد على طاولة الطعام.

جلس الصغير بجواره؛ فيلحظ حمد التغير على جبهته:

- اشرب الحليب أولًا وبعدها ستُخبرني بما حدث معك.

يرتشف الصغير من كوب الحليب الدافئ، ثمَّ وبأيدٍ مُرتعشة يلحظها حمد، يُشير إلى رأسه قائلًا:

- كلماتك تتوغل هنا فأراها بيّنة داخل أحلامي، أعيش مع أطرافها وأشعر بما يخوضونه، لقد رأيت ذلك الرجل وزوجته تستنجد به قبل أن يردوها الوحوش قتيلة، كان مشهدًا مروعًا بحق؛ فأرجوك لقد اكتفيت، ولا أُريد سوى الرجوع إلى البيتِ مرةً أُخرى.

تعالت ضحكات حمد وهو يغمس قطعة من الخبز داخل صحن الفول بالطحينة، لينظر إلى الصغير قائلًا:

- لماذا قرَّرت المكوث معي عوضًا عن الرجوع إلى بيتك؟!

- ما فعلته مع ثلاثتنا ويقابله ما قمتَ به مع الآخرين كان موحشًا بحق، ولكنه ساهم في نضوج عقلي بنحوٍ غير مسبوق، وهو ما أعطاني القدرة على تحليل الأمور مثل كون أخواتي البنات هُنَّ السبب الرئيسي وراء خروجي إلى تلك المُظاهرات؛ فكان البُغض لي دافعًا لذلك.

صفَّق حمد مُتباهيًا بالصغير الذي قضى معه فترةً كافية استزاد بها من العلم تحت إمرته، ليصعقه وهو يردف قائلًا:

- لا تفرح كثيرًا؛ فهو أعطاني أيضًا استنتاجًا خاصًا بك، وكون حادثة مجيئنا مُدبرة ليست قدرًا.

برزت أعين حمد وأذنه تتلقى كلمات الغضنفر الجامدة، ليُكمِل:

- التوزيع على الغُرفتين لم يكُن عشوائيًا، إنَّما على اختيار مُبين، وقد ظهر ذلك في تدقيق نظرك نحو وجوهنا مُتفحصًا إيَّانا عن كثب وكأنَّما تتحقق من هويتنا، ثمَّ الكذب حول رجوعنا إلى بيوتنا؛ فأُجزِم بأنَّك أرجعت الثلاثة الذين كانوا في الغرفة المُجاورة لمعرفتك المُسبقة بذويهم، أمَّا نحن فلن تُرجعنا، إنَّما ستنتهز ما فعلتَه لنا وتُحولنا إلى مشروعٍ خاصٍ بك! وهو ما كنت تتحدث عنه طيلة تلك المُدة معي.. "العقيدة".

تصنَّم حمد محلَّه غير قادر على تصديق الكلمات الخارجة من طفل لم يبلغ العاشرة بعد، ولا يدري ما الرد المناسب على أقاويله تلك؟! ليسأله مُتهتهًا:

- كيف علمت تلك الأمور؟!

- أبي ومنذ سن الستة سنوات أخبرني عن مُنظمتكم تلك سابقًا؛ فكان نقشًا على حجر يغرِزُ المعلومات داخل عقل طفلٍ صغير بمخيَط،

وأخبرني أيضًا بكونه ثوريًا يحمل على لو ائه عاتق الخلاص، وقد انضم إلى جماعة فريدة من نوعها ذات شأن تعمل على عكس أفعالكم.

تراجع حمد بالكُرسي إلى الخلف وهو يزدرد ريقه غير مُصدق لما يسمع، يُقلِّب الأمور رأسًا على عقب ظنًّا منه بأنَّ ذلك الصغير قد خدعَه طيلة تلك المُدة، ليسأله بصوتٍ أجش:

- من يكون والدك يا صغير؟!

- والدي يُدعى "إسماعيل زين العابدين".

تمَّيز حمد بصلابته وعقليته الفريدة ،لم يندَ له جبين أو تغلبه ذكرى وحنين، ولكن ما إن فرغ الصغير من تلاوة ذلك الاسم على مسامعه حتى وقع أرضًا يدفس رأسه بين كفيه غير قادر على تصديق ما تلقّته طبلة أذنه، فهل يُعقَل صِغَر ذلك الكون؟ وكيف تجَّنب التلاقي مع صديقه في يوم عُرسه ليقع مع طفله الآن! بل ويكون سببًا رئيسيًا لمرضٍ عقلي سيُصيبه لا محالة جرَّاء ما فعل، أخذ حمد يلكمُ رأسه بالقبضات دون توقف وسط دهشة من الغضنفر، ليهرع إليه مُوقفًا إيَّاه وهو يقول:

- أنا أُحبك؛ فلا تؤذي نفسك أرجوك.

نظر حمد إلى أعين الصغير وهو يلتمس منه تذكّر وجه أبيه صديقه منذ عشرات السنين؛ ليحتضنه وتبدأ الدموع في الهطول تِباعًا حتَّى تكاثرت عليه؛ فخرج الشهيق من حنجرته غير قادر على التوقف، ولا يجد في الدموع سبيلًا لإقالته من عثرة الذنب، والغضنفر بأحضانه غير قادر على التملص منه، وهنا سمع صوت مُحرّك سيَّارة يعرفها جيدًا؛ فتسارعت نبضات قلبه لتلمع في رأسه فكرةٌ ما، ليحمل الصغير واضعًا جسده أمام أنظاره، ثم يقول:

- انظر.. لا وقت لدينا، سأُعطيك ورقةَ بحْث كبيرة الحجم، عليك بقراءتها كاملة ومُحاولة فهم ولو القليل منها ريثما أنتهي من اجتماعٍ صغير، ثمَّ سأعود بك إلى منزلك، وهناك سيُترك لك القرار، لكن فلتعدني على قراءة الورقة بإمعانٍ شديد.

هزَّ الطفل رأسه بالإيجاب وهو يلتمس في نبرات حمد الخوف، ليراه مُخرجًا سلسلة ذهبية مُعلقة على رقبته، وهي تنتهي بدائرة كبيرة الحجم نسبيًا مُزدانة بالتضاريس؛ فيُصعَق لرؤيته له يفتح الدائرة على مصرعيها؛ فينتزع من بين طيَّاتها ورقة مُطبقة يفردها أمامه حاثًّا إيَّاه على الذهاب مُسرعًا إلى الأعلى حيث تكمن غرفته؛ فيفعل الغضنفر ما أُمِرَ به، وقد تيَقَّن من أهمية الورقة بعدما رأى مخبأها بأم عينه؛ فيصعد الدرج مُسرعًا.

يضع حمد طربوشه المُزدان بالكرانيش على رأسه مُسرعًا وهو يسمع صوت طرقات قادمًا من بعيد، ليفتح الخدم له؛ فيلج رجلٌ يرتدي قُبَّعة مُميزة يبدو عليه الوقار وجماد الوجه، يسير في خُطى ثابتة إلى أن يصل الطاولة حيث يقبع حمد، الذي يقف احترامًا له ويرى شفتيه تتحركان لتُصدِر صوتًا مفاده:

- هل أتمَمْتَ المهمة؟

ابتسم حمد قائلًا:

- مرحبًا بك أولًا يا جان!

***

داخل غرفته وعلى فراشه الحريري يجلس الغضنفر حائرًا، يرجع بذاكرته إلى الخلف وشهوره الستة مع حمد الذي قضى طيلة أوقاتها في التعلم من بنات أفكاره، وكيف استنبط عناوينه عن العقيدة وما تفعله في العالم الخارجي مثلما يفعل تلميذٌ نجيب يرتدي عباءة أمام شيخه

المُوقر وسط إيوان القبلة، وهنا تشكّك في أمره؛ أيتبع عقل حمد وفطنته؟ أم ثورة أبيه وجسده الذي فناه في الحق على حد قوله؟! الحقيقة التي لا يقدر الصغير على إنكارها هو أنَّه قد أحبَّ حمد بكل جوارحه، حتَّى تناسى بيته وذويه؛ فكأنَّما كان بينهما خيطٌ خفي، هنا تسلّقَت أمارات الإرهاق على ملامحه، ليرجع بجسده إلى الخلف مُتّكئًا على الحائط يفردُ الورقة المطوية، ولا يعلم لمَ يعتريه هذا القلق؟!

"اسمي حمد، مصري المنشأ، أصولي عربية ولا أعلم أهي تمتد إلى المصرية القديمة أم أنَّني نتاج تزاوج بعض المُستوطنين بمصر كما فعل الهكسوس، دیانتي الإسلام، شغفي عالقٌ بالغرب، وقلبي مع موطني الجريح المُستبَد...

أثناء جلوسي قبل سنين مديدة داخل حلقات الذِّكر أستمع إلى الصوفية وألوانها المُهذبة للنفس نافرًا من ثورات الشعب وتأليهه لفردٍ واحدٍ يُطلقون عليه الزعيم، داهمني رجلٌ يُدعى "جان كريست" وسيطًا قَدِمَ إليَّ جرَّاء طلب أحد الجنود الإنجليز بعدما أخبره عن فطنتي وتطلعي إلى العلم، وبالأخص رجلهم الغامض "تسلا"، وسافرت إلى بلاد الغرب مُتطلّعًا إلى الحقيقة والنور مُتجاهلًا زفاف أخي وصديقي الذي وبالتأكيد لم يكن ليسمح لي بالفراق.

هناك رأيتُ الحضارة التي على وشك الانهيار، وبلاد الشمس التي لا تغيب بالقهر واستبداد حُكَّامها، ولكن كانت جميلة بحق، لأسكن غرفة خاصة برفقة اثنين آخرين؛ أحدهما مغربيٌّ والآخر بريطانيّ، وكان عددنا 666 فردًا من كافة البلدان، نتقابل فقط وقت المُحاضرات كما الطلبة، وهنا بدأت الحقيقة تنكشف وسمعتُ عن العقيدة لأول مرة.

تساءلتُ طيلة حياتي كيف صارت عقول العالم أجمع بذلك الغباء؟ لماذا نتحرك بأكملنا على وتيرَتَين؟! و أين المُتسبب الحقيقي لما آلت عليه الأمور؟!

لم أؤمن يومًا بأنَّ الماسونية هي المُحرك الرئيسي لآهات الشعوب؛ فهم قوم يؤمنون بطريقٍ واحد سيحققونه لا محالة، وعجَزَ عقلي عن تدبر الأمر، حتَّى جلست وسط تلك المُنظمة وعرفتُ كل شيء، مؤسسهم كومر وأجياله المُتتابعة، وكيف تحكّمُوا في الزمن طيلة قرون؛ فقد يخترقونك حتَّى في تو افه الأمور، وبدأ تدريبنا على القيادة واللحاق بالدرب، وهنا كانت الشوكة التي علِقَت بحلقهم، ولم يحسب كبيرهم لها حساب، فلم تكن جماعة "التنوير" وهي فرقة ظهرَت من العدم تأسّسَت على يد أحد أفراد العقيدة بعدما انفصل واستشاط غضبًا عليهم، إنَّما رجلٌ واحدٌ عَلِمَ جُلَّ الأمورو بيانها؛ فكان رمزًا لنصرة الشعب، وأراد تفعيل بُرجٍ ضخم تصل به الكهرباء المُتردّدة إلى الأرواح دون أن يتكلّف أحدهم دولارًا واحدًا، وتعجَّب لوقف المشروع بعدما أعطاه الساسة الضوء الأخضر لتنفيذه، وكانت تلك البداية لمعرفة رموز العقيدة ومسعاهم إلى حفظ المتوازنات كما يقولون، فكيف يحكمون سيطرتهم إن حدث أمرٌ عظيمٌ مثل ذاك؟!

قضى "تسلا" أذكى عُلماء القرن ما تبقَّى من حياته في صُنع دائرة يُعبر بها عن الكون، وبرغم مسعى جماعتَي العقيدة والتنوير نحو ضمِّه إليهم أبى أن يكون طرفًا بتلك النزاعات الموحشة، ونجح وبشكلٍ سرّيٍّ في التوصل إلى شكلٍ هندسي عن طريق أرقام على الحواف مثل أكواد البرامج المُعقدة إن فكَكْتَ شيفرتها!

توصّلتُ حتمًا إلى خبايا الكون، ولذلك أسماها "مصفوفة الكون" مُعبرًا بها عن العقيدة.

العالم يتمحْوَر حول أرقام، أكانت قياسات زمنية أو مكانية! وكان ذلك المبدأ الذي سار عليه "تسلا"؛ فوجد أنَّ جُلَّ الأرقام إن تضاعفت حصلنا عليها جميعًا فيما عدا ثلاثة أرقامٍ فقط، ألا وهم (3، 6، 9)، ليُكرر مُحاولته لعله يصل إلى نتيجة، ولفِهم المُضاعفات لنأخذ الرقم اثنين على

سبيل المثال.. إن قمنا بمُضاعفته فسنحصل على أربعة، وإن فعلنا ذلك مُجددًا سنحصل على ثمانية، ثمَّ ستة عشر، ثمَّ اثنان وثلاثون.. إلخ، وهنا سيكون دائمًا ناتج جمع الأرقام الخارجة من مُضاعفات ذلك الرقم بعيدًا عن تلك الأرقام الثلاث الـ(3، 6، 9)، وإن قمت بتكرار الأمر مع بقية الأرقام ستحصل على النتيجة نفسها، وهنا بدأ "تسلا" تجاربه على الأرقام المُميزة، وفوجئ بأنَّ الرقمين (3، 6) تُعطي مُضاعفاتهما نتيجة تُساوي الأرقام المميزة، ومثال ذلك إن أخذنا الرقم ثلاثة فضاعفناه سيُعطينا الرقم 6، ثمَّ إن كرَّرنا الأمر سيكون الناتج 9، وإن أعدناه سيكون الناتج 12، والتي إن أفردناها ثمَّ جمعناها، 1+2 سيُعطينا ثلاثة مرةً أُخرى، ونفس الأمر سيتكرر مع الرقم ستة؛ فنصير في دائرة مُغلقة؛ فأسماهما "تسلا" بالطاقة الحُرَّة، أمَّا سيدهم فكان الرقم تسعة؛ فهو ومُضاعفاته لا يُعطي سوى نفسه فقط، ليكون بذلك عزيزًا أبيًّا، ومثال الأمر إن ضاعفناه فسيُعطي ناتجًا 18، وإن أفردناهما سيكون 1+8 سيُساوي 9، وإن كرَّرنا الأمر سيكون الناتج 36، وجمعهما أيضًا سيخرج لنا الرقم 9، وهنا كان العنوان الآخر لـ"تسلا"، وسَمَّى الرقم "رقم التنوير".

شرع العالم في رسم دائرته التي ستغدو فيما بعد ميثاقًا وعهدًا يسير على دربه الأكثرون، وعَلِمَت العقيدة بالأمر؛ فاستطاعوا التوصل إلى نموذجه الأخير وكان كالآتي.. رسم دائرة مُنتظمة واضعًا الرقم تسعة على رأسها، وقواعدها الرقم ثلاثة وستة، ثمَّ رسم الأرقام الباقية من الواحد على الميمنة، وبترتيبٍ تصاعدي إلى أن انتهى وأتت الخطوة الثانية، ضاعَف الرقم (1) فأعطاه (2)؛ ليمد خطًا بينهما، ثمَّ ضاعف (2)؛ فأعطاه (4)، ليفعل المثل ويصل بينهما بخطٍ آخر، ويُكرر فعلته مع بقية الأرقام حتى وصل بينهما أجمع، فيما عدا الثلاثة أرقام المُميزة، والتي لا تُعطي سوى نفسها، وصل بينهم بنقاط غير مُتصلة، وأخرج إلى العالم دائرته الملعونة تلك!

علمَت العقيدة بأمرها كما ذكرتُ؛ فاستطاع أحد أفرادها الولوج إلى غرفته وسرقة بعض أبحاثه، بل والحصول على مُجسّم الدائرة، ليبدأ عُلماؤهم في تحليلها ومعرفة أسرارها الكامنة، والتي ومن بينها استخرجوا أنماطًا موسيقية يقدِرُون من خلالها السيطرة على عقول البشر، فقط بمُجرد أرقام يصحبها ترددات تُحضر النفس البشرية كما تفعل الطلاسم بالجان، وحتَّى الجان استخدموا مُضاعفات الأرقام الكُبرى في الحصول على أعدادٍ أطلَقُوا بها مجموعات من السحرة ليتعلّموا أولًا داخل دور العبادة منذ الصِغر، ثمَّ يستغلونها خالطين إيَّاها بالروحانيات والصوفية التي طالما عشقتها؛ فدنّسُوها لينشروا البِدَع، وتطاولوا على أسماء الله الحُسنى فجعلوا القوم يُرتلون المُضاعفات تحت مُسمّى الدين؛ فساهم ذلك في السيطرة على المزيد من الأرواح، ولا أحد يعلم حقيقة دائرة تسلا!

مشارف حياة العالم الجليل قد حانَت، وهنا لم تعرف المُنظمتان العقيدة كانت أو التنوير بشأن السر الذي ظفر به صديقا "تسلا" المُقرّبان عن الدائرة، لتنشأ جماعة أُخرى أكثر عنفوانًا من القوم تُدعَى "المُبصرون"!

انتهَت حياة وبدأت حيواتٍ أُخر، حيث حان دوري بعدما أدركتُ عاقبة الأمور وما تؤول إليه مبادئ العقيدة، وكيف كان الغرب محض أكذوبة مثل بعض المستنصرين العرب، لا يحيدون عنهم في شيء، والبعض يتحكم بنا، وهنا قابلت أحد الصديقين الذي حصل على سر "تسلا"، وبدأ في تشكيل جماعته، وبعد رؤيته لكينونتي وبُغضي الخفي نحو العقيدة رأى فيّ أساسًا لتأسيس الجماعة والظفر بكل شيء، وأعطاني السر الذي وبه يقدر المرء على التحكم في الأرواح فقط باتّبَاع تسلسلٍ ما، وتكرارٍ لن يُدركه العقل سوى وهو مُسيطَرٌ عليه في الأخير، أمرٌ أشبه بالخيال، لكنَّه حدث، ولكن كانت للمُبصرين عاقبة! ألا وهي وجوب فقدان العقل، ولأكون أكثر دقة أن يكون لهم ماضٍ مُظلم يؤُهلهم

لاستخدام الشيفرة ورؤية الأسلاف بعقلٍ غير عقول البشر، عقلٌ قد جُنَّ بحق، و انطبقت عليَّ الشروط؛ فلي سوءةٌ في الماضي لا أقدر على طرحها!

اختطفَت العقيدة "تسلا" قبل مماته، وأجبروه على البوح بالحقيقة، ليحرِق قلوبهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بإخبارهم أنَّ هنالك سرًّا يقدِرُ على التحكم في الجميع، وقد باح به إلى رجلين لن يكتشفوا أمرهم أبد الأبدين، بل وسيخلقُون مُنظّمَة قادرة على الإطاحة بالعقيدة عن بكرة أبيها، وبذلك أدركوا خطورة ما آلت إليه الأمور، وبتهديدٍ صريح يتعدَّى ذاك الذي شكلته جماعة التنوير بمئات المرَّات.

من بداية سن التاسعة وهو كبير الأرقام، يجب على المُبصِر أن يُدرِك عثرات التاريخ وزيف من كتبه، أن يكون ذا أبعادٍ نفسية لم يمُرّ بها سوى ندرةٍ من البشر، وأن يحظَى بجميع العلوم؛ فلا يخرج أمرًا عن يده، ولكن الحذر كُل الحذر أن يفقد المُبصر صوابه فلا يتذكر من يكون، ويضيع أدراج الرياح.

هذا خطابي وتلك كلماتي؛ فأنا المُبصِر "حمد"، ومن سيقرأ خطابي سيؤول إليه الإرث من بعدي، وسأحكي له الطريقة وتسلسلها، وبها سنقبض على الأرواح".

الأعين المُنبثقة، الأنفاس المُتضاربة والقلب الذي ارتجَّ يُريد الخلاص، كانت تلك سمات الغضنفر الذي أدرك بعض الكلمات، وتوغل إلى عقله أحداثٌ تُصيب الجسد بالشيب وهو رضيع، انتفَضَ مذعورًا؛ فترك فراشه مُترجلًا مُتخذًا الدرج إلى الأسفل، يُريد أن يتحدث مع حمد، وهنا كانت مرَّته الأولى لرؤية رفيقه يُحادث رجلًا به من السطوة على النفس ما يندى له الجبين، فلم يقدر على النظر نحو عينيه؛ ليستتر مُستمعًا إلى نهاية حديثهما...

- إذًا لقد أتمَمْتَ الأمر وخلقت جيلًا قادرًا على مُحاباة العصر والعمل كما البيادق.

- نعم قد فعلت.

- مُذ قابلتُكَ ذلك النهار داخل الصرح الديني وأخبرني عقلي بكونِكَ الأمهر والأحق، ولكن ما زال الشك يُراوضني تجاهك يا حمد، واليقين داخلي يستزيد عن معرفتك بالسر الذي خبَّأه "تسلا" عنَّا.

بأعينٍ تترقب كالصقر لمح الغضنفر حمد وهو يزدرد ريقه، ثمَّ يصطنع ابتسامة تخرج عبرها كلماته:

- يا ليتني علمت فأنقذت العقيدة من شرٍ قد اقترب.

حالة من الصمت سادت الطرفين، ليختتم جان حديثه برفع قُبعته لأعلى سنتيمترات قليلة، ومعها عينيه؛ فخفق قلب الغضنفر لشعوره بكونه مُر اقبٌ منها، يكاد ينخلع قلبه من محلِّه، فمن هذا الرجل؟!

- وداعًا يا حمد، لعله اللقاء الأخير.

يُغادر جان المنزل تاركًا حمد واجمًا؛ فيهرع الصغير إليه مُتخذًا الدرج، وما لبث أن رآه حمد حتَّى أمره بالاستعداد للرحيل؛ فقد آن ميعاد رجوعه إلى أبيه أخيرًا بعد طيلة ذلك الوقت.

داخل سيَّارته ذات السقف المفتوح والتي يقودها حمد مُسرعًا، بدأ الصغير في التفكير بتعابير وجه مُعلّمِه التي لم يره بمثلها من قبل، ليبدأ طرح سؤاله الذي يُعبِّر عمَّا شعر به:

- من يكون ذلك الرجل الغريب؟

لم يردّ حمد، إنَّما اكتفى بالتحليق إلى الطريق خشية أن يصطدم بأحدهم، وما زال الغضنفر مُصِرًّا على تكرار سؤاله، ولكن دون جدوى ليستخدم عقله؛ فيهجم مُجددًا:

- كيف تنتظر مني أن أصير من المُبصرين وأنت تُعيقُني عن معرفة التاريخ والأشخاص؟!

ابتسم حمد هنا مُتحدثًا:

- أراني في حديثك، فيا لعقلك الذكي! لا تقلق سأُخبرك عنه حتمًا.

- حسنًا سأكف عنه، ولكن لي سؤال، كيف سأصير من المُبصرين ولم أرتكِب جريمةً شنعاء كما ذكرت في خطابك؟

- لا أدري، ولا تسألني لماذا أو كيف أعطيتُ الورقة إليك؟! راودني ذلك الحدس ففعلت امتثالًا له، قد لا تكون من المُبصرين يا صغير، ويكفيني منك المعرفة؛ فلا أُريدك أن تغدُو كما قُرنائك في الغرفة.

ها هي السيَّارة تشق طريقها نحو منزل إسماعيل الذي يتذكر عنوانه حمد جيدًا، يعلم تفاصيل وجهته وطابقيه الاثنين والماضي السحيق مُخترقًا الشوارع الضيقة حتَّى مُبتغاه، يدقّ قلبه غير قادر على المُواجهة، أيُعقل أن يكون أول لقاء "صديقٌ حرَمَ الأب من ولده شهور!".

وصل حمد منزل الحاج إسماعيل؛ فترَجَّل عن سيارته رفقة الصغير، وبُمجرد النزول يصيح الجمع المُترقب:

- الغضنفر قد عاد يا رجال.

حالة من الهرج والمرج لم يحسِب لها حمد حسبانًا، لتصل الصيحات مسامع المنزل المُقابل حيث أخوة الغضنفر لا يُصدقن آذانهن، فهل عاد أخوهم بحق؟!

انتشر خبر رجوعه كالنار في الهشيم، وبالطبع طالت شُعلاتها المنزل، حيث سمعت الأم بالمجيء والرجوع؛ فهرعت إلى الخارج مُتناسية حجابها تحتضن ابنها الصغير، تُقبّلُه أعلى رأسه وحتَّى أخمص قدميه، نعم قلب الأم يُنسيها عقلها وتحكماته.

ولجَ حمد رفقة أهل البيت إلى الداخل وسط ترحابٍ عظيم، مُعتقدين كونه المُنقذ الذي ظفر بولدهم، سار الغضنفر مُرتابًا؛ فبرغم انقطاعه عن المنزل لفترةٍ ليست بالطويلة إلَّا أنَّه شعر بكونه غريبًا، وخصوصًا وقتما رأى أخواته البنات وهُنَّ مُغرورقات بالدمع؛ فهل ذلك ندمٌ على ما اقترفته أيديهم أم فطنة لعدم تفرقة الوالد بينهم وما فعلوه هو سبيل الشيطان في الأنفس؟! أراد أن يفتك بهنّ؛ فردَّه عقله الرزين وقلبه الذي امتنع ولو بشكلٍ مؤقت عن اكتساب تلك القسوة المُفرطة، وما بين حديث الجميع عن اختفائه وأين كان طيلة تلك الفترة تذكَّر الصبي روحًا هي الأثمن له.

- والدي، أين هو؟!

- في الأعلى يا صغيري؛ فمُذ رحلت عنَّا وهو لا يُفارق فراشه، قد أفَل جسده واضمحل، لتصعد إليه رفقتي؛ فوالله ليكونَنّ نبأً عظيمًا، ولتخبرني أين كنت وماذا حلَّ بك.

هنا تدَّخل حمد:

- عذرًا فلتتركيني أصعد أنا معه؛ فالحاج إسماعيل صديقٌ قديم ووجب لقاؤه، وما أسعد الذكرى إن طالت حدثًا مُبهجًا معها؛ فتقوى وتشتد.

ابتسمت الزوجة وصارت تُهلّل وتدعو تاركة ولدها يصعد رفقة الرجل الغريب، ولم تعلم بأنَّ قرارًا قد يبدو بسيطًا مثل رفرفة أجنحة فراشة قادرًا على إحداث إعصار سيطول الجميع خلال سنوات.

الأرجل تتخذ الدرجات دربًا لها مُتثاقلة نحو غرفة يعرفها حمد جيدًا، ثوانٍ قليلة تفصله عن رؤية رفيق دربه، فهل سيتذكره؟

ينفذان من باب الشقة، ثمَّ يتجهان صوب الغرفة التي يقطنها إسماعيل، طرقات مُتزنة على الباب يسمع الاثنان عبرها صوته الجاف يقول:

- لا أُريد شيئًا، اتركوني وحيدًا.

يفتح الغضنفر الباب؛ فيرى والده قعيدًا على الفراش يرتدي جلبابًا وغطاء رأس؛ فيهرع إليه باكيًا:

- أبي، أبي.

ينتفض إسماعيل من محلَّه لا يُصدق أذنَيه بلسان حال "أهو سراب الضال في الصحراء أم الشيب قد أفقده عقله؟!"، يعتدل في جلسته ليُبصِر طفله الصغير يقف أمامه بخير صحةٍ وحال، يفركُ عينيه ثمَّ يرتدي عويناته فلا يتغير شيء، إذًا لم يكن ذلك سرابًا؛ فينقض عليه كما اللبؤة نحو الغزال يفترسه بالقُبلات والأحضان "ولـــــــدي"؛ فيسيل لعابه يشهق وقد أسبلت عيناه، "ولـدي" فيصرخ متأوّهًا يضم ضلوعه بقوة ساعديه؛ فيحجب قلبه عن الانبثاق.

- حبيبي أنت، حمدًا لله، ظننتُ بأنَّك راحلٌ فلا أجد لك سبيلًا، كدتُ أموت اختناقًا؛ فليس لي سواك.

- أبي، أنا هنا بجانبك.

عُرِفَ إسماعيل قويًّا شديد البأس، والآن حذا حذو طفلٍ فقَدَ لعبته؛ فنضب واستثار.

الدقائق تمضي وإسماعيل ما زال جامدًا ينظر إلى وجه طفله الصغير لا يأبه، أو بالأحرى لا يشعر بوجود حمد داخل الغرفة، يتفحصُه من حينٍ

إلى آخر وعيناه مغرورقتان بالدمع، وها هو الصوت يأتي خافتًا يُنبّه عقله المنكفِئ على الطفل فقط،

- السلام عليك يا إسماعيل.

رعشةٌ مسَّت جسد الأب المكلوم، سكونٌ وحيرة، نظرةٌ إلى الأعلى وعقل يُجبِر الصوت على الخروج.

- أعرف ذلك الصوت جيدًا.

يقف إسماعيل مُزيحًا ولدَه جانبًا وهو يُدقق النظر نحو مصدر الصوت الذي استرعى انتباهه، برزَت عيناه إلى الخارج حتَّى كادت تخترق العوينات، ازدرد ريقه الجاف:

- حمد!

أطلق حمد العنان إلى ذراعيه والدمع يعصف به.

- نعم يا صديقي، هذا أنا.

"الشوق" كلمةٌ مفادها السنوات، انتظرها الرجل صاحب الطربوش المُزدان بالنقوش أن يلتقَّف صديقه بعد غياب لم تلتقِ روحهما سويًا، أن يحتضنَه ويجهشان بالبكاء والنحيب، انتظر الكثير والكثير؛ فحدث ما لم يهتدِ إليه عقله.

- إذًا أنت من اختطف ولدي!

شهق الغضنفر وتصنَّم حمد محلَّه لا يقدر على البوحِ، ويعجز لسانه عن التحرك داخل تجويفه، يعصف به عقله "كيف عَلِم؟!"، تزايدت نبضات القلب؛ فأجبرته على اصطناع ابتسامة مُزيفة:

- خطف ولدك أنت!

مطَّ إسماعيل شفتيه وسط ترقب من حوله، ليتحرك ناحية الكومود وهو يقول:

- غادرت منذ سنواتٍ مديدة، دعوتُكَ بأخي فلم تُعِر انتباهًا لحضور العرس، وها أنت ذا تظهر أمامي فاردًا ذراعيك تنتظر العناق، دائمًا ما نظرتُ إليك بأعين يشملها الإجلال نحو شخصك، فلم تكن صديقي فقط، بل قدوتي لعقلك الحكيم، تباهَيتُ بك بين الأقران وصحتُ كثيرًا "صديقي هو حمد"، وها أنت ذا تظهر أمامي تذرف الدمع منتظر الاشتياق، لم أصدّق غيابَكَ وبحثتُ عنك بالشوارع والميادين أزور المشفى والكراكون لعلي أعثر على كاهلك، فلم أقدر، بل قل سعيتُ نحو السراب، وها أنت ذا تقف أمامي متشنج الأطراف تنتظر عودة الماضي، أتعلم ألَمَ الحبيب إن فارق من عشِقَه القلب يومًا؟ كنتَ أنت الصديق بمكانة المعشوق، وتجاوزُكَ أشبه بالمُحال، حتَّى لاح لي أُفقٌ جديد حيث استزدت من الثورات والصيحات؛ فالتهبَت الحناجر وانشقَّ الجسد، وعلمتُ بأنَّ موتي قريب؛ فتداركني الله برحماته وفتح لي بابًا يدعو إلى المُحاربة حيث غفل الجاهلون عن الحقيقة.

هنا صمت إسماعيل وقد أخرج من الدرج أداةً ما لم يقدر الغضنفر على رؤيتها، وكانت أعين حمد تنظر إلى الأسفل غير قادرة على المُواجهة؛ فيا له من صديقٍ فاتر القلب يستحق الازدراء! استدار إسماعيل ناحيته وأخذ يجر نعاله تجاهه حتَّى فصل بينهما مترٌ واحدٌ، اعتلى فيها رائحة أنفاس إسماعيل الكريهة الشرهة للتبغ، وهو ما دفع حمد لرفع حاجبيه ورؤية صديقه بالموازاة مع صوته الذي قال بصوتٍ ثابتٍ رنَّان:

- مات والدك في ظروفٍ غامضة وأنت بعُمرٍ صغير، مات من كان يُعذّبك ليل نهار لتحفظ تاريخ بلدك المجيد وزُعمائها الذين قاتلوا

وخلفهم الشعوب، ألذلك كَبُرتَ كارهًا لما يُدعَى قادة الثورات أم أنَّ هنالك سرًا خفيًا لا يعلمه أحد؟!

استشاط حمد هادئ الطبع رزين النفس، وأخذ يصيح:

- لتصمت يا إسماعيل، لا شأن لك، وعقلي هو من يُحركني فقط لا جماعات، ونعم تبًا لزعمائكم ولتلك الضلالة التي ما زالت نفسك قابعة بداخلها تأبى الخروج.

اندهش حمد من ردة فعل صديقه الذي يعرفه بعصبيّته المُفرطة، فما رأى منه سوى ابتسامةٍ وسكون، ثمَّ حديثٍ خافت:

- الحقيقة يا حمد، الباب الذي فُتِحَ لي كان جماعة "التنوير"، هي من أخرجت تلك النفس، و أنت كنت الرجل الأول على القائمة داخل مصر.

نزلت كلمات إسماعيل على كاهل حمد كما الصاعقة، الْتصَقَت قدماه بالأرض وعجز عن الحراك، كما اللسان توقّفَ وخارت أعصابه كمن نغس مخه بمخيط، وقبل أن يتفوّه ببنت شفة لمح لونًا فضّيًا يتحرك على ضوء الشمس، ثمَّ سائل أحمر رفيع ينبثق من جسده، وصوت الغضنفر يصيح:

- لاااااا، أبي أرجوك.

رقبت أعين الغضنفر سكين والده وهو يمر على بطن حمد؛ فيهتكها مُخرجًا خيطًا أحمر اللون كما طربوشه الذي على الرأس، رأى والده وهو جامدٌ كما لم يعتد من قبل، وحمد قد خارت قواه وأصبح جسده آفلًا؛ ليقع على الأرض ودموعه تهطل بغزارةٍ مُفرطة، "الرحمة" كانت تلك كلمات حمد إلى صديقه الذي وقف بأعينٍ امتلأت بالحقد.

- أنت من العقيدة، أنتم من تُدنّسون بياض ثوب هذا الوطن، ووجب القصاص.

أغمض حمد عينيه وقال:

- لا فائدة من الشرح، فلتقتصّ مني يا إسماعيل.

انقضَّ الغضنفر على أبيه:

- انتظر، حمد ليس كما تظن.

دفعه والده جانبًا ليصطدم رأسه بالدولاب، ويتوجه بجسده نحو حمد المُلقى طريحًا ويسمعه يقول:

- قضيتُ من حياتي عددًا من السنين لا بأس به، وإنَّه لشرفٌ لي أن تكون نهايتي على يديك، افعلها يا صديقي وانتصر لجماعتك المزعومة تلك.

أغمض حمد عينيه فلم يرَ تلك القطرات الفضّيّة وهي تتلألأ على أعين صديقه؛ ليزفر نفَسًا قضى به بعض الوقت، ثمَّ مدَّ ذراعًا قاصدًا إسكان السكين غائرًا داخل صدره، ثوانٍ معدودة كانت كافية لمشهد النهاية.

بركة من الدماء تتشكل، روحٌ تم زهقُها وملك الموت هائمٌ في الأرجاء، أيقبض روحًا أُخرى أم يكتفي بتلك التي حصدها اليوم؟! أنفاسٌ تتصاعد ودماء تلطّخَت بها الكفوف، حمد يشعر بالسكين وانتهاء رسالته، لكنه يسمع صوت أنين مزمجر تقشعر له الأبدان، يفتح عينه اليُمنى فيُبصِر ما تشرئب له الأعناق، جسد صديقه إسماعيل مُلقى جواره قد اخترقه من الخلف سكينٌ آخر أكثر حدة، وخلفه صغيره الغضنفر يُمسِك بها وقد امتلأ كاهله بالدماء، ما زال يُزمجر بأعينه المنبثقة ووالده يلفظ أنفاسه الأخيرة، يهرعُ نحوه حمد لا يُصدق، فيحتضنه باكيًا:

- صديقي، أرجوك لا تمت؛ فلتأخذ روحي يا ملك الموت، أنا من يستحق حُكم الله فلا تُخطئ الهدف!

يرفع إسماعيل سبَابته بصعوبةٍ بالغة واضعًا إيَّاها على شفاه حمد:

- لا تقنط فتخرج من دين الله، أنت من ستُكمِل العيش كونك الأكثر ذكاءً وفطنة، احفَظ ولدي ولا تدع مكروهًا يُصيبُه؛ فقد أسميته "حمد".

يلفظ إسماعيل أنفاسه الأخيرة تاركًا صيحات لا تنضَب وأنفاس قاربت على الركود، لا يُصدق عقل حمد ما سمع، ينظر نحو الغضنفر الذي يعجز عن الحراك، قد شُلَّ فمه وربَّما امتدَّ لذراعه، ما زال يُزمجر يزمّ فكيه عن البوحِ والبُكاء، يُحدق به ليقول:

- لماذا فعلتها؟!

يعجز الغضنفر عن الرد أو النظر إليه، كانت الزمجرة جُلَّ ما قدر عليه جسده يواري بها سوءته.

لم يكن الوقت في صالح أحد، وحمد يُفكر في الصغير الذي أعطاه والده نفس كُنيته، سيُنقذه مهما كلَّفه الأمر ولن يمسَّه مكروه؛ فتلك وصية الصديق وقسم لن يحنث به.

نهض حمد سريعًا لينتزع السكين من جسد صديقه وهو يقول:

- سأضربك لكمةً موجعة تُفقِدُك وعيك، ومن الآن سيؤول إرثي إليك، ستلحق الجريمة بي؛ فلتحْفَظ ذلك جيدًا وسألقاك بعد ثلاثة أسابيع في نفس المنزل، أنت تعلم عنوانه جيدًا، سأنتظرك وأعدك بأنَّني سأُعطيك كل شيء؛ فتكون مثل أولادي أخًا صغيرًا لهم، وستمتلك أنت فقط كنوز الأرض مادةً وعلمًا.

فرغَ حمد ممَّا يفعل، ليتوجه ناحية الصغير، وقبل أن يلكمه رأى وجهه المقشعر ينظر إليه قائلًا:

- هل صرتُ من المبصرين الآن؟!

رنا حمد ببصره ناحية صديقه وقد أسبلَت عيناه بالدمع، لحظات من السكون، ثمَّ لكمةٌ وسوادٌ قاتم...

"أجل"!

***

- هذا الرجل قد مات اليوم!

كانت تلك البداية الحقيقية لمُختار الطبيب النفسي ذائع الصيت ليظفر بجُلِّ ما تحمله نفس وحيد من صراعات، وكانت تلك خطوته الثالثة والأخيرة وها هي تتحقق؛ فلم يأبه مُختار بالرجل الثمانينيّ المُجاور لهما، بل ارتكزَت حواسه عمَّا سيُخبره وحيد، أكان ماضٍ مُزدان بالشقاء أو حاضر يستمر في مُطاردته؟! وحدث الأمر...

ساعاتٌ من ازدراد الريق الجافّ، مطّ الشفاه، الصيحات ورُبَّما النحيب وسط تعرق مُختار وثِقَل الشأن، استطاع أخيرًا معرفة الحقيقة بعدما أخبره وحيد عن بدايته مُذ قابل صفاء، عمّته وعنفوانها، علياء فتاة الغموض الأكبر، الخيط الأسود وما يفعل به، وصديقه يحيى رفيق الزيارة الأخيرة نحو رجل الأسحار، ومع نهاية الكلمات أفل جسد وحيد؛ فتراخت أعصابه وصار يهذي كما المجذوب:

- أُريد الخروج من هنا، أُريد إكمال رحلتي والوصول إلى الخلاص.

عقل مُختار يربط الخيوط سويًّا، وبرغم سطوتها إلَّا أنَّه استطاع الوصول إلى الحقيقة، ومعرفة مرض وحيد الحقيقي، ليقف مُرتعدًا وبأعين منبثقة:

- لا أصدق، أحقًا توجد تلك الحالة بمصر!

أمسك بمعصم وحيد ليجره معه نحو وجهةٍ ما وسط ذهول المُمرّضين، وقد يمتد إلى المرضى القابعين بالحديقة، يتوجَّع وحيد صائحًا؛ فلا يأبه له مختار، فقط يقول:

- سأُثبت لك كونك المريض الأكثر تعقيدًا هنا.

يهرع مُختار إلى أحد الأبنية وخلفه وحيد يُزمجر مُتأفّفًا:

- أقسم لك بأنَّ ما أخبرتُك به هو الحقيقة، لماذا لا تُصدقني وتعتقد فيّ الجنون؟!

لا يرد الطبيب، فقط يكتفي بالإسراع نحو وجهته، يتَّخذ الدرج نحو الطابق الثالث، وهنا وبُمجرد الوصول يوقفه وحيد صارخًا!

يتجمد مُختار محلَّه ودون أن يستدير يقول:

- داخل الغرفة رقم تسعة ستكتشف الحقيقة.

تتضاءل النبضات؛ فيشعر وحيد برعشةٍ خفية يتبع على إثرها خطوات الطبيب، إلى أن يفتح باب الغُرفة المقصودة، وعبر الضوء النافذ من الخارج يسمع صوت مُختار ثابتًا:

- ألا تعرف هذا الرجل؟!

تحوّل نظر وحيد إلى الفراش ليُركز بصره نحو الجسد القابع أعلاه؛ فيُصعَق لا يدري كيف حدث ذلك؟! أهو يحلم أم أنَّه يعيش و اقعه الفعلي، ترتجف شفتاه وهي تقول:

- يحـــيى!

انكفأ على رُكبتيه وصوت الطبيب يُجهز على ما تبقَّى من عقله:

- الغرفة رقم تسعة وهو رقم قصتك الأبرز، الصديق الوفيّ، فكيف حدث ذلك وهو لم يُغادر المشفى طيلة سنوات؟! حتَّى علياء أُجزِم كونها

إحدى طاقم المُمرضات الحسناوات والتي أجبرك عقلك على إقامة روايات معها إن لم تكن هي خيطُك الأسود الحقيقي يا وحيد.

ما زال وحيد يُزمجر خاضبًا كفّه مُتواليًا وهو يتذكر جُملة الزيارة الأولى للرجل العجوز..

"من الغرفة إلى البوتقة"!

تنشط ومضات عقله مُجددًا لتُريه جسده قابعًا على فراشٍ نظيف وسط حفنة من فاقدي العقول، ثمَّ معرفته للدكتور مُختار ودخوله البوتقة بعدما رفض أن يستجيب إلى الحقيقة والتحدث بما اصطنعته مُخيلته، هنا خرج الخيط الأسود ولاحظ الطبيب تشنّجه؛ فهرع نحوه مُخرجًا حقنة مُخدرة يحتفظ بها معه لحالات الطوارئ؛ فيدسها في رقبته ليمتد جسده طريحًا على الأرض، وصوت مُختار يدنو من مسامعه:

- أنت مريض بـ "مُلازمة كوتار" يا وحيد.

بعد ثلاثة أيَّام من تلك الواقعة وبعد تحري الحقائق، على كُرسي مكتبه الأنيق يجلس الطبيب وحيدًا داخل غرفة الأطبَّاء، يشرع في كتابة الملف الخاص بحالته المُستعصية؛ فأخيرًا قد ظفر بالتشخيص ووجب العلاج..

"وحيد سعد حمد الدين"

حالة نادرة لم أعهَد بمثلها من قبل، كان ضحيّة العُنف الأُسري والسعي إلى جماعةٍ مشبوهة لا أصل لها، توارثَ أسلافه الأمر فصار طفلًا مُشوهًا بألاعيب جدِّه الأكبر، بدأ مرضه النفسي في سنٍ مُبكر وهو في التاسعة، ولسوء حظه فقَدَ والديه في حادثةٍ شنعاء كانت بسبب مُجرمٍ قُبِضَ عليه حينها، وهو سارق يُدعى "سعيد الجندي" وحُكِمَ عليه بالإعدام شنقًا، كانت تلك الفاجعة السبب الرئيسي في ارتكاز المرض

النفسي على عقل وحيد ليُصاب بالفصام أولًا، ومن ثمَّ تتعقد الأمور لوفاة جدِّه داخل مبنى بعد أن احترقت الشقَّة التي قصَدَها، هنا تفاقمت الأمور وخرج نوعٌ جديد من الأمراض العقلية وأشدهم خطورة يُدعى "مُتلازمة كوتار"، قليلون من أصابهم ونُدرة من نجوا منه؛ فهو ناتج تطور مرض الفصام أو الإسكيزوداخله يشعر المريض كونه ميتًّا لا روح داخله، فينقسم عقله ما بين عيش الحياة الحقيقية بطبيعته وبين رؤية الأموات، بل والحديث معهم، الشعور بكون بعض أطراف جسده قد انفصلَت عنه وقد تصل إلى اختراق جسده بيديه؛ ليتيقّن من كونه فارغًا دون روح، ميتٌ يسير بعقلٍ ما زالت الحياة تنعم عليه؛ لذا يلزم دراسة حالته جيدًا، بل ووضعها محل الأسرار الكُبرى لنا والعمل على ترتيب بروتوكول علاجيّ مُكثَّف؛ فتلك الحالات محل أنظار العالم أجمع، فتلك المُتلازمة وكما ذكرتُ قليلة الحدوث شديدة الفتك.

د/ مُختار محمود إسماعيل حمد الدين.

صوت طرقات مفزعة انتفض لها الطبيب، ومصدر صوت يقول:

- لقد شنق عجوزٌ آخر نفسه اليوم وبجانبه ورقة "جريمة قتل"!

***

11 سبتمبر عام 2022 م، الساعة الثالثة عصرًا..

صرخات تعلو عنان السماء تعود إلى سيدة عجوز بعدما اقتحَمَ ابنها شقة أحد جيرانها؛ ليجداه مقتولًا يسبح داخل بِركَةٍ من الدماء، تهافَت الأقدام رواحًا وجيئة يتبيّنُون مصدر تلك الصرخات وسببها، وبعد ساعتين كاملتين يرن صوت سيَّارات الشرطة مُعلنة القدوم لتبَيّن الجريمة وكشف مُرتكبها وسط ذلك الحي الراقي؛ فيُفسِح الجميع لبدلةٍ سوداء تحمل على أكتافها نسرًا يُريد إلصاق نجمةٍ بجانبه.

يتوجه على الفور بعد فحص مسرح الجريمة نحو أول من رأى الجُثَّة؛ فيصل إلى العجوز التي لم تبرَح مكانها بعدما أفَل جسدها وارتخت أعصابها المُهترئة؛ فيسألها الضابط:

- لا تجزعي يا سيدتي، أخبريني فقط ما رأيتِ؟

عَلِمَ الضابط بأنَّ شقَّة الضحية مُجاورة للعجوز، وفي الصباح سمعت تحركات مُقلقة داخلها؛ فقررت وبعد ساعتين أن تزوره فترى ماذا يصنع معه؟ وبدهاء الزمن اقتربَت من الباب واضعة أذنيها عليه؛ فصُعقتُ لسماعها صوته ضعيفًا يقول "النجدة".

فزعَت بالطبع وقررت الطرق على بابه؛ فلم يفتح، لتذهب مُسرعة توقظ ولدها من غفوته وأجبرته على كسر الباب؛ ليروا أمامهم جُثّةً هامدة قد اخترق قلبها سكينٌ في مشهدٍ لم تقدر على تحمله.

امتلأت عينا العجوز بالدمع والضابط يُهدئ من روعها؛ ليُقرر المُغادرة والكشف عن الجُثة ومحل وقوع الجريمة، وقُبيل مُغادرته اخترق صوتها الواهن أُذنه وهي تقول:

- أرجوك، لا تُفلِت قاتل الطبيب مُختار من بين يديك!

اتَّجه الضابط نحو مسرح الجريمة مرةً أُخرى، وبُمجرد رؤية الجُثَّة أتاه صوت أحد السُكَّان قائلًا:

- وجدنا هذه الورقة بالقرب منه.

أخذها الضابط في ريبة ليقوم بفتحها ورؤية فحواها:

"هل تُبيح الضرورات المحظورات؟!"

***

11 سبتمبر2022 م، الساعة السادسة مساءً...

يرن الهاتف وكنتُ أنا المُتصل، وعلى الناحية الأُخرى صوتها الحنون ينغس القلب بمخيط يقول:

- وحيد، لا أصدق هذا أنت! أين كنت طيلة تلك الشهور؟ واعتقدتُ بأنَّ مكروهًا قد حدث لك، اتَّصلتُ بك مرارًا.

- علياء، أُريد مقابلتك.

جاء صوتي ثابتًا يخلو من المشاعر؛ فجزعَت له علياء واضطربت، وقد اتَّضح ذلك في صوتها غير قادرة على فهم مُستحدثات الأمور، لتسأل عن مكان اللقاء وميعاده؛ فكانت النهاية كما البداية جامدة:

- الساعة السادسة والنصف حيث جمعَنا القدر لأول مرةٍ سويًا.

كنتُ أول الواصلين إلى مكان عملي القديم بعدما قضيتُ داخل المشفى شهورًا من العلاج المُكثَّف على يد الطبيب مُختار، عَلِمَ فيها جُلَّ أمري ومُهاترات العقيدة وغيرها من الأمور، عانَيتُ الأمرَّين لتجاوز مرض تلك المُتلازمة اللعينة، فكنتُ طيلة تلك السنوات أعيشُ بالحياة والموت، أرى أُناسًا مُستيقظًا وأُحدِّث آخرين ميّتًا، ظنًّا بفقدان أحد أعضائي الداخلية، رُبَّما! فأنا لا أهذي، قد كُنت ميتًا بحق، وما فعلتُه في الماضي القريب عندما سكنتُ داخل العظَّامة في القبر خيرُ دليل؛ فقد رأت علياء ما اقترفتُ في حق نفسي وما اقترفه العالم بي، ما بين الحياة والموت خيطٌ سنراه جميعًا مرّتَين؛ أحدهما مُسبب والآخر نتيجة حيث لا ينفع الندم.

تأخّرَت علياء؛ فتلك عادتها التضاد، تُظهِر الجزع والرفق ثمَّ تفعل العكس وتكون أكثر صلابة، ولم آبه حقًّا! فقط أردتُ رؤيتها ثمَّ يذهب العالم إلى الجحيم، أو قد ذهب بالفعل، وأخيرًا ها هي تُطِلّ بوجهها

الحسن، وجنتاها الحمراوتان وعيناها الناعستان، ونعم قد اعتقدتُ استحالة التطلع بوجهها مرةً أُخرى...

- علياء.

أشرتُ لها لتراني؛ فسارت تجاهي مُنتفخة الأوداج عزيزة النفس تُثقِل قدمها الأرض، لتُحِطّ من شأنها فترتفع هي:

- ماذا حلَّ بك يا وحيد؟

ابتسمتُ وأنا أمدّ إليها يدي بالسلام؛ فاندهشتُ لمعرفتها بكوني رافضًا لتلك العادة تحت ذراع الدين، وكانت تلك البداية.

أخبرتها بالانتظار هُنيهةً من الوقت ريثما أبتاع ما يسرها وفعلت، كوبان من القهوة والتسعة ذرَّات من السُكر كفيلان بفعل المُحال وتبديل الأمور، هنا حيث ناوشَتْني علياء للمرة الأولى، وهنا أيضًا وداخل ذلك المول الكبير حيث رأيتها مُرتجِفَة تخشى فاحشة المُدير، نعم تلك هي الذكرى وهذه قصتي.

أخذنا نسيرُ سويًا في طُرقات المعادي الساكنة المُستقبلة للشتاء كما كنت أفعل مع صديقي يحيى، ولأكون أكثر دقة مع من اعتقدتُه صديقي؛ فكان سرابًا يقبع داخل مشفى طيلة سنوات، فلربما خلقَت المُتلازمة روحًا مُنبثقة من الواقع لتُعينني على إكمال الحياة رفقتها، نعم كم كانت رحيمة بحق!

ابتسمتُ هنا لأستزيد في اندهاش علياء التي اكتفَت من الصمت، وبادرتني مُتسائلة:

- ماذا حلَّ بك يا وحيد؟ ولمَ أراك غريبًا عنِّي اليوم؟! إن كنت تخشى ما حدث وذكراك الأخيرة فقد راجعتُ نفسي ولم يكن الذنب يخصك وحدك؛ فقد كنتَ طفلًا صغيرًا لا يعـ....

قاطعتها قائلًا:

- أنتِ جميلةٌ بحق يا صغيرتي.

اهتزَّ كوب القهوة في يديها وقد توقّفَت عن السير مُنبثقة العينين.

- وَ... وحـيد، ماذا تقول؟!

- لا شيء، هذه عيناي تراكِ بمنظورٍ مُختلف، وقلبي ينبض مُستشعرًا أنفاسك.

نفضَت علياء عن جسدها فاجعة الكلمات قائلة:

- أين كنت طيلة تلك المدة؟! اعترف لي فأنا علياء.

نظرتُ إلى السماء فكانت مُلبدة بالغيوم، يبدو أنَّها ستُمطر اليوم، لأخطو مُكملًا المسير إلى الأمام حيث السكون وذلك الشجن، وعلياء تُلاحقني وقد تبعثرت قُدرتها على التحكم وطبيعتها التي اعتادت أن تسطُو بها.

- وحيد، أنا أسألك فلِمَ لا تُجيب؟

نظرتُ إليها مُبتسمًا:

- لماذا لم أقدر على طرحِ فكرة الزواج منك مُذ أن قابلتَكِ ذلك اليوم؟ كُنتِ خائفة تُريدين الأمان، فلماذا لم أكن حائطك المنيع؟ كيف لم ألحظ بأنّكِ قدرٌ أرسلك الله إليَّ ليُقيلني من عثرة الذنب ومرارة النفس؟! آه يا علياء.

تلعثمَت الكلمات داخل الحناجر؛ فلم تقدر الفتاة على الرد، اكتفَت بالوجه الذي استقبل الصاعقة، وحُمرة كما الشمس وقت الغروب، وأطلنا المسير، كانت الدقائق بجانب جسدها لا تُذكَر، والصمت في حرمها وقارٌ، وقامتها القصيرة تدفعني لاحتضانها، أدثّرُها بين ذراعين

طويلتين امتلأت بالشعر الأسود القاتم؛ فلا تلحظ وجهها من بينه عين بشرٍ أو جان، كانت علياء الحقيقة الوحيدة وقتما رافقَتْني المُتلازمة طيلة الوقت، ولعلّني أخطأت بالتفريط بها، لأقف مرةً واحدة؛ فتقف هي على إثري؛ فقد صارت تابعة الآن ببضع كلماتٍ فقط.

- علياء، سندخل إلى ذلك المطعم لنأكل سويًا ونرتشف قهوةً أُخرى عادية الصُنع تخلو من قطع السكر، ثمَّ نفترق، ولكن قبل ذلك أجيبيني، لماذا لم نتزوج يا صغيرتي؟!

- لأنَّك جبُنْتَ أن تعترف بمشاعرك، كنتَ تلميذًا شقيًا أراد من مُعلّمه أن يُجنبه الرسوب، وقد أصرَّ هو على إظهار الفشل، فلماذا يُلام المُعلم الآن؟!

تعالت ضحكاتي فاستزادَت دهشتها، لأُخرِج ورقةً رافقتني منذ بدأت رحلتي، ورقة النتيجة المطوية كبيرة الحجم التي وجدتُها في غرفتي قُبيل سفري إلى القاهرة؛ لأنظر إليها مُستعيدًا الذكرى وما مررتُ به، الشجنُ يعتليني وريحُ نسيمٍ باردة قادرة على تهدئة اشتعال الومضات.

- ألا تُؤمنين بالقدر يا صغيرتي؟ خُذِي تلك الورقة التي بدأَت معي الطريق من المنصورة وإلى هنا، فلتقرئي الكلمات التي بالأسفل ثمَّ تَعِدِينَني بالاحتفاظ بها داخل حقيبتك لتكون خير ذكرى.

ها هي الرعشة تعود مُجددًا لتطول كوب القهوة الفارغ، والذي احتفظَت به علياء طيلة تلك المُدة؛ ليقع من يديها وتتشكل الدموع على عينيها.

- وحيد، أرجوك لا تقُل تلك الكلمات؛ فأنا أخشى الفراق.

هذا هو ميعادها الحقيقي، الآن فقط يجب أن تحتضنها يا وحيد، لتفعلها مرةً واحدة وليغفر لك الإله، أحقًا لا تغفو عيناه ولو ثانيةٍ واحدة فأظفر بمن أُحب؟!

انكفأتُ على رُكبتي و أنا أرى دموع علياء تستزيد؛ لأصرخ دون أن تستمع لي: "نعم لا يغفو؛ فهو الله الواحد الأحد، نعم لا يغفو؛ فهو المُطّلع على الأفئدة والبصير بالعباد، نعم لا يغفو ولو انقسمت الثانية واضمَحلّت".

دموع علياء عزيزة، ورَبكتُها لم أعهدها بتلك الشاكلة قبلًا، صوتها الدافئ وتلك الرعشة وسط الكلمات، آه يا علياء!

مددتُ إليها يدي بالورقة:

- خُذيها يا صغيرتي ولتقرئي ما حوته من قدر.

التقفَتْها وهي تمسح دموعها غير قادرة على تصديق ما وصلتُ إليه من شأن، لترصد عيناها الكلمات..

"إن جاءك الحب انتهزه؛ فلربما يغيب أبد الأبدين"

تصنّمَت محلَّها دقائق، لأسير بُمحاذاتها أرتقب عينيها وتقاسيم وجهها، فما القدر وكيف تحقّقَت كلماته؟! سنةٌ كاملة ما بين كلمات ورقة ومعرفة صاحبها، أراد القدر عبرها إخباري بالظفر والتمسك؛ فلم أقدر مُتناسيًا أمرها، وها نحن الآن على مشارف النهاية.

جاء صوتي هادئًا:

- هيَّا يا علياء؛ فلنردف إلى المطعم لنأكل ونحتسي القهوة الأخيرة.

تشكّلَت الدموع مرةً أُخرى على عينيها:

- لمَ تتفوه بتلك الكلمات الآن؟ لم أشعر يومًا بمرارة الفراق معك، وكنتُ متيقنة بأنَّه وإن طال الخصام سنعود، أنا، أنا أُحـ...

قاطعتها:

- علياء، سنجلس سويًا فلن نُطيل الوقوف.

صمتت وجفَّت شفاهها، وها نحن نسير معًا إلى وجهتنا.

على طاولة قد تقول عليها كروية، وربُّما تنجرف لكونها مُسطحة؛ فتخوض جدالًا نتيجته كونها تحمل صحونًا من الطعام الساخن الشهي إلى يوم يُبعثون، ألتَهِم الطعام بعينٍ وأُخرى تلتهم علياء الساكنة تمضغ الدجاج على استحياء، ووجهها به من الجمود ما ليس بالجبال، وللطعام آداب؛ فلا حديث يعلوه، فقط يعمل العقل مُفكرًا، رُبَّما لا أقدر على رسم الكلمات، البوح بخفايا النفس وجعلك تستنشقين رياح الهوى، فقط لتتأكدِي بأنَّ السعي لفعل الأمر هو الحب وإن لم أكن أهله يا صغيرتي، نعم تمنّيتُ جاهدًا لو تعايشنا الحاضر سويًا عوضًا أن أخلّد ذكراكِ عبر سطور الكُتب.!

رشفتُ من كوب المياه وأودَعتُ السائل بمنتصف الحنجرة حبيسًا أرفض توغّله نحو المعدة.

- وحيد، عقلي يرفض ما سمعته منك وأُريد التفسير.

عادة علياء الهدوء؛ ففي أشد اللحظات ظُلمة امتازَت بالتعقل، وها قد انهارت في الأخير، وددتُ لو أراها بثوبٍ أبيض مُزدانة بالذهب ترقص رفقة صديقاتها تتحضر لتكون زوجة وحيد، هنا قاطعَنِي هاجسٌ ما؛ فالساعة قد اقتربت على الثامنة ووجب الانتهاء، ولكن ينبغي أن أمكث خمس دقائق أُخرى دون حديث، لأضع رأسي على الطاولة أنظر إلى المستقبل القريب، وهل أنا قادرٌ على فعلها بحق؟! لتنتهي المُهلة.

استأذنتُ منها بُرهةً من الوقت أذهب إلى دورة المياه لأغتسل، فأعود، وبينما أقف أمام المرآة أترقَّب وجهي عن كثب مُتمنّيًا أن يخرج الجان فيلتهمني كما يزعمون، لمحتُ شفا خيطٍ أسود اللون غليظ مُنفر الجبين يتسارع في الخروج مُلتويًا من جسمي كما الثُعبان، وعلى نهايته رأيته يقف راسخًا ينظر نحوي بأعينه الحارقة؛ فجاء صوتي متلعثمًا:

- لماذا الآن؟! ألا أقدر على المكوث معها دون أن تضعف نفسي، أعزم الخلاص؛ فلا أقدر، و أبغي القصاص فلا تُعينني يداي.

توالت الدقائق ورافقَنِي الظل الأسود مُعلنًا تفشِّي سطوته والموتُ عمَّا قريب؛ لذا اقتربتُ من علياء بشاكلةٍ أخرى عكس ما ذهبت، شاكلةٌ مفادها نهاية العشق، ورأيتُ في أعينها الحذر كأنَّما عَلِمَت ما أرنو إليه، وما أن صرتُ بمُحاذاتها حتَّى جَبُنتُ لأجلس بجوارها دون حديث، واكتفت هي بالصمت.

- علياء، أعلم حقيقَتَكِ كاملة.

انتفضت من محلِّها غير مُصدقة ما انبثقَت به شفاهي، لترد:

- ماذا تقصد؟!

- ذلك اليوم الذي دقَّت فيه أصابعك باب شقتي كان ميعاد رحلتي حيث أقصد بيت العجوز.

انبثقَت عيناها غير قادرة على الرد، لأردف قائلًا:

- لا جدوى من الحديث، ولكنني أعدك بأنَّنا سنلتقي وقتما غربت الشمس وتوغلت الظُلمة، وقتما اعتقد العالم أجمع الخلاص وهم غافلون، سنلتَقِي وقد أظفُر بك حيث ترقصين وأنا بجانبك أرتدي عباءتي السوداء وغطاءً على الرأس، ورقة محفورٌ بأطرافها عينٌ بدت على شفا الطمس، وذهنٌ عالقٌ ينتظره؛ فيموت الجميع.

هنا تعالت ضحكاتي وداخل رأسي جملةٌ تقول "قد يكون المُنتظَر هو أنا"!

وضعتُ نقودًا كثيرة على الطاولة تاركًا علياء في حالة من العصيان لا يُتيح لها عقلها استنتاج ما حدث منذ لحظات، وتعلم جيدًا بكونها ليست الأذكى على الإطلاق، وهنا كانت نظرتي الأخيرة لها وهي تُشير نحوي ترجو المكوث، ترجو المعرفة وترجو الرفقة، يقولون بأنَّ الدُعاء يُغيّر القدر، وفي حالتي كان الحُب مثل الدعاء، ونتيجته حادت عمَّا دبَّرتُ من أمور، فما كان مني سوى التلويح كاشفًا عن أصابعي وهي تُعطِي نمطًا مفاده الرقم تسعة! جحظَت عيناها مُجددًا؛ فكادت تسقط من على الكُرسي وهي ترقب كلمات الختام، وبصوتٍ جهوري:

- أنا أيضًا أُحبّكِ يا علياء، أُحبّكِ وأعلم جيدًا كونك الفرد الأثمن في جماعة التنوير.

***

11 سبتمبر عام 2022م، الساعة العاشرة والنصف ليلًا...

مقعدٌ جديد كبير الحجم أضفتُه إلى الردهة بجانب الطاولة، ها أنا جالسٌ على الكُرسي المهتز يعبث بجسدي رواحًا وجيئة، طرقات الغرفة بجانبي لا تسكُن، الساعة آثرت التوقف عن العمل، وقبعت العقارب محلَّها توحي بانتهاء الزمن، المدفئة تشتعل بالحطب كما لو تأكل يومًا، والنيران تقول هل من مزيد؟! أتتحضّر لتبتلعنا جميعًا، الطنافس المُلوّنة وعبر غبشة الليل صارت شياطين مُنتصبة تشهد الحدث الأخير بلسان حال "اسجد لي تنجو"، الكومود الصغير غير قادرٍ على الثبات، ينكفئ على وجهه فيتساقط الدرج الخفيّ مُذكرًا العقل بومضات ماضٍ تخللته رائحة علياء النفيسة، ورحلةٌ يا ليتها لم تتم! والمنضدة حيث تقبع زُجاجة

الخمر شامخة أبيَّة مُمتلئة بالسائل الكحولي عن آخرها، لا ورقة بالداخل أو أسفلها تُريد أن تشارك النهاية كما الجميع.

أرتكز بأسفل الذقن على قبضتي، وقلبي قد هدأ نبضه واستكانت أوردته؛ فلا يضخ ما يزيد من الدماء بعد الآن، العقل لم يُرِد التملص من سيده، ما زال يشتعل بومضاته مُفكّرًا ومُعيدًا إيَّاي نحو ماضيَين قريبٌ سُلِبَ منِّي وبعيدٌ لم أقدر على التملص منه، شعرتُ بقطراتٍ دافئة تُلامس ذراعي؛ فنظرتُ إليها مُنبثق العينين "لماذا أبكي الآن؟!"، شعورٌ بالراحة تُضفيه تلك القطرات الملحية فكيف لم أُجرّبه إلَّا اليوم، وتلك الشهقات ليست مُنفرة كما اعتقدت..

"وحيدٌ أنا هذا كُنيتي، ووحيدٌ أنا تلك حياتي"!

أردتُ الاستلقاء على الفراش؛ فأنام مُتجاوزًا ذلك اليوم، ودون أن أُدرِك متى وكيف رأيتُ جسدي يتحرك تاركًا كُرسِيّه نحو الدهليز؛ لأقطعه عابرًا دون أن تضيق أنفاسي أو تُشَلّ الأطراف، كان الهواء خفيفًا يُداعب شُعيرات الأنف مَرِحًا، وها أنا أقف الآن على مسافةٍ واحدة من الغرفتين؛ أيّهم أختار مُتذكرًا يومي الأول هنا، وقد تصنّمت مذعورًا خشية الزواحف القاتلة؛ فأين هي اليوم؟!

امتقع وجهي و أنا أتحسّس الباب الأيمن؛ فعلى كُل حال دخلته صغيرًا وخرجت منه مُصابًا بداء العقل؛ لأتركه والجًا إلى غُرفتي اليُسرى مأمني وملاذي، حيث الفراش القديم وطفولةٌ نعمتُ فيها ببعض الاهتمام، لم يدُقّ الدولاب وامتنعت الأصوات بداخله عن الوصول إلى مسامعي؛ فكان كُل شيء هادئًا مُطمئنًا، ومتى بلغتُ الفراش حتَّى ألقيتُ كاهلي عليه غير مُبالٍ بشيء، فليذهب الجميع إلى البوتقة، غفوتُ تسعة دقائق كاملة كانت الأميز بحياتي على الإطلاق، حيث وأخيرًا توقف عقلي عن العمل!

صوتٌ مُفجعٌ أيقظني نتَجَ عن ارتطام تفاحةٍ بالأرض؛ لأنهض مُتثاقلًا آبي الخروجِ من الجنان؛ فهل كانت تلك وساوس الشيطان؟!

كانت مُنكفئة على وجهها، لأُمسِك بها؛ فارتبكتُ لكونها جمادًا؛ فهي إطار على شكل تُفاحة، ما إن رأيت جانبها الآخر حتى انتُزِعَ الأمان؛ فحلَّ محلَّه قلق تعايشت معه سنوات، الخيط الأسود يخرج مُجددًا بشاكلةٍ مُغايرة ولونٌ أشبه بالرمادي! حرارةٌ تحرِقُ الشُعيرات تتولد كُلَّما استزاد الخيط الرمادي الجديد في الاندفاع خارجًا، والتشكل لتسقط التُفاحة من يدي و أنا أرى على وجهها صورةً مكونة من أربعة أشخاص يلتصقون سويًا كما الأصدقاء دون أن يبتسم أحدهم، نعم؛ فتلك ما رأيتُ مُذ وطأَت قدمي ذلك المنزل، مُتغلبًا على الألم انتزعتُ الصورة من إطارها وقد صار الخيط عظيم الشأن يوحي بوجه صاحبه، لأجد أيضًا ما بحثت عنه طيلة سنةٍ كاملة، مُفتاح الخزينة التي تقبع في الدولاب كان مُتواريًا عن الأنظار خلف تلك الصورة، فهل كنتُ أنا من خبأته؟! ترجّلْتُ تاركًا الفراش بقلبٍ يضُخّ دمائه الراكدة بغزارة، وعقلي قد توقف، هنا فقط تساءَلتُ "مُخيّرٌ أم مُسيّر؟!".

وقفتُ أمام الدولاب الذي كان سببًا في ارتجاف الأوصال طيلة مكوثي المُستمر هنا، وفتحته على مصرعيه؛ فلم يكن هنالك قطةٌ أو بطن مُمتلئة بالصغار، فقط كانت الخزينة التي عجزتُ عن فتحها بيومي الأول، لأمسك المُفتاح الصغير وأدسه داخل القفل ليدور ترسه وينفتح أخيرًا، أمسكتُ مقبض الخزينة؛ فباغتني الأدرينالين من كل صوبٍ وحدب، نعم تنكشف الآن الحقيقة، وبالداخل قبعَت سوءتي وسوءة السلف، السكين الفضي الذي قضى به جدي على والده إسماعيل، وكررتُ الأمر به مع والدَيّ، ها هو يقبع أمامي بأطرافه المُشرشرة أستَمِع عبرها إلى الصرخات وأعين الفزع، وأرى بِرَكَ الدماء كأنَّها اليوم ما زالت رائحتها تخترق شُعيرات الأنف، وجدتُ أيضًا ورقةً مطوية كما جرت عادة الأوراق

معي، وبعد تفحصها رأيتُ آخر المُترادفات التسعة وكنز الكلمات التي كانت تقول:

"الحياة، البرزخ، والموت"

يا لها من نهاية لم أبذل جُهدًا لفك شيفراتها...

أسيرُ خارجًا أجُرّ القدم تلو الأُخرى؛ لأقف أمام باب الغُرفة المُجاورة؛ فأدفعه نافذًا إلى الداخل، استندتُ على المشجب ناظرًا إلى فراش أبوَيّ، أصرخ والدموع تتساقط كما الأنهار بعدما انفجر السد، لا أقدر على التوقّف وجسدي أصابه التخدر!

- آآآآآه.

كانت صرخاتي فلم يسمعنِي أحد.

- آآآآآه

تهاطلت دموعي فلم يرها أحد.

مضى الوقت، وكما الحياة تفرض عليك السعي وإكمال آخر الخطوات، أقف ماسحًا آثار الدموع ناظرًا إلى المشجب وما عليه، ها أنا أُكرر أحداث الماضي فأُمسِك بالطربوش المُعلق على أحد أطرافه؛ فأضعه فوق رأسي، وبذلك تحقَّق الشجن.

اتخذتُ دربي عبر الدهليز، الذي ولطالما كان طريقًا لا أعلم نهايته، حتَّى وقفتُ أمام باب الغرفة المُطلة على الرُدهة؛ فأقوم بفتحه مُترددًا لألج إلى الداخل، وعلى ضوء الشموع المشتعلة اقتربتُ من جسدٍ قابعٍ على كُرسيه قد خارت قواه جرَّاء تعرية الزمن؛ لأهمس داخل أذنيه:

- دقَّت الساعة أيَّها الجد.

فتح جدي أعينه مُرتجفًا بعدما رأى الطربوش على رأسي والسكين بين راحة الكف، التفَفْتُ من ورائه دافعًا الكُرسي نحو الردهة وهو يرتقب بعينيه الضيقتين الصورة التي أحملها بقبضتي؛ لأجعله على طرف الطاولة، وأمكث بجانبه على الكُرسي المُهتز قائلًا:

- صديقك قادمٌ اليوم.

قد ترتابون، تضيق صدوركم وتشرئبّ الأعناق ذرعًا بما يحدث الآن، ألم يمُت الجد من قبل؟! ألم تحترق جُثته عن بكرة أبيها؟ فكيف أُحادثه؟! أتلك هي المُتلازمة التي صنفني الطبيب مُختاربها وأعراضها قد اشتدَّت؟!

لم أسمع سوى همسات الأنفاس التي يُخرِجها الجد وهو يرنو ببصره ناحية الباب يترقب الطارق مُنتفخ الأوداج، و أنا بجواره أخلق من لهيب النيران جسدًا مُشابهًا لعلياء تُظهِر أسنانها البيضاء الناصعة تحثني على القدوم إليها، تدفعني قدماي للمكوث وعقلي قد أصابه الخلل؛ فلتُلقي بنفسك يا وحيد داخل الحطب حيث تظفر بحبيبتك إلى الأبد، وهنا تدحرجِ الحطب؛ فظهر على إثره اشتعالات مُتتالية تنفس وجهًا مألوفًا يعقد جبينه غاضبًا، ونعم كان يحيى الصديق؛ فتدافعَت القوى ومكثتُ مُسبَل العينين ما بين الصديق والحبيب، ويا ليت المطالب بالتمني!

انتفض الجد برعشةٍ بارزة، وعلمتُ حينها بقُرب الحدث الأكبر؛ فانقشَعَت وجوه النيران وجفَّت الأعين، لم أستَدِر إلى الخلف، بل ظللتُ ماكثًا على الكُرسي المهتز وقد اكتسَت عيناي بالدماء، وصار الخيط أكثر غورًا وتشكلًا على طرفه الأخير، وكانت تلك إشارة البدء!

"غضبةٌ واحدة يخرج من خلفها الدجَّال، قلق لا يُخلِّف من ورائه سوى أغصان متناثرة على البقاع، ذكرى تهاوَت كمدًا فطالت الجبال،

ويومٌ واحدٌ كان كفيلًا بما كان، جميعها أيَّها العم جان أغراض لفراشٍ رَثٍّ وُلِد من عنق رحمه روحٌ يا ليتها نطفة أُجهضت قبل أن تولد..."

أشم رائحته يُرفرف بمُحيطنا، وأسمع صوت أنين قادمًا من الخلف مصدره الباب الذي ينفتح تدريجيًا، ظلٌّ أسود يتشكل على الحائط، وعلى انعكاس أعين الجد العجوز جاء صوتي ثابتًا:

- مرحبًا بك أيَّها العم جان.

دلف الرجل البريطاني إلى الداخل بخُطى لا تلتقط الأذان تحركاتها بعدما أغلق الباب خلفه، ليجلس في هدوء على المِقعَد الفاخر؛ فأرى هيأته ووجهه الأوروبي، تلك الأعين المُلونة والشعر الذي ما زال يحتفظ برونقه، لا آثار تجاعيد تنتفخ لها الأعين، وكان سماته الجمود.

- إذًا لقد علمتَ بمجيئي يا وحيد، اعتقدتُ بأنني سأطيح بعقلك إن ظهرتُ لك.

ابتسمتُ وقد تركت الكُرسي لأفتح زُجاجة الخمر وأصب مُحتوياتها في أكوابٍ ثلاث، تحدَّث العم جان مُجددًا:

- لماذا قتلتَه؟!

أوقفني سؤاله عمَّا أفعل، ورددتُ:

- ألا تُرحب بالروح الثالثة؟

دقَّق الرجل الغريب بأعينه الثاقبة نحو وجه جدي؛ فأصابته الدهشة:

- سعد! ألم يحرقكَ سمير في ذلك المنزل؟!

- الله يرحمه.

جاءت كلماتي كالصاعقة ولجت إلى قلب العم جان؛ فلم يُبدها خارجًا؛ لأرى آثارها، واكتفى فقط بكلماتٍ مُتزنة:

- أمات زوج عمتك؟

- نعم، كان رجلًا حنونًا بحق ومُخلصًا إلى العقيدة؛ فبعدما أرسل أحدهم خطابًا إلى جدي بضرورة ترحاله إلى القاهرة نحو أحد المنازل التي تخُصّ العقيدة ووجوب حضوره لخطورة الأمر تتّبعَه زوج عمتي، وبالطبع تعقبتهما وأدركت كونها مكِيدَة مُدبرة بعدما رأيتُ سمير وهو يخترق باب الشقة المهجورة، هاجم جدي فأفقده وعيه، ثمَّ سكب سائل البنزين في جميع الأرجاء، وغادر مُتيقنًا بهلاك العجوز، ولم يكن يدري بكوني شاهدًا وسأُفشِل خطته، بل لنقول خطتكما، ولكن استحق سمير العقاب لكَسرِه قاعدتكم الكُبرى "العقيدة لا تستخدم العنف"، أليس كذلك؟!

خرجت تصفيقات العم جان حارة بابتسامةٍ صفراء يشوبها القلق

- لنكشف أوراقنا يا وحيد.

هنا تحدَّث الجد وللمرة الأولى:

- أنت أولًا.

واضعًا قدمًا فوق أُخرى سرد العم جان بعض الحقائق عن العقيدة، مُراقبتهم لوالدي، ثمَّ الاهتمام بشأني بعدما عَلِموا ما حلَّ به، وهنا جاءت كلماته لاذعة:

- عرفنا بأنَّك أنت من قتلته يا وحيد بدمٍ بارد رفقة والدتك الحسناء.

اكتفيتُ بالنظر نحو جدي الذي رنا ببصره إلى الأسفل آسفًا على مصيرهما؛ فاستمر صمتي مُستمعًا إلى بقية الحديث:

- توالت أجيال العقيدة واشتدَّ أصلها، وبعد مقتل سفيرنا بمصر على يد أحد أفراد جماعة "التنوير"، وبالتحديد قُبيل عودة "سعد زغلول" من منفاه وجب إيجاد البديل بأسرع وقت؛ فأخبرني حينها جُنديٌّ بريطاني عن شابٍ مصري يُدعى "حمد" قد وَلِعَ بحضارة الغرب وحرص على إدراك العلوم كارهًا تلك البلاد، وبعد مُقابلته عَلِمتُ كونه الفرصة الأجهز لتلقِّي مبادئنا، وقد فعل.

هنا ازدرد العم جان ريقه مُتذكرًا نفحات الماضي، وقد مطَّ شفتيه مُكملًا:

- كان حمد الرجل المصري الأذكى على الإطلاق؛ فعلى غرار غيره نبغ واشتدَّ عزمه، وقد لحظت تردّدًا خفيًّا يُحيط به؛ فلم أقدر على التيقن لعدم وجود دليل، حتَّى استطاع معرفة أحد أصدقاء العالم الأب "تسلا" كما يقولون جماعته "المُبصرون"، وهنا لم أُدرِك حينها بكونه انقلب؛ فكان ظاهره عقيدة وباطنه الإبصار، كمُنَت خطورة "حمد" في معرفة السر الأعظم لدائرة الكون الخاصة بالعالم الأب "تسلا" وكيفية استخدامها للسيطرة على الروح البشرية، بل وتحضير النفس مُمتثلة لأوامره، وكانت حيطته عظيمة الشأن؛ فقد امتثل لأوامري أيضًا رافعًا الشك عنه باختطاف بعض أطفال العاصمة أثناء مُشاركتنا في افتعال حريق القاهرة لتشكيل سُلالة من أطفال مُضطربة النفس تكون هي الأمثل؛ فتحمل لواء العقيدة.

هنا استفاض العم جان في شرحه عن تجربة "حمد" وتقسيمه لأطفالٍ ثلاث عبث بعقولهم وأخرجهم من الغرفة بإصاباتٍ عقلية بالغة، وفي نهاية الأمر بدت على تصرفاتهم الجنون ونبوغ العقل، علمتُ منه أيضًا بأنَّها تجربة تتمّ منذ قديم الأزل، والصغار يكونون الضحية المُثلى لحمل لواء تلك الجماعة كما القرابين بين أيدي السحرة.

- "لطفي، الغضنفر، ونجيب" كانت تلك أسماءَهم يا وحيد، وبالطبع تعرف أحدهم بشكلٍ وثيق، جدُّك الماثل على ذلك الكُرسي.

تبرز الأوردة على طليعَةِ جبهة الجد توحي بمدى غضبه من ذلك الرجل؛ فوجب التدخل، أخرجتُ الصورة التي انتزعتها من إطارها الأشبه بالتُفاحة و أنا أُشير نحو الوجوه:

- بل أعرفهم جميعًا، لطفي على الميمنة.. عجوزٌ ذكي امتلك شقةً أنيقة بحي راقٍ تحَّكم داخلها بالأنفس، قتلَ نفسه شنقًا بإحدى المُستشفيات النفسية بالعاصمة، نجيب اتَّخذ دربًا مُختلفًا؛ فولج إلى الأزهر أخذ منه العلوم الشرعية الصحيحة ودسَّ بها السم كما فعلت الشياطين بطلاسم بابل، ودس كُنية نبي الله سُليمان بالمخطوطات، قتل نفسه شنقًا أيضًا بذات المشفى؛ فرحمة الله عليهما.

أصابت أطراف العم جان رعشةٌ بدت واضحة، وقد غلظ صوته:

- أكنت أنتَ أيضًا وراء تلك الحوادث؟!

- رحلتي إليهم أدركتُ بها كونهم لا يعلمون شيئًا عن غيرهم؛ فلا لُطفي يرى نجيب أو نجيب يُحادث لطفي، فقط يقبعون بأماكنهم مُتحكمين بما تدعونهم البيادق، و أنت فقط من تتحدث مع الجميع، وكان لغيابك الفرصة الأمثل نحو تنفيذ ما خططتُ إليه.

هنا أمسكتُ بكوب الخمر أقدّمُه إلى جدي، وآخر إلى العم جان، ثمَّ أخذتُ كوبي ورشفتُ منه، فعل جدي مثل ما فعلت بعدما اطمأن، وتبقَّى العم جان ينظر إلى الكوب مرتابًا، ليبتسم في الأخير:

- أنت تعلم حقيقتي؛ فلا ضرر ممَّا تفعل.

ارتشف كوبه حتَّى آخره، و أنا بجانبه شارد الذهن مُفكرًا في ومضات الماضي، بعدما قتلتُ أهلي صغيرًا خرجتُ من باب الغُرفة مُصابًا بداء

الفصام أو الإسكيز لا أعلم؛ فجميعها مُسميات أودَت بي إلى نتيجةٍ حتمية كوني مُؤهلًا لحمل لواء جدي الغضنفر، ذاك الرجل العظيم الذي تلقَّى علومه من "حمد" بشكلٍ شخصيّ، وبالطبع كانت الفُرصة مواتية وقد تحقّقَت الشروط بفعل السوءة الكُبرى؛ ليبدأ الجد في تلاوة جُلَّ الماضي وتدريس دائرة الكون وعلومها وكيف أُخضِع النفس البشرية بين قبضتي؟ وفعل ذلك على أكمل وجه بعدما رفض والدي الدخول في تلك الصورة الكاملة، رفَضَ الجماعات وأراد العيش حُرًا رفقة زوجته وطفله الصغير؛ لذا كان دائم التشدد على عدم مكوثي مع جدي، وللأسف رقّةُ والدتي كانت سببًا في الجلوس بجواره دون علم أبي، حتَّى قمت بفعلتي في ذلك اليوم بعدما أدرَكَ جدي وجوب الخلاص منهما، وكانت الغضبة التي برز من بينها وحيد.

هنا وقفتُ تاركًا الكُرسي لأذهب إلى غُرفتي وسط دهشة الاثنين عدتُ مُمسكًا بسبُّورة كبيرة الحجم مُغطاه بقطعة من القماش جعلتُها مُتوارية عن الأنظار، وقد تجمَّعَت عليها أكوامٌ من الأتربة؛ لأنفضها مُزيحًا الغطاء عنها، و أقف أمامها لحظات فأتنحَّى جانبًا كاشفًا مُحتوياتها أمام الأعين؛ فيبدأ الاثنان في قراءة ما كُتِبَ بها.

"من الغرفة إلى البوتقة"

علياء، الطبيب مُختار، جدِّي، لطفي، نجيب، سمير، أستاذ عبد المقصود، والدكتور مُراد.

"علياء"..

في سن الثالثة والعشرين لاحظتُ وجود فتاة تُراقب تحركاتي أينما حلَلتُ وارتحَلتُ فلم أُشعرها بشيء، وظللتُ كما أنا أعيش حياتي بنحوٍ طبيعي، اعتقدتُ كونها فردًا من جماعة العقيدة تُريد الظفر بي، وبعد التحري علمتُ عن انتسابها إلى جماعةٍ أُخرى تُدعى "التنوير"، وكانت تلك

الفتاة علياء، ذات الأعين الناعسة، ذكيّة العقل ثائرة الطباع، تتحكم في جُلّ الأمور، وكان لها ضحية شاب يُدعى هشام، قد آمنت له لترحل عمَّا أُغصِبَت عليه من والدها ونسلها التابع لتلك الجماعة، ولكن كسَرَ الشاب قلبها مُتلاعبًا بها لا يُدرِك مَن تكون وما هي قادرة على فعله، ومع قرب انتهاء جامعتها أطاحت به؛ فانتقَصَت من قدره وجعلت منه عبرة على الأذهان؛ فأصاب الشاب مرضٌ نفسي نادمًا على ما اقترفت يداه، وكانت تلك البداية نحو عنفوان طال الجميع؛ فكانت علياء الأذكى من بين أفراد جماعتها التي اعتمدت على الثورة والجهاد فقط؛ فبرز عقلها وعَلِمَت بوجوب معرفة أمور العقيدة بأكملها، حتَّى يتسنى لها الهجوم، وبالطبع الطريق إلى العقيدة يحتاج إلى مُبصِر.

"الطبيب مُختار"..

سمعتُ عن طبيبٍ نفسي يكبرني بسنوات يُشهَد له بالذكاء وحسن التصرف، فلم يستعِرني سوى كُنيته "مُختار محمود إسماعيل حمد الدين"، ونعم تبيَّنت بأنَّه الحفيد الثاني لـ"حمد" المُبصِر المصري؛ فلم ينل فرصة إخبار صديقه بأنَّه قد تزوّج وأسمى ولده على اسمه أيضًا قبل أن يفتك به الغضنفر، استطاعَت العقيدة تعقّبَ نسل "حمد"؛ فلم يكن منهم مُلهمٌ حتَّى جاء الطفل مُختار؛ فاختطفه أحدهم انتقامًا ممَّا فعله جده، وعلى أغلب الظن كان المُختَطِف هو العم جان بنفسه، زرع برأسه مفاتيح العقيدة وما فعله جده الأكبر من خدمات لهم؛ ليكون بذلك أهم البيادق بتلك المُنظمة، واستطاع الظفر بالعديد من الأرواح تحت إطار الطبيب النفسي، وداخل البوتقة نفَّذ جرائمه وتسبَّب في الهلاك.

جدي "الغضنفر"، أو بالمُسمى الأدق "حمد"...

كان نابغة بحق، وظفر بالمُبصِر الأول؛ فتعلَّم على يديه بعد اختطافه، ونعم عانى الكثير من أخواته الحاقدات ووالده الذي أراده اللحاق بركْب جماعةٍ تُحقق مبدأ الثورات، وهنا فعل سوءته الكُبرى؛ فصار أهلًا لتلَقّي كامل مبدأ الإبصار، ولا أعلم أكان هذا هو السبب الحقيقي لقتله والده أم دفاعًا عن صديقٍ ومُعلم؟! جدي ودونًا عن الآخرين كان الوحيد الذي امتلك الخيار وإلى أي الجماعات يُنتَسَب، وبالطبع كان لذلك أثرٌ في جعله يأخذ من كل جماعة ما يخدم غايته؛ فلَحِق بالعقيدة وباطنه الإبصار كما مُعلمه، وكان السبب الرئيسي لما فعلتُه من سوءات بعدما رفض أبي فكرة الانضمام من الأصل إلى الحرب القاطنة بين تلك المُنظمات، ولتحقيق مبدأ الإبصار أرغمَني على قتل والدَيّ بعدما قام بتخديرهما ذلك اليوم؛ فلم أُدرِك تحكمه بعقلي، وبعد دراسة دائرة الكون ومعرفة الإرث الخفيّ علمتُ الطريقة التي استخدمها للظفر بي، وما هو التكرار؛

فأخضعت كاهلي له وهو يُعلّمُني كل شيء حتَّى عن حياة حمد المُبصِر الأكبر، وبالطبع لم أنسَ القصاص.

"لطفي ونجيب"...

الطفلان اللذان رافقا جدي في تجربة "حمد"، ونعم.. من يخرج من تلك الغرفة لا يقدر على أن يعيش سوّيًا مرةً أُخرى؛ فقد اعتقدتُ في اختطاف الأطفال سعيًا خلف أعضائهم أو فديةٍ ما، ولكن تبيَّن لي ما هو أسوأ وأضل سبيلًا، في عمر الثالثة عشر أراني جَدِّي صورةً لأربعة أشخاص يقفون معًا مُتلاصقين، ومن بينهم هذان الاثنان يحملان لواء العقيدة، وأجبرني جدي على تتبعهما في عُمرٍ صغير والإجهاز عليهما وقتما يحين الميعاد؛ فقد شاعا في الأرض الفساد، أحدُهما أبصر مواقع الأرواح؛ فخلق ما لهثَت وراءَه العقول، والآخر تلقَّى علوم الشياطين؛ فأطاح الأنفس وخلق رُعبًا يأبى أن ينضب؛ لذا حضَّر جوابًا وأعطاه عنوان من الأب إلى الابن شرح فيه ما علِمَه عن العقيدة بعدما أظهر كونه بيدقًا منهم، وكيفية الوصول إلى صديقيه وطريقة الطَّرْق المُثلى لفتح الباب، ونعم قد فعلت؛ فبزعم جدي لتظفر بخصْمِكَ وجب عليك دراسته جيدًا، وعَلِمَ بأنَّهم ينتظرون المُبصِر كما الآخرين بانتظار بقرةٍ حمراء، وها قد تجهَّزتُ من أجل رحلتي.

"سمير زوج عمتي، الأستاذ عبد المقصود والدكتور مُراد"..

هؤلاء الثلاثة كانوا بيادق العقيدة بمُحيط معيشتي رفقة عمّتي، وتحقيقًا لمبادئ العقيدة والمتوازنات اختَصُّوا أفرادًا يعملون بمِهَنٍ مؤثرة ليُضفِي كُلٌّ منهم أسلوبه على البقية؛ فيطيح بالأرواح وتغفل أُخريات عنه، وقد علِمتُ بشأنهم؛ فأنا تلميذ الجد على كل حال، لذا واتتني فرصةٌ ذهبيّة بمُراقبة جماعة الـ"تنوير" لي عبر علياء لأتقرّب من هؤلاء الثلاثة، وأُبرِزكوني أحتَفِظ بالأسرار معهم؛ فتلاعبتُ بعلياء كما العروس

بالخيط، وها أنا على مشارف الترحال إلى القاهرة لأزرع في رأسها فكرة الانتقام ممَّن لوّثوا الجميع، أمَّا زوج عمتي فهو زندِيق يستحق القتل والقصاص من روحه العفِنة؛ فقد حاد عن مبادئ العقيدة وأزهق الأرواح مُتلذّذًا، بل وتفاقم أمره نحو الإطاحة بالدين، وبالطبع كان هو من لحق بجدي إلى القاهرة بعدما شكَّ في أمره؛ ليحرق البناية التي ارتكز بها، وكنتُ أنا من أنقذه دون أن يعلم أحد بالحقيقة.

هذه خطتي الكُبرى التي تعرَّق الجبين لأجلها سنوات، يُراودني سؤالان أحدهما هل أنا قادرٌ بحق على الإطاحة بجميع تلك الأطراف؟ وهل ستكون رحلتي نحو القاهرة مُهاجِرًا من المنصورة وبيت العمّة سبيلًا نحو فعل الأمر؟!

وكان الآخر ما هي حقيقة الفرد الرابع بتلك الصورة المهترئة؟! أخبرني جدي عن العم جان وقتما رآه رفقة حمد وهو صغير؛ فاقشعر جسده وشعر بالهلاك يدنو منه، وصُعِقْتُ لقوله بأنَّه هو نفسه من رافقهم بتلك الصورة بعدما أتمّوا دروس العقيدة بأكملها، وهو لا يعلم بأنَّه قد رآه قديمًا وهو صغير؛ لذا حاولتُ تبيان أمرِه، وفصلتُ صورة وجهه لتكون أمامي طيلة الوقت، وسأظفر به لا محالة.

المُبصِر "وحيد"

هنا ظهرتُ من العدم أقف ثابتًا بأعينٍ حمراء ملتهبة، أدقق النظر نحو جدي المرتعد قد تجمَّعت على مُقلتيه الدموع، وصيحاته كانت نحيبًا تُفيد الشقاء:

- وَ.. وحيـــد بُني، فلترحم جدك؛ فهو ضحيةٌ مثلك، أردتُ فقط الحفاظ عليك.

- يقولون بأنَّ الظالم يا جدي يُطيل الله في عمره ليعثو في الأرض الفساد؛ فيُثقِل الذنوب على كاهله ظنًا منه كونه معصومًا نبيًا، وأنتم

الثلاثة وإن اختلف طريقكم فكانت الوجهة واحدة؛ الظفر بالأرواح وهيمنة الجماعات؛ لذا قد آن ميعاد رحيلك لتُرافق صديقيك ويتحقّق القصاص.

جحوظ العينين واضطراب القلب كانتا الأسباب في تسارع السم الذي دسَسْتُه في زُجاجة الخمر، نعم زُجاجة الخمر التي رافقَتْني طيلة ذلك الوقت والتي لم يقربها أبي في يوم مقتله؛ فقد سمعته يتحدّث عن التوبة ولا أعلم أكان رضا الله عنه أم حظه العَسِر، لكم وددتُ لو كانت الخمر بحقٍّ هي آخر ما يشربه ذلك العجوز فيذهب إلى لقاء ربه مُلوثًا بالكحول؛ فلم أقدر، طوال حياتي داخل الشقة والشهور التي قضيتها مؤخرًا كانت تتدحرج أمامي كل يوم؛ فتارةً أُفرِغ محتوياتها وأُخرى أضع داخلها ورقة المُخططات حتَّى ملأتها بسائلٍ أشبه بالشعير خالٍ من الكحول؛ فلن أفعل كما الشيطان يفتك بالأرواح إلى الجحيم.

- و.. وحيــــد، أنقذني يا بُني، لا أشعر أنَّني بخير.

وقفتُ راسخًا لا أُحرك أصبعًا، أنظر إليه وهو يترنّح عن كُرسيه قد شُلَّت أطراف جسده بأكملها وصار نفَسُه ثقيلًا، رأيته وهو ينظر إلى العم جان بعدما تبيَّن نهايته:

- قضى حفيدي على مُنظمتك مثلما فعل حمد مُعلمي بك.

انبثقَت أعين العم جان إلى الأمام، وأُدرِك تمنيه لو كان هو المُتسبب في موته؛ فجاء صوتي ثابتًا:

- أخبرني يا جدي.. "هل تؤمن بأنَّك ستدخل الجنان أم ستشتعل في لهيب الجحيم"؟

جحظت عينا العجوز وهو يُخرِج سائل أبيض اللون، والبُكاء كان فعله الأخير، أهو الندم أم الخوف من عيش البرزخ؟!

هنا نهض العم جان يخطو بحذائه دون أن يُظهِر صوتًا أو يكون له ظلًا، أراه وقد تبدَّل وجهه ومُسِحَت بعض تقاسيمه.

- أنت تعلم بأنَّ ذلك السُم سيؤثر بك أنت أيضًا.

اكتفيتُ بالصمت والنظر خلسةً نحو خيطي الرمادي الجديد، وهو ينفصل عني رويدًا رويدًا، ومن تكوَّن على نهايته يُدقق بصره تجاهي؛ فشعرتُ بالقوة وإن كان الضَّعف غالبًا.

- من بين سُلالة الأجيال أنت الأمهر بينهم يا وحيد، بل والأكثر دهاءً، ولكن يُراودني سؤالٌ لك.. كيف استطعت جلبي إلى هنا؟

- عن طريق طبيبك الشاب، أنا من زرَعتُ الأفكار برأسه وعقله؛ فكان يحلم بما أقوله له دون أن يُدرِك الحقيقة، اصطنَعتُ الجنون، أو بمعنى أدقّ أطلقْتُ العنان لجنوني دون كبح جماحه، وبعدما تلاعبتُ بعقله آخذًا المُهلة الكافية للقضاء على العجوزين سردتُ له رحلتي بأكملها، وحدثته عن الخيط الأسود وتلك العجوز القابعة بالأسفل، والتي وحتمًا غادرت في النهاية، وبذلك عَلِمَ مرضي الحقيقي، وبالطبع تلك المعلومات الهامة ستذهب إلى الرجل الغريب قائد الكيان في بلاد الشرق، ولم يُدرِك العم جان كوني أتحكم ببيدَقِه، وما أن علمتُ قدومَك إلى البلاد حتَّى حان ميعاد الظفر به وقتله قصاصًا عمَّا ارتكبه من جرائم، وكنت أنا من فعلها أم كان هو انتحارًا؟

ارتبك الرجل البريطاني وهو يُدقق النظر في وجهي؛ ليرى الطربوش الذي يعلم بأمره جيدًا، نظر إلى الردهة والغرفة المُجاورة؛ ليُصعَق قائلًا:

- هذه البناية هي التي سكنها إسماعيل قبل ثمانين عامًا!

- نعم لقد أصبت، والتاريخ يُكرر نفسه؛ فينال القاتل جزاءَه وتتبدل الأدوار، قد لا أكون قادرًا على قتلك؛ فلستُ الأحق بفعلها، ولكن فعلتُ

ما يُطيح بك، أنت الآن وحيدٌ دون بيادق، فارقَكَ الكبير والصغير، ولم يُسعفك الوقت لبناء جيلٍ من السُلالة، وإن فعلتَ فقد رتبَّتُ كل شيء.

جحظت عيناه:

- ماذا تقصد بهذا القول يا لعين؟!

هنا بدأ السم يأكل في كاهلي؛ فقد شربتُ معهم من نفس الكأس ليطمئنّ جدي وينال مصيره، انكفأت على رُكبتي وبدَت أنفاسي ثقيلة تُريد اللفظ بالروحِ الكامنة بالداخل، وبصوتٍ خافت قلت:

- دائرة الكون يا جان، أعلم أسرارها جميعًا، وبعثرة أوراقك دون أن تلتقط عقولهم الحقيقة، ذهبتُ إلى العجوزين مرَّات بعدما أتمَمتُ زيارتي الأولى، واصطنعت الخضوع والتعلم وكنت، أزرع في عقولهم بذرة الجنون ومن بعدها الانتحار، ونعم قد صدقت، لدائرة الكون رموزٌ لم تُفلِح جماعتك في تبيان عبقرية الأب "تسلا"، وهي تحضير النفس فقط ببضعة تكرارات وكلمات تلتصق رفقة بعضها البعض.

اشتعل غضب العم جان حتَّى انمحت علامات وجهه؛ فصار يضرب الأرض بعنفوانٍ غير مسبوق، وأنا أمامه راكعًا تفتر قواي رويدًا رويدًا، وبأعينٍ ناعسة كتلك التي تمتلكها علياء رأيته أمامي مرةً واحدة تعلَق خُصيلات شعري الأسود بين أصابعه، ولكونه أكرتًا كانت القبضة مؤلمة بحق، دنا من وجهي وهو يهمس قائلًا:

- أعترف بفوزك هذه الجولة يا وحيد، ولكن الحرب تكتمل دونك، لا مُبصرين بعد اليوم بتلك الأراضين، وستخضع الأجيال القادمة إلى مبادئ العقيدة حتَّى يوم البعث.

أفلتني وقد توَّغل السم أكثر داخل الدماء؛ ليسير مُغادرًا الشقة بعدما نجحتُ في الإطاحة به، وتبقَّى أمر أخير قُبيل مُغادرته بلحظات:

- لن تنجح أيُّها العم جان، أم أقول "أسموديوس بن أعور"؟

هل تلتقط الآذان الكارثة قبل حدوثها؟ وهل ترى الأعين الموت قبل المجيء؟ تصنَّم الرجل الغريب بعدما كشفتُ عن هويته بلسان حال العجز والخضوع، صرخ صرخةً أطاحت بكل شيء، المنضدة وزُجاجة الخمر، أسقطَ الساعة فتبعثرت عقاربها، انكسر زُجاج باب الغرفة، اقتُلِعَ الكومود من محلَّه وتحطَّم الكُرسي المهتز رفيق الدرب، فقط نيران الحطب هي ما استزادَت اشتعالًا، ليُغادر على الفور مُعلنًا الهزيمة.

نعم قد أكون على شفا الموت، ولكن حقَّقتُ انتصارًا عظيمًا عليه، وستكون للأجيال القادمة فرصةً ذهبية لإدراك حقيقة الأمور قبل أن يظفر بنسلٍ آخر من العقيدة، هنا ترنَّح الجسد وأعطى العقل إشارته إلى بقية الأعضاء بالخمود، لترتَح يا وحيد، ألم تكفيك السنون القاسية وتلك الموبقات؟! ها أنا أستلقي على ظهري مُطرحًا، ما زالت عيناي تقوى على ذرف الدموع، ما زال عقلي يُريد ويتمنّى لو كان الزواج مُتاحًا؛ فنعرف شعور الزوج والحبيب وهو داخل شقته مقفولًا بابها وبجواره زوجته مُطمئنًّا، أراد أن يعِي الحب وطمأنينة الرفيق، صديقي يحيى وتلك العجوز التي رافقتني طيلة ذلك الوقت فمن يكونان؟! مُتلازمة كوتار مرضٌ أصاب مُختار في تشخيصي به، أم أنَّه محض افتراءات؟! صفاء وما فعلته بها وهي جليسة المشفى النفسي، يحيى القابع داخل غرفته، وهشام الذي يُجاوره داخل نفس المشفى بعدما تحدّثتُ معه، أوجَبَ عليَّ إيصال هؤلاء نحو السفينة ليكونوا بعيدين عن الطوفان العظيم؟! علياء كيف لم أقدر على تكرار الأمر معها؟ أأحببتُها حقًا رغم علمي لخوضها الرحلة معي بغية كشف أفراد العقيدة؟! أُريد رؤيتها.. أن أشم رائحة ملابسها ورفق وجهها، أُريد أن أحتضنها فأُقبلها على الجبين آسفًا على ما مررنا به.

قد أكون أنا الأسوأ يا عزيزي، ولا تستبعد كوني مُسيطرًا على عقلك، أجبرتك على احتساء القهوة المُميزة ذات التسعة حبَّات، أو التقول بكلمات لا عِلمَ لك بها، نعم؛ فأنا من تلاعَبَ بك منذ البداية، حيث الغرفة وورقة النتيجة المطوية؛ لذا إن بحثتَ جيدًا وفتَّشت بين السطور المُخبأة فستعلم أكنتُ مصابًا بتلك المُتلازمة أم لا، وستعلم أيضًا حقيقة دائرة الكون وما هي طريقة تحضير النفس؛ فإن توصّلْتَ إليها فاعلم بأنَّك أحد المُبصرين؛ فلا تفعل السوءة واكتفي بعلم الأذهان، ها هو يُرفرف بجناحيه أعلاي، ملك الموت قابعٌ ينتظر الميعاد الأخير لقبض تلك الروح؛ فتذكَّرْ أنَّك سيد القرار إن كنت ترى عقل العقيدة، ثورة التنوير أو عِلم المُبصِرين؛ فأيَّهم تختار؟

مع قُرب الموت والفراق بصرتُ الخيط الرمادي وهو يتملَّص أخيرًا من جسدي؛ فانقطع دون رجعة؛ فما أصابني بالذعر هو الوجه الغاضب الذي تشكل وصار واضحًا أمامي، وجه الخيط الأسود الذي رافقني سنواتٍ مديدة كان هو من يُحركني ناصحًا وآمرًا، ونعَم علمت السبب، بقوى آفلة أحبو كما الأطفال بعدما انتزعت الطربوش عن رأسي مُمسكًا إيَّاه حتَّى وصلتُ إلى مقربةٍ من لهيب الحطب؛ فأخرجتُ السكين اللعين لأنظر إليه وإلى الطربوش الأحمر فأقذف بهما نحو اللهب تلتهمهما النيران، كان مشهدًا عظيمًا بحق.

لفظتُ آخر الأنفاس بعدما رأيتُ الوجه وقد ابتسم أخيرًا؛ فاطمأنَّت نفسي بعدما صار حُرًا وتركني؛ فلمحتُ جسده وهو يختفي رويدًا رويدًا قد خلع طربوشه المزدان بالكرانيش قائلًا:

- أحسنتَ يا وحيد، أتمَمْتَ المهمة على خير حال، فلترقد روحك في سلام.

***

طرقات مُتسارعة كانت سببًا في اتِّجاه السيدة القلقة نحو الباب وهي تدعو بأعلى صوتها أن يكون الطارق زوجها سمير المُتغيّب طيلة أشهرٍ

مديدة دون أن تعلم عنه شيئًا، تجذبُه بأقصى طاقة لديها؛ فترى أمامها فتاة يبدو على وجهها القلق وهو أمر آثار ريبتها.

- هل حدث لزوجي مكروه؟!

- زوجُكِ تم قتله.

إجابة تخلو من الرفق وتعزم على نتيجة واحدة؛ ألا وهي الإطاحة بعقل المرأة، وهذا ما حدث، خطوات مُتثاقلة إلى الوراء وسقوط يتبعه نوبةٌ من الهلع؛ فكانت الفُرصة مواتية لعلياء للدخول وهي تعلم بأنَّ المنزل يخلو من أبنائها، وجَّهت ضربةً على رأسها لتُطيح بوعيها على الفور، ثمَّ البحث سريعًا عن غرفة وحيد التي أخبرَتها ورقة النتيجة المُقدّمَة إليها عن حتمية الوصول إلى غرفته والظفر بخطابه المُخبأ أسفل الدولاب!

لحظات حتَّى عثرَت عليها، لتمد يديها بالأسفل وتظفر بما جاءت من أجله، رأت الخطاب؛ فأفرغت مُحتواه، وهي ورقةٌ مطوية باشرت في قراءتها دون تردد..

"أنا وحيد الشاب الضائع، التائه والسّفيه؛ فلتنعتني بما تُريد أيُّهم كان يُرضيك فلا بأس به، أسيرُ مُودّعًا المنصورة المُقرّبَة من القلب نحو القاهرة؛ أرض المُعز والثورات وأرض الاستقلال التام أو الموت الزئام، نعم هي أرضنا مصر الطيبة التي يقولون عنها أم الدنيا.

هذا الخطاب أشبه بمذكرة ستحدُث عمَّا قريب؛ فلستُ بمنجمٍ أو عرَّاف أقرأ الكف وعبر خيطيه أتلو عليك المستقبل وأحداثه، إن كنت تقرأ هذا الخطاب فهذا يعني موتي المحتوم، وأنَّك الإرث الذي سيحمل عني لواء الإبصار ودمًا لا ينضب مع الزمان، التاريخ كان محض فقَّاعة أباحَت للمُهيمنين عليه فرض لجامهم في الحاضر والمُستقبل يكمن بأيدي بعض الجماعات، ها أنا أسير عبر طيَّات الرحلة؛ فأشهد العالم أجمع بعقلي دون أن أرى الحضارات، وأنت ستغدو الإرث الخفي وستعلم

كلمات الأب والدائرة التي ستجلب الخلاص، آمُل أن تكونين أنتِ يا علياء من تقرئين تلك السطور، ولقد أحبَبتُكِ بحق قبل أن أراكِ وإن اختلفت الجماعات وتضادَت المُعتقدات، ويقيني يتَّسع ويفيض؛ فإن لم أظفر بكِ حيًا فستكونين على دربي ميتًا، وأنتِ ودونًا عن الجميع من ستحمل رايات الإبصار العظيم، يا من تحمِل الخطاب يتحتّم عليك حمل ورقة النتيجة؛ فلتقم بتسليط ضوء الشمس نحوها، ذلك الضوء الذي لم أحبه يومًا، وعندها سترى الدائرة وتعلم الطريقة التي تُحضِّر بها النفس، سأقتص من الجماعات ومن نفسي مُسطرًا نهاية كل شيء..

وداعًا."

صيحاتٌ متوالية وشهيق يتلوه خضب الكف على الفراق، ما زالت علياء جاثمة على الأرض تتأوّه خيفةً وألمًا مُتذكرة كيف كان لقاءها الأخير مع وحيد وهو يعلم كونه اللقاء الأخير، لماذا رحل دون أن يُخبرها؟! فكانت لتمكُث معه أبد الأبدين، كانت الدقائق كافية لاستيعاد ما تبقَّى من عقلها؛ لتقف بأعينها الدامعة والمُشتعلة بمرارة الفقد قائلة:

- سأغدو مُبصرةً أسير على دربك يا وحيد، أعدُكَ بأنَّني لن أخذلك ما حييت، أنت وعدتَنِي بالعودة وبأنَّني سأراك مُجددًا وأثق في ذلك الأمر، سنفعلها معًا.

قبضت علياء على ورقة النتيجة تُقربها من النافذة حيث يتوغل ضوء الشمس لترى الدائرة والكلمات التي نفِذَت إلى عقلها دون مصد؛ فلم تُدرِك ما يحدث، خيطٌ أسود اللون يمتد من جسدها ليُشكّل ظلًا بشريًا دون أن تراه، وعبر حدقة عينيه وشعره الأكرت ينظر نحو الفتاة العازمة فيحتضنها مُبتسمًا:

- ها نحن نبدأ مُجددًا...

تمَّت بحمد الله

شكر خاص إلى كل من ساهم في بزوغ هذا العمل نحو السماء ...

" طارق عز " ، الناقد الكبير والبوكتيوبر الأشمل على الإطلاق.

" خالد جمال " ، صاحب النصائح القيِّمة.

" ياسر القاضي " ، صديق الأمس وسند اليوم.

" هالة فؤاد " ، المُدققة الصبورة ذات الآثر الطيب.

" مريم جمال " ، قارئة العشرين بخبرة عجوزٍ فطن.